دراسات في العصور العباسية المتأخرة

تأليف

الدكتور
عبد العزيز الدوري
استاذ التاريخ الاسلامي في دار المعلمين العالية

تعهدت طبعه ونشره
شركة الرابطة للطبع والنشر المحدودة
١٩٤٥

مطبعة السريان — بغداد

«ان الشكوك هى الموصلة الى الحق.

فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر

لم يبصر ومن لم يبصر ، بقى فى العمى

والضلال »

الغزالى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لعل اهم مزايا دراسة التاريخ تنمية ملكة النقد وتوسيع افق التفكير من جهة، وملاحظة عوامل التقدم والتدهور في المجتمعات ومواطن القوة والضعف فيها ومعرفة نفسية الامة وأثرها على تطورها من جهة اخرى.

وليس التاريخ توقيت الحوادث او دراسة الشخصيات، بل هو موضوع حي يصور لنا حياة الامة وتدرجها، والحياة متعددة النواحي متشعبة ولذا فعلى المؤرخ دراسة المجتمع من مختلف نواحيه - الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية - وتحليل تركيبه الاثنولوجي، وبيئته الطبيعية وحتى اساطيره وخرافاته، وان يدرس هذه النواحي بعضها بضوء بعض، مشتبكة، مؤثرة متأثرة.

ولا تكفي دراسة جزء من المجتمع دون جزء، لان اجزاءه قد تكون متلائمة متكاتفة تسير في اتجاه واحد، او متنافرة متضاربة وبذلك تتعدد فيه التيارات وتتصادم القوى فيتبع ذلك تطورات بعيدة المدى. ولا يمكن فهم المجتمع في كلا الحالين ما لم يدرس وحدة كاملة. فمن يستطيع معرفة المجتمع البغدادي في العصر البويهي مثلا اذا اهمل دراسة العيارين والشطار او اغفل الحديث عن الحياة في محلة الكرخ او باب البصرة! وفهم الحركة العلمية في العصر العباسي الاول مثلا يكون ناقصاً اذا قصرنا بحثنا على حركة الترجمة التي شجعها الخلفاء، ولم نبحث في الشعوبية

واثرها في الترجمة عن الفارسية (لاحياء مجد الفرس) وتنقيبها في انساب العرب وتاريخهم والدس عليهم للتشهير بهم ، وكذلك النضال الثقافي بين الاسلام وبقية الاديان ، ذلك النضال الذي ادى الى تطور علم الكلام وحث المسلمين على دراسة الاديان الاخرى ، والى انتشار كتب المانوية والزنادقة ودعاياتهم . ولن نفهم الفلسفة الاسلامية ما لم نفهم التصادم بين الدين والفلسفة . وموسوعة (رسائل) اخوان الصفا لا تفهم ما لم تدرس على ضوء النضال الاجتماعي بين الطبقات وسعي بعض المفكرين لقلب النظام الاجتماعي القائم بتعميم الفلسفة والمعرفة .

ولا نفهم تاريخ الامة بدراسة الحوادث وحدها، فما هي الا مظاهر لعوامل وتيارات واوضاع بعضها خفي مستور وبعضها بين ظاهر فكم من حركة جاءت باسم الدين ، وما الدين الا ستار اخفت وراءه اغراضها الحقيقية، سياسية او اقتصادية او اجتماعية . فحركة الاسماعيلية والقرامطة مثلا لا تفهم اذا اعتبرت دينية ، اذ ان اصولها نمت من الوضع الاجتماعي السياسي السائد ، واهدافها اقتصادية اجتماعية بالدرجة الاولى . وكم من زعيم ظهر وقام باعمال جليلة وما ذلك الا لفهمه ظروف مجتمعه والاستفادة منها استفادة حسنة ، وخير مثل لذلك حمدان قرمط الذي اخذ القرامطة اسمهم منه . ومن يدرس الحركات الناجحة يجد برامجها صدى للشكوى والتذمر السائدين ، ووعداً باجابتها كما يتضح من دراسة حركة الخرمية وثورة الزنج .

ومن نواحي الضعف الحتمية في بحث التاريخ ، تقسيمه الى فترات

ودراسة كل فترة على حدة كأنها شيء قائم بذاته ، والتاريخ براء من هذا التقسيم . نعم قد تحدث تبدلات سياسية سريعة كحدوث غزو اجنبي او سقوط عائلة حاكمة وقيام اخرى محلها ، ولكن ذلك لا يعني مجيء عصر جديد . فمع أهمية التبدل السياسي ، علينا ان نتذكر عوامل اخرى مهمة ايضاً من شأنها ان تسبب استمرار الحياة وبطء التبدل كالعوامل الجغرافية (اقتصادية وطبيعية) ، والتركيب الاثنولوجي للسكان ، ورسوخ المؤسسات الثقافية والتقاليد وبطء التبدل الاجتماعي ، ونفسية الامة التي تكونت بمرور الاجيال . فالناظر الى الهلال الخصيب بعد الفتح الاسلامي يلاحظ مجيء عنصر جديد ، وبوادر اتجاهات جديدة ، ولكنه يرى ان اسس الادارة المحلية ، ومعيشة السكان بقيت مدة طويلة والى حد كبير على ما كانت عليه . ومجيء العباسيين لم يحدث تبدلا فجائياً في الوضع الذي خلفه الامويون .

واذن ، فالمجتمع يسير في تياراته ، وهو دائماً في طور انتقال وتبدل ، يختلف قوة وضعفاً باختلاف الاوقات والظروف . فالتبدلات التي حصلت في الهلال الخصيب في العصر الثاني مثلا لا تقارن من حيث اتساعها وسرعتها بالتبدلات التي تلت الفتح الاسلامي او الحرب العالمية الماضيه . ولكننا نقول انه لا تبدل فجائي ، ولا انقطاع في سلسلة التطور .

والآن اشير الى اتجاه شائع ، وهو ان الباحثين يحاولون تلمس اسباب سقوط الدولة بدراسة دور ضعفها ، وفي ذلك ضعف كبير . فنقاط الضعف الاساسية كانت في الدولة منذ تأسيسها ، الا ان نواحي القوة

توقف تأثيرها ، وما ان تضعف هذه النواحي حتى تستفحل تلك وتلعب دورها المنتظر . ولنأخذ الدولة الاموية مثلا لتوضيح رأينا .

فالامويون ـ على رأي جانب كبير من الامة ـ مغتصبون للحكم وكان انتصارهم (على رأي بعض العرب) انتصاراً لقريش على بقية العرب ، وانتصاراً لدمشق على الكوفة . فناوئتها الاحزاب السياسية من شيعة وخوارج ، فكان العراق مركز الشيعة ، والجزيرة (شمال العراق حيث الوضع يساعد على تجول القبائل) مركزاً قوياً للخوارج ، وانتصار الامويين فيه انتصار للنزعات والتقاليد العربية من بينها العصبية القبلية وما يتبع ذلك من خصومات قبلية وتنافس على النفوذ وعدم ادراك لاهمية الحكم المركزي او الخضوع له . ويتبع ذلك شيء مهم وهو ان التقاليد القبلية لا تعترف بنظام الوراثة المطلقة في الحكم ، وكل ما تذهب اليه هو اعطاء السلطة لاصلح افراد العائلة المالكة . فنتج عن ذلك مشكلة العهد ، وكان تاريخ الامويين فترة نزاع صامت بين مبدأ الوراثة المطلقة ، وبين المبدأ القبلي الذي انتصر في مجيء مروان بن الحكم ومروان الثاني الى الحكم مثلا . ومن أهم تلك التقاليد ، احتقار غير العرب في الحياة الاجتماعية واستغلالهم مالياً فادى ذلك الى نمو عداء كامن بين الحاكم والمحكوم والى محاولة الشعوب المحكومة استرداد حريتها فكان لذلك ابلغ الاثر في سقوط الامويين . ثم أن نقل مراكز العرب من الجزيرة الى خارجها جعل هؤلاء اقلية بالنسبة للشعوب المحيطة بهم فكان ذلك يتطلب ان يبقوا أمة عسكرية في مدن محصنة . ولكن ذلك يغاير سنة التطور (بعد ان تكدست

الاموال بيـد العرب و بعد ان اختلطوا بمن حولهم من الاعاجم) التى لعبت دوراً مهما في زيادة نفوذ الاعاجم اجتماعياً وثقافياً و بالاخير سياسياً . وكم نظلم العباسيين في قولنا انهم سلطوا الاعاجم ، ناسين ان ذلك التسلط بدأ في ايام الامويين الذين حاولوا ايقافه دون جدوى .

كل هذه البذور الهدامة كانت كامنة في كيان الدولة الاموية ، واكتسبت قوة على مرور الايام وساعدها في ذلك ضعف بعض الخلفاء المتأخرين وقصر نظرهم ، فاودت بالاسرة الاموية الى الدمار .

هذه اشتات من الملاحظات ، شعرنا بضرورة تسجيلها . ولنختم ملاحظاتنا قائلين ان التاريخ الاسلامي يكون سلسلة متصلة ، فيها علامات تساعد الباحث وتلك هي التبدلات السياسية .

٢ — ولنأت الآن الى العباسيين .

فقد تناولنا في هذا الكتاب صفحات من تاريخهم — في ادوار ضعفهم السياسي — بشكل موجز دفعنا الى نشره ضآلة ما كتب في العربية عنها ، فضلا عن ارتباكه . وقد جزأنا البحث الى مواضيع منفردة ولكننا نشعر بضرورة اعطاء نظرة شاملة لتوضيح مجرى التطور في هذه الفترة الطويلة (٢٢٧هـ-٤٤٧هـ) لنبين ان وراء حوادثها المشتتة سلسلة مترابطة من الاتجاهات والتيارات . وللنظرات الشاملة أهمية خاصة في الدراسات الحديثة في التاريخ .

فلنرجع اذن الى العهد العباسي الاول (وقد بحثناه في كتابنا

« العصر العباسي الاول » ـ بغداد ١٩٤٥) لاستعراض بعض النقاط الحيوية وربط التطور بفترتنا .

قامت الدولة العباسية على اثر دعاية سرية اتخذت من حق بني هاشم الشرعي في الخلافة صيحتها السياسية ، ومن الوعد بتحسين اوضاع الموالي اجتماعياً واقتصاديا وسياسياً ومساواتهم بالعرب برنامجها الاجتماعي ، ووعدت باتخاذ الكتاب والسنة والعدل قانونا بين المسلمين .

واثارت الدعوة العباسية قوى كانت كامنة مكبوتة : استغلت تذمر الايرانيين ، وقوت فيهم الميل للوصول الى الحكم ولاحياء مجدهم التالد ، وفسحت المجال لظهور بعض التيارات الاجتماعية الكامنة وخاصة مبادىء الغلو ومذهب الخرمية الذي تسلل من حركة مزدك ، تلك الحركة التي كانت تمثل صرخة جماهير الايرانيين ضد النظام الطبقي القائم السائد منذ العصر الساساني ، والذي لم يغيره الاسلام ، وكانت الدعوة تأمل من ذلك جلب ود الايرانيين وتأييدهم لها .

واستهدف العباسيون (متعظين عما اصاب الامويين من دمار) خلق جو من التفاهم والتعاون بين العرب وبين الموالي ـ ولاسيما الفرس ـ معتقدين بان الاستقرار لن يتم الا بتعاون مختلف عناصر الدولة .

فهل حقق العباسيون وعودهم وآمالهم ؟

ان دراسة العصر العباسي الاول تنفي ذلك . ولعل فشل العباسيين نتج عن خطأ في تقديرهم لحقيقة الاوضاع ، وعدم استقامة سياستهم ،

والتيارات التي اثاروها ، وعن طموح الايرانيين انفسهم .

فهم وعدوا بالسير على الكتاب والسنة ولكنهم لم يفوا بوعدهم وانما استفادوا من الدين لتقوية حكمهم المطلق وتبريره . ولتخدير او محو الرأي العام ، فخاب أمل الآملين فيهم في هذا الحقل .

وادعوا بحق الهاشميين الشرعي في الحكم ولكنهم استأثروا به ونكلوا بابناء عمهم العلويين وضيقوا الخناق عليهم فأدى ذلك الى ثورات مستمرة قام بها هؤلاء ، ثم أدى الى دعوة سرية خطرة في الحركة الاسماعيلية.

واشرك العباسيون ارستقراطية الفرس في الحكم ، ولكن طموح هؤلاء ورغبة بعضهم في ارجاع سلطان ايران ومجدها ، ثم حرص العباسيين على سلطانهم - كل ذلك جر الى التنكيل بزعماء الفرس ووزرائهم وأدى الى سوء العلاقة بين العباسيين وبين الارستقراطية الايرانية .

وتضمن تمريب هذه الارستقراطية ، ابقاء الوضع الطبقي في ايران على ما كان عليه ، فلم يعمل العباسيون ما يذكر لتخفيف الضغط الاقتصادي والاجتماعي على جماهير الايرانيين ، فلم يرضخ هؤلاء لوضعهم ، ووضعوا المسؤولية على العباسيين ، فأخذت المبادىء الخرمية تنتشر بينهم حتى صارت رمز وعي الامة الايرانية في كفاحها للتخلص من حكم العباسيين .

ولما فشلت الارستقراطية الفارسية في التعاون مع العباسيين حاولت - لدوافع سياسية - ان تتعاون مع الجماهير ضد الحكم العباسي ، فنشأت الامارات الايرانية الاولى .

ولم ينجح العباسيون في تكوين جو من التفاهم والتعاون بين العرب والفرس. فالعرب صعب عليهم تقريب الفرس، والفرس صاروا يطمحون لاحياء مجدهم . فكان كل من الفريقين يحقد على الآخر ويسعى لاضعافه ، وظهر ذلك في حركة الشعوبية التي استهدفت تصغير شأن العرب ووصمهم بكل رذيلة. وظهر في حركة الزندقة التي ارادت نقض سلطان العرب وكيانهم بضرب سر مجدهم وهو دينهم . وظهر في البلاط والسياسة حيث حصل تكتل من الجانبين (العرب والفرس) للاستئثار بالسلطان : بدأ ذلك في زمن البرامكة وفي البيعة للأمين والمأمون واستفحل في النزاع بين الاخوين .

فهل نستغرب ، بعد ان عرفنا استمرار ثورات الجماهير الايرانية وطموحهم القومي ودسائس ارستقراطيتهم ، إخفاق العباسيين في تعاونهم مع الفرس ؟

وجاء المعتصم فوجد نفسه في وضع حرج ، فقد خيب المأمون امل الخراسانيين من جديد ، بنكبته بني سهل وبتركه لمرو ورجوعه الى بغداد وهدم آخر حجر في صرح التعاون العباسي الايراني . والعرب في وضع مضعضع لمقتل الأمين . وزاد الطين بلة التفاف قسم كبير من جندهم حول العباس بن المأمون ضد المعتصم ، فنكل بزعمائهم وأساء الظن بهم . وكانت الدولة مهددة بثورة بابك المستفحلة وبخطر البيزنطيين على الحدود وبتذمر اهل الشام ومصر . فكان بحاجة الى عنصر عسكري جديد يسند سلطانه ، فالتجأ الى عنصر بدأ يتوارد كرقيق الى البلاد الاسلامية

قبله، كما اخذ الاسلام ينتشر في بلاده بصورة بطيئة وذلك هو عنصر الترك .

وكانت خطوة المعتصم هذه بعيدة المدى بنتائجها . فالترك آنئذ شعب بدوي ميزته الوحيدة شجاعته العسكرية ، فهو لا يفهم الاسس المعنوية للدولة العباسية ، ولا خبرة له بالادارة ، ومجرد من كل ثقافة .

فلا غرابة ان كان تقديم الترك عاملا مهما في زعزعة قواعد الخلافة العباسية، اذ سرعان ما استفحل نفوذهم بعد نقل مركز الخلافة من معقله الحصين وموطن انصاره (بغداد) الى سامراء التي بنيت معسكراً للترك وساعدتهم الظروف على التلاعب بمقدرات الخلافة .

فالواثق (ذلك النكرة في السياسة والادارة) لم يقم بفعاليات عسكرية تذكر . فكان حكمه فترة ركود جعل الترك يشعرون باهميتهم ويتدخلون في السياسة . وبدل ان يقف الخليفة ضد هذا الاتجاه ويقصر فعاليتهم على النواحي العسكرية (كما كان الوضع زمن المعتصم) نراه يسهل الطريق له بتعيينهم في الادارة . فاتسع مدى نفوذهم . ولعل ضعفه وقلة ادراكه مسؤلان عن خطأة خطيرة وهي عدم تعيينه ولي عهد بعده ، ففتح للترك باب التدخل في آخر مراحل السلطة وهي اختيار الخليفة . فلم يترددوا في استغلال الفرصة بل كانت لهم اليد الطولى في انتخاب المتوكل فكانت هذه سابقة جرت الويلات على العباسيين

والآن بدأت فترة نزاع بين الخلفاء والترك ـ خفي عيناً وعلني احياناً ـ استمرت الا فترة قصيرة، حتى الفتح البديهي ، كان فيها نفوذ

الترك من أهم مشاكل الخلافة .

فقد وجد المتوكل الترك مسيطرين على الادارة والسياسة ، فحاول صد تيارهم بمختلف الاساليب كالتقرب من العامة وتقريب العرب والسعي لتفريق صفوف الأتراك ، ومحاولة نقل العاصمة الى دمشق او الى الماحوزه (شمال سامراء) ، ولكنه اخفق في مسعاه لانهم رغم انقسامهم على انفسهم كانوا يشعرون بالمصلحة المشتركة ، وساعدهم تخليط الخليفة في امر العهد وانقسام العائلة المالكة على نفسها فاستغلوا ذلك لقتال خصمهم والتخلص منه . وتلى ذلك فترة فوضى مريعة ، ولكنها نتيجة حتميـة لهيمنة الترك بعد انتصارهم على الخليفة نفسه . وقد دامت تلك الفـترة تسع سنوات حكم فيها اربعة خلفاء ، وهي جديرة بالتحليل لتوضيح التطورات التي تلتها .

والحق ان « فترة التسع سنوات » (٢٤٧هـ—٢٥٦هـ) كانت فترة محنة للدولة العباسية اختبرت فيها قوتها الـكامنة ودرجة رسوخهـا ومدى مرونتها فخرجت منها بنصر موقت بعد جراح وتقطيع اوصـال . ويرجع ذلك الى عوامل قوية اهمها تأصل حكم العباسيين وقدسية الخلافة بنظر الجمهور الذي كثيراً ما وقف مناضلا بجانب الخلفاء ضد الترك .وهذه الحرمة هي سر بقاء البيت العباسي في الحكم وعدم تفكير الاتراك بنقله الى بيت آخر .

وهناك اوضاع وتيارات ودعايات ظهرت في هذه الفترة. اوضحها

استبداد الترك بالسلطة وتعيينهم للخلفاء مسوقين بدوافع اطماعهم الخاصة وحبهم للسيطرة لا بضوء مبدأ او مثل ، ولذلك اختاروا من توسموا فيهم الخضوع والانقياد لرغباتهم . ومتى لاحظوا من الخليفة تصلباً هاجموه من موطن ضعفه وهو افلاس الخزينة فيطالبون بالارزاق ويتخذون ذلك ذريعة للفتك به . وكانوا احياناً يحدثون الشقاق والتنافس بين افراد الاسرة المالكة ليسحقوا الخليفة وايولوا من يريدون .

وتجاه تيار الترك وقفت جرأة الخلفاء ونضالهم لاسترجاع سلطانهم المفقود . فمن الخطأ ان ننسى اهمية هذه النقطة او ان نتصور ان انتعاش الخلافة بعد هذه الفترة كان فجائياً او بنتيجة جهود الموفق والمعتضد وحدهما اذ كان للمعتز والمهتدي من خلفاء هذه الفترة اثر مشكور في ارجاع قوة الخلافة . وقد سار الخلفاء في كفاحهم على مبادىء واحدة . فقد لاحظوا (ولاسيما المعتز والمهتدي) جشع الترك وانانيتهم وما يتبع ذلك من تنافس فحاولوا تقسيم الجيش على نفسه بتحريك المغاربة والفراعنة ضد الترك المستبدين او بتحريض الجيل الجديد من الترك (ابناء الاتراك) ضد الجيل المتنفذ وباثارة الزعماء ضد بعضهم . وكانوا احيانا يلجأون الى الاستعانة بالعوام ضد الجيش كما فعل المهتدي . ولاشك ان التنافس بين فرق الجيش وانانية افراده كان سبباً في انهاكه وعاملا ساعد على تقوية نفوذ الخليفة في نهاية هذه الفترة .

ونتج عن استبداد الترك واستئثارهم باموال الجباية، فراغ الخزينة

حتى صارت تشكو الافلاس المزمن، وقد حاول بعض الخلفاء كالمهتدي سد هذا العجز والاقتصاد في النفقة، ولكنهم فشلوا امام فوضى الترك وطمعهم بالمال.

كما اننا نحس بخط آخر وهو تعاظم نفوذ الحرم في البلاط وتدخله في السياسة. فهذه ام المستعين تجمع الاموال الطائلة وتنسج لها بساطاً واحداً كلفها (كما يقال) مائة وثلاثين مليون درهم. وتلك ام المعتز تشارك زعماء الترك في نهب موارد الخزينة والتمتع بها في حين كان ابنها يشكو الافلاس، ويذهب بها جهلها الى ان تنكر الاموال عليه في ساعته الحرجة فيذهب ضحية طمع الترك. وهكذا اجمع الترك والحرم على تدمير الخزينة.

واثمرت الفوضى في المركز ثماراً مرة للدولة العباسية فانها سهلت الطريق للمتذمرين والطامحين للقيام ضد بني العباس. فانفصلت الولايات البعيدة اما بنتيجة حركات شعبية — كقيام الصفاريين في سجستان — او طموح بعض الولاة كالطاهريين والسامانيين في خراسان وما وراء النهر. ومما ساعد على الانفصال ان زعماء الترك كانوا عند توليتهم على المقاطعات لا يريدون ترك العاصمة، فيرسلون نوابا عنهم، وهذا الاهمال شجع احد الطموحين من النواب، وهو احمد بن طولون على الانفصال بمصر.

وانتهز العلويون فرصة ضعف المركز لتأكيد حقوقهم. فهم رغم الضربات العسكرية التي اصابتهم في العصر العباسي الاول، بقيت مبادئهم حية وازداد انتشارها على مر الايام اذ كانت قدسيتهم في نظر الجمهور تزداد بازدياد اضطهادهم. ولم يكن انقسامهم الى ثلاث فرق كبرى (امامية

وزيدية واسماعيلية) الا عاملا على زيادة نشاطهم . ففي هذه الفترة ذهب بعض الزيدية (الحسن الاطروش) الى منطقة جرجان وطبرستان و نشر فيها بالاسلام ونشر المذهب الزيدي . فكانت حركته هذه بدء زوبعة في جنوب بحر قزوين لم تلبث - بعد فترة تقل عن قرن - ان غمرت بغداد ذاتها واخضعتها لسيوف البويهيين .

وانتشرت دعاية الاسماعيلية والقرامطة سراً بصورة واسعة في الشرق الاسلامي ، ثم تلتها انفجارات عسكرية .

وانتجت دعاية صاحب الزنج في اوساط العمال والفلاحين في جنوب العراق حركة كادت تمزق كيان الخلافة .

ولا يمكن تفهم انتشار هذه الحركات وخطورتها الا بعد معرفة العلاقة بين المبادىء التي بشرت بها وبين الوضع الاجتماعي والاقتصادي للجماعات التي انتشرت بينهم . ففي طبرستان والديلم نجد بالاضافة الى الروح القومية والعداء السياسي للعباسيين ، نظاما طبقياً يعطي الجاه والثروة لجمهرة من الشيوخ (الكدخداهية) ويضع العبء على الجماهير . فاتفق العلويون مع الجماهير ودافعوا عن مصالحهم ، وبذلك اكسبوا حركتهم صفة شعبية فنجحوا في جهودهم .

وفي الشرق الادنى كان في نظام الضرائب من العسف في الجباية والزيادة في الضرائب وسوء المعاملة ما كان دافعاً هاما لكثير من الثورات في العصر العباسي الاول . ثم تدهور الوضع المالي من جهة وتعقد من جهة

اخرى في العصر الثاني . فالفوضى الادارية التى عمت في فترة القسم سنوات ادت الى تدهور نظام الري والى الزيادة في ظلم الجباة والملاكين للفلاحين والى انتشار الفقر والتذمر العام . ثم ان ظلم الجباة دفع الملاكين الصغار الى الجاء ضياعهم الى الشخصيات الكبيرة فادى ذلك بمرور الزمن الى توسع وانتشار الملكيات الفردية الكبيرة على حساب الزراع الصغار ثم الى زيادة المتذمرين . ومن جهة اخرى ، حدثت تطورات اقتصادية هامة في المجتمع بتوسيع التجارة . ومن المفيد هنا ان نرجع الى الوراء لنستعرض بايجاز خطوات تطور المجتمع الاسلامي من الناحية المادية .

فالعرب الذين تركوا الجزيرة الى الهلال الخصيب وما جاوره فاتحين ومهاجرين ، مروا بادوار انتقال اقتصادي اهمها :

١ — دور البداوة والسكنى في معسكرات منفصلة . اذ كان جل الفاتحين من البدو الرعاة ، فكان من المحتم ان يكون طراز معيشتهم استمراراً للحياة التي ألفوها في الجزيرة ومما قوى هذا الاتجاه ان الخليفة عمر ابن الخطاب (رض) اراد ان يكون العرب أمة عسكرية تجاهد لاعلاء شأن الاسلام . ولاحظ قلة عددهم بالنسبة للامم المغلوبة فنظمهم في معسكرات او مدن عسكرية خاصة ولم يشجعهم على الزراعة ، بل فرض الارزاق لهم ولعوائلهم . والناظر الى المدن الاسلامية الاولى - عند نشأتها - كالكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان يجدها مجتمعات قبلية بنعراتها وتقاليدها وشكل حياتها وبقي العرب ، فترة من العصر الاموي ، يحتقرون كل

مهنة عدا مهنة الحرب ، تاركين الصنائع اليدوية والزراعة الى الاعاجم الذين كانوا « يكنسون طرقهم ويخرزون خفافهم ويحوكون ثيابهم » .

ولكن تبدل البيئة على العرب لعب دوره . فصلتهم بالاعاجم - وكانت تقوى على مرور الايام - وكثرة دخول هؤلاء في الاسلام ، وتجمع الثروة لديهم ادت الى تسرب الترف والعادات والآراء الاجنبية ببطء اكيد اليهم . ورأوا في الارض مصدر الثروة فمالوا الى اقتناء الاراضي والضياع يستغلونها بتشغيل سكان البلاد المحليين في زرعها ، وهكذا بدأ دور اقتصادي جديد وهو دور الاقطاع بدل دور الارستقراطية العسكرية. ولكن السادة الاقطاعيين كان جلهم من الامويين او من القبائل الموالية. وظهر هذا الدور بجلاء في الربع الاول من القرن الثاني للهجرة . فكان خير مثلا لذلك الخليفة هشام بن عبدالملك ، اكبر ملاكي عصره ، وخالد القسري ، ومسلمة بن عبدالملك .

الا اننا نشعر في نفس الوقت بان بعض العرب في الامصار ، كالعراق وخراسان ومصر ، اخذوا يقتنون الاراضي و يشتغلون باستثمارها ويسكنون عليها . ثم قوي هذا الاتجاه بانتقال الحكم الى العباسيين لعدة عوامل منها نكبة الارستقراطية الاموية واشراك الاعاجم في الحكم مما اضعف عنجهية العرب وقلل من شعورهم الارستقراطي فاخذ بعضهم يشتغل بالمهن الحرة . ومنها زيادة الاختلاط بالفرس وتقدم المجتمع في الحضارة وضعف الروح البدوية الاصلية . فادى هذا الاتجاه الى دخول المجتمع في دور زراعي .

وكانت التجارة موجودة دائماً ولكنها تقتصر على عدد صغير . فلما اصبح العراق مركز الخلافة ، وهو على ملتقى الطرق التجارية العالمية انتعشت حركة التجارة وتوسعت وساعد على ذلك ترف الخلفاء ومن يحيط بهم وتشجيعهم للتجار ، ووجود تقاليد وصلات تجارية قديمة لاهل الخليج الفارسي وعرب السواحل والفرس بمختلف انحاء الشرق المتمدن كالهند والصين واواسط آسيا وافريقية . وكانت ارباح التجار الطائلة اغراء كبيراً لاشتغال الناس بالتجارة . وتوسعت طبقة التجار باشتغال العرب بالتجارة واهتمامهم بها ، وبنمو وتوسع المؤسسات الصيرفية . فانتقل المجتمع تدريجياً الى طور تجاري صارت فيه التجارة ركناً من أهم اركان الحياة الاقتصادية بعد ان كانت ثانوية .

وبتوسع التجارة ظهرت طبقة من اصحاب رؤوس الاموال الواسعة ، اخذت تستثمر اموالها بتوسيع تجارتها او باقتناء الاراضي ، فادى ذلك الى زيادة انتشار الملكيات الكبيرة في الارض . ونشأ عن تقدم الحضارة تحسن في اساليب الزراعة وميل الى استغلال الارض استغلالا مركزاً ، مما استوجب زيادة الايدي العاملة عليها . فلجأ بعض اصحاب الضياع الواسعة الى استخدام العبيد استخداما واسعاً في مزارعهم . وقد عرف عن الزنج الصبر على العمل والقابلية على الكدح ، فنظم التجار الحملات لاصطيادهم او لشرائهم من جهات شرق افريقية واواسطها وجلبوا منهم الالوف . واستخدم الزنج في مختلف جهات العراق ، ولاسيما على

الاراضي السخبة المحيطة بالبصرة حيث حشد الالوف منهم . ولم تكن هذه الجماهير من الزنوج تفهم شيئاً ما عن البيئة الجديدة او عن ثقافتها . فلا غرابة ان أدى تشغيلهم على هيئة جماعات كبيرة في محل واحد ، وسوء وضعهم المعاشي وصعوبة عملهم الى تذمر دفين انفجر في ثورة خطرة عندما وجد من اثاره ووجهه .

ولم تكن ثورة الزنج الا ثورة طبقية محـدودة الافق ، تستهدف تحرير الرقيق من الزنوج فقط ، وهي تمثل لنا اول صرخة اجتماعية خطرة في العصر العباسي الثاني ضد النظام الاجتماعي الاقتصادي السائد . كما انها تكشف لنا عن مدى فضاعة استغلال الرقيق بشكل يخـالف مبادىء الاسلام ويمثل الجشع المادي المتطرف لاصحـاب الاموال . ثم ان دراسة حوادث الثورة تظهر شـدة حقد الزنوج على اسيادهم وحنقهم على المجتمع الاسلامي ، اذ قاموا بفضائع ومنكرات لا يقدرهـا الا من تصفح الطبري الذي يتحدث عن الثورة باسهاب عجيب يدل على مدى خطورتها آنئذ . وقد انهارت بعد ان خربت مزارع قسم كبير من السـواد ودمرت عدداً كبيراً من قراه ومدنه الهامة كالبصرة والابلة ، ولعل فشلهـا ناتج بالدرجة الأولى عن كثرة فضائعها وخلوها من برنامج اجتماعي شامل .

وكانت هنـاك في هـذه الفترة نفسهـا ، حركة اخرى ـ دينيـة بمظهرهـا ، سياسية ، اجتماعية ، اقتصـادية باهدافهـا ـ ثبت دعاتها بتكتم وحكمة في العراق وهى حركة الاسماعيلية . ومع ان

الباحثين المستشرقين وغير المستشرقين (مثل دي ساسي ، ودي خويه ، وگيارد ، وبراون ، وماسفيون ، وايفانوف ، والهمداني ، ولويس) وجهوا عناية خاصة لدرسها الا ان ابحاثهم تناولت المظهر الديني او السياسي للحركة ولم تعن ببحث الاساس الاقتصادي لها ، ولم تفحص مصدر مبادئهم فحصاً شافياً ، ومع اني بحثت هذه النقاط في الفصل الخاص بالاسماعيلية والقرامطة، الا انني اراني في حاجة الى اظهار الحركة على ضوء العصر الذي نشأت فيه وادخالها ضمن الاطار الشامل الذي قصدنا اعطاءه في هذه المقدمة .

وأول ما يجلب الانتباه هو ان الحركة الاسماعيلية نبعت من الكوفة ولاقت في منطقتها اول نجاح علي ، وهذه نقطة لها أهميتها . فالكوفة كانت مجمعاً للثقافات والديانات القديمة ومركزاً مهماً من مراكز الغلو الذي استغله العباسيون في دعوتهم . والغلو نفسه لم يكن الا ستاراً استخدمه الموالي في العصر الاموي لتحسين وضعهم الاجتماعي والاقتصادي السيء كما ظهر في حركة المختار (انظر فلهاوزن ص ٦٨) . ولكن الغلو اخذ ينتشر في هذه الفترة بين جماهير العرب وذلك لان التعاون ووحدة المصالح بين الارستقراطية العربية والفارسية ، وانتقال المجتمع الى الدور التجاري ادى الى وقوع الجماهير من العرب والموالي في وضع معاشي واطيء والى انقسام المجتمع على اساس اقتصادي لا عنصري .

واستمر الغلو يحمل في ثناياه الثورة على النظام السائد . وقد تستر الغلاة باسم الشيعة ليتخذوا من حق العلويين في الخلافة صيحة شرعية ضد

العباسيين ، ووجد قسم منهم في اسماعيل بن جعفر الصادق واحفاده ائمة يدعون اليهم .

ومع ان العباسيين استغلوا الغلاة وتعاونوا معهم في فترة الدعوة ، الا انهم بعد توصلهم الى الحكم تنصلوا منهم دون ان يتمكنوا من ايقاف قوتهم التي اثاروها ، وسرعان ما توجهت تلك القوة ضدهم لانهم ابقوا الوضع على ما كان عليه . فلا غرابة ان نشأت نواة الحركة الاسماعيلية في خلافة ابي جعفر المنصور الذي اضطر الى ضرب الغلاة علناً في تنكيله بالراوندية وبالخرمية .

لكن قوة خلفاء العصر الاول ، اضطرت الاسماعيلية ان ينقلوا مركز دعوتهم الى الاهواز ، ثم الى سلمية قرب حمص والى اختفاء ائمتهم . ولعل دعايتهم رجعت الى سواد الكوفة بعد مقتل المتوكل ، فجاءت في ظرف مناسب من كل النواحي . فاضطراب الخلافة اضعف الرقابة عليها . كما ان سوء الادارة وما تبعه من ظلم جعل وضع الفلاحين الاقتصادي سيئاً ، وزاد الطين بلة ثورة الزنج وما خلفته من خراب . هذا بالاضافة الى ان منطقة الكوفة الخصبة كانت مزدحمة بالسكان ، والتباين الطبقي فيها قوي لوجود عدد قليل من الملاكين يمتلكون الاراضي الواسعة بينما حرم جمهور الفلاحين الا من الجزء الزهيد مما ينتجون . لذا كان التذمر من الوضع شديداً . ومن ناحية ثقافية كانت البيئة في منطقة الكوفة غريبة . فالاساطير والجهل وحتى بقايا من العقائد الوثنية كانت

متفشية بين العوام . هذا مع انها لم تكن تخل من مبادىء الغلو . ولا تنس انتشار بعض الآراء الفلسفية اليونانية بين المثقفين ، حتى او رثتهم حيرة وشكوكا في كثير من معتقداتهم . فجاءت الدعوة عن طريق اصلاح الدين حيناً والاهتمام بالفلسفة حيناً آخر ، واكدت على الصلة الوثيقة بين الرفاه المادي وبين الدين الصحيح ، واعتبرت النظام القائم مسؤولا عن الفساد والفقر . ووجدت الحركة في العراق في شخص حمدان قرمط (من اهل السواد) زعيما عمليا عبقريا ، فنظم دعوتها بضوء الواقع وجعل تدابيره حلولا موقتة لنقاط التذمر ، كما وجدت في عبدان مفكراً قديراً وجه مبادئها وألف لها الكتب و وضع لها منهاجا فكريا يناسب بيئتها الجديدة.

ومع ان بذور الحركة الاسماعيلية ترجع الى الغلو ، فتشترك بذلك مع الخرمية في كثير من المبادىء وخاصة في الاتجاه الاقتصادي ، الا انها كانت اكثر مرونة وأقدر على الاستفادة من الاوضاع والخبرات الجديدة . وهذا يعود الى ـ حد كبير ـ لاختلاف مهد كل من الحركتين . فالخرمية حركة ايرانية القت تبعة الوضع السيء على العباسيين العرب وعلى دينهم الذي جلب اليهم السلطة ، ومع انها كانت لها برامج اقتصادية يسارية (تقف عند اعادة توزيع الاراضي على الفلاحين ومحو التباين الطبقي) الا انها جعلت هدفها العملي البارز التخلص من حكم العباسيين ومن دينهم وارجاع مجد ايران والدين المجوسي بشكل ما . اما الاسماعيلية فمهدها العراق حيث توجد جماعات كبيرة من الانباط والفرس والسريان

الى جانب العرب ، وفيه جماهير من العرب تشكو نفس التبـاين الطبقي والظلم الذي يشكو منه هؤلاء الجماهير من الموالي في حين كان فيه قسم من ارستقراطية الفرس والترك تتمتع بالنفوذ والثروة. ولهذا اكتسبت الحركة صفة اقتصادية أممية . ثم ان انتشار الفلسفة اليونانية ، واطلاع زعمـاء الاسماعيلية على كافة الديانات والثقـافات ابان لهم بان الضغط الاجتماعي حصل في المجتمعات غير الاسلامية كما حصل في المجتمع الاسلامي ، ولذلك وجهوا هجماتهم ضد جميع الاديان ونسبوا قسماً كبيراً من مسؤولية الشقاء الى الدين ذاته ، فشجعوا الفلسفة وحاربوا الاديان لا ليستبدلوها بدين رسمي آخر، بل ليتخلصوا منها . ولما كان المجتمع في العراق اسلامياً كان الهجوم بالدرجة الاولى على الاسـلام . واذا تذكرنا ان الملم العوام بالدين لم يتجاوز المظاهر وانهم لم يكونوا راضين عن حالتهم المعاشـية ، ادركنا سبب تأكيد القرامطة على الناحية المادية واستخدامهم للدين (بطريق التأويل وعلم الباطن) كوسيلة لضرب الدين [1] .

وهناك شيء آخر مهم ، وهو ان ثقافة دعاة الاسماعيلية الواسعة ، ونظرتهم العملية واهتمامهم باصلاح الواقع ثم اختلاف الوضع في المجتمعات الاسلامية ـ دفعهم الى تعديل مبادئهم وتنظيماتهم لتناسب الوسط الذي

---

(١) هامش ـ الحديث هنا عن الاسماعيلية في دورها الاول ، الثوري ، وقبل ان تنشأ الدولة الفاطمية التي عدلت الكثير من المبادىء الاسماعيلية وصارت فيهـا نزعة قوية للمحافظة .

يدعون فيه رغم كون الاسس والاهداف واحدة . وخير مثل لتوضيح ذلك ، نخص تنظيمات القرامطة في كل من العراق والبحرين لنرى كيف أدى اختلاف الاوضاع في هذين البلدين الى اختلاف التنظيمات .

فمن الناحية الاثنولوجية ، كان سكان السواد مزيجاً من اجناس متعددة كما بينا ، بينما كانّ عامة سكان البحرين عرباً بينهم اقلية من الفرس واليهود . ومن الناحية الاجتماعية الاقتصادية كان عامة سكان السواد يشتغلون بالزراعة مع تباين كبير في مستوى المعيشة ، بينما كان اكثر سكان البحرين بدوا رعاة ، وبعضهم زراع في منطقة الاحساء الخصبة خاصة ، وبينهم اقلية مهمة من التجار واخرى من الصناع واهل الحرف . ومن ناحية معنوية لم تكن في السواد عصبية عنصرية ، بينما كانت في البحرين نزعة عربية . ومن الناحية الثقافية نجد بساطة في التفكير وعدم الميل الى التعقيد في الدين في البحرين يقابل ذلك الفوضى الفكرية والتعقيد مع الجهل في السواد . واخيراً كانت فترة قرامطة العراق فترة عصيان موقت ضد خلفاء اقوياء ولم تتجاوز مدتهم نصف القرن ، بينما كونوا في البحرين مملكة مستقلة عاشت عدة قرون .

فاذا فهمنا هذا التباين فسنفهم الفروق في تنظيمات القرامطة في السواد والبحرين . ففي السواد الغيت الملكية الفردية ، وطبقت اشتراكية تامة يعطى فيها لكل فرد حسب حاجته ، بينما يكون مركزه الاجتماعي متناسباً مع خدماته . أما في البحرين فكانت التدابير الاقتصادية

تتصف بنزعة يسارية قوية ، ولكن ليست اشتراكية بالمعنى الصحيح ، وذلك لعدم وجود التطور والتعقيد الاقتصادي الموجود في العراق من جهة ، ولان فعاليات سكان البحرين الاقتصادية كانت في حقول متباينة من زراعة وتجارة ورعي وصناعة . فابقيت فيها الملكية الفردية ولكن الحكومة قامت بدور مصرف زراعي صناعي لتسليف الزراع والصناع الاموال عند الحاجة وتشجيعهم في اعمالهم . ومنع الربا لحماية الناس من من جشع المرابين . واحتكرت الحكومة التجارة الخارجية وحاولت فتح الاسواق لها في الخارج لتنظيم أمر الصادر والوارد لفائدة الشعب والحكومة. وضربت نقوداً من الرصاص ـ لا تقبل خارج البحرين ـ حتى لا تمنع (حسب النظرية المتبعة آنئذ) تسرب الثروة الى الخارج . وانشئت طواحين مجانية لفائدة الشعب وللتخفيف من اعباء النساء . وخفضت الضرائب ، والغى الخراج في منطقة الاحساء للترفيه عن الزراع . وانشئت مزارع حكومية لتوفير الدخل للخزينة لتقوم الحكومة بخدماتها الاجتماعية . وصفوة القول ان الحكومة اتبعت سياسة من شأنها رفع مستوى المعيشة وتوفير الرخاء لكافة اقسام الشعب .

وبينما كان الحكم مطلقاً بين قرامطة السواد ، كان شوريا في البحرين . فمع ان الحكم كان في البحرين وراثيا في عائلة ابي سعيد ، الا انها وراثة مقيدة برأي بمجلس الشورى الأعلى المسمى بمجلس العقدانية. كما كان على الرئيس (ويسمى السيد) استشارة ذلك المجلس الذي يضم

ابرز الشخصيات في القضايا السياسية والعسكرية والادارية ، وبذلك أصبح الحكم شوريا يناسب النزعة البدوية للحرية .

وبينما كانت نزعة قرامطة السواد امية ، كانت النزعة في البحرين عربية ، فقال شاعرهم :

تولى نبي بني هاشم   وهذا نبي بني يعرب

وختاما نرجح ان التطرف في المبادىء في السواد كان اقوى منه في البحرين لرسوخ وكثرة التقاليد والاساطير الدينية في الاول بالنسبة للثاني.

يتضح اذن مما مر ، ان المجتمع العباسي كان يصطخب بالتيارات الخافية ، تلك التيارات التي ما خف الضغط الخارجي عنها ، حتى انفجرت براكينها وكادت تمزق الخلافة العباسية وكل ما تمثل .

ولكن الخلافة اثبتت انها كانت لا تزال تنطوي على حيوية قوية كامنة . فالاتراك الذين لم يكونوا مدفوعين بهدف معين (غير الانانية) انهكهم التنافس فيما بينهم والنضال مع الخليفة . والامراء المنفصلون كانوا يرون في رضى بغداد خير وسيلة لجعل حكمهم حكما مشروعا بنظر الجمهور ، فكانوا يهتمون بمحاولة استحصال عهود تولية من بغداد ويسعون للتفاهم معها وارضائها . والبيت العباسي اخرج في الموفق (اخ المعتمد والمسيطر عليه) اميراً عبقريا حازما لقب بحق « المنصور الثاني » .

فتلت فترة (بين ٢٥٦ — ٢٩٥ هـ) من البعث السياسي والانتعاش العام ، وذلك بنتيجة قوة الموفق والمعتضد وبعد نظرهما

وقابليتها على إشغال الاتراك في المعـارك وضبطهم . فاخمدت الثورات الداخلية التي قام بهـا الزنج والقرامطة ، وأعيد سلطان الخلافة على العراق والجزيرة وغرب ايران والشام ومصر . وانتعشت الماكنة الادارية وعادت هيبة الوزراء وسيطرتهم على السياسة العامة . وبذلت جهود لاصلاح نظام الري ولتشجيع الزراعة ولاصلاح نظام الجباية . وقضي على فوضى الاعراب وأعيدت السكينة الى البلاد ، فذاقت بعض الرفاه ، ووضع حد لازمات الخزينة . ولعل رجوع المعتمد الى بغداد كان دليلا على تقلص نفوذ الترك وعنوانا للبعث الجديد . وظن الناس ان عصر الخلفاء الاول قد عاد .

ولـكن نصف قرن كان كافياً ليظهر ان الانتعاش لم يكن راسخ الاركان ، وانه كان نتيجة وقتية لجهود الموفق والمعتضد ، وان عناصر التفسخ كانت كامنة تنتظر الفرصة . فالترك خفت صوتهم ولـكنهم بقوا عماد الجيش وعلى استعداد للتدخل في السياسـة متى سنحت الفرصة . والمـكتفي الذي خلف المعتضد (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) اظهر في مرضه الاخير ضعفاً وانانية مضرين اذ انه لم يرد ان تنتقل الخلافة الى ابنـاء عمه ، مع ان اخاه جعفر (المقتدر بعدئذ) كان طفلا ، فلم يبت في امر العهد وبذلك تركه للوزراء والـكتاب ، وكان هؤلاء في وضع مؤلم ، فما ان رجع لهم نفوذهم في هذه الفترة حتى اخذوا يتنافسون فيما بينهم ، فلكل وزير له عصبة تتمتع بالوظائف والثروة عند مجيئه الى الحـكم وتنـكب وتصادر اموالهـا عند عزله ، ولاشك ان المصادرة (وقد اصبحت عادة) كانت عاملا هاما في اذكاء نار الحقد والتنافس بين الوزراء . وقد انقسم

الكتاب فعلا في ايام المكتفي الى حزبين متناحرين: احدهما جلب المقتدر الى الخلافة، وثار الآخر يريد ابن المعتز، وعندئذ تدخل الجيش لتأييد عرش المقتدر، فكان ذلك اعلانا بشؤم خطير.

هذه اتجاهات كانت تنذر بالشر في مفتتح عصر المقتدر، ثم وجدت من الظروف المحيطة ما قوى حدتها حتى جرت بسلطان العباسيين الى الهاوية. فلننظر اذن كيف لعبت دورها.

كان الخليفة صبياً (عمره ثلاثة عشرة سنة) مترفا لا خبرة له بالسياسة او الادارة، مبذراً متلافا، بدد في مدة قصيرة ما في الخزينة، وزعزع ركن الدولة المالي وهو أهم اركانها. وكان الحرم يتمتع بنفوذ كبير وكان على رأسه السيدة شغب ام الخليفة، ومعها القهرمانة (المديرة العامة) وعدد من الجواري الفاتنات. وهن نسوة ثقافتهن محدودة او معدومة، يملن الى البذخ والترف وتسيرهن عواطفهن. فانفقن دون حساب، وليتهن اكتفين بذلك، ولم يتدخلن في سياسة الدولة وفي عزل الوزراء وتعيينهم، وحتى في القضاء والعدل.

والوزراء والكتاب، كانت بيدهم الادارة الفعلية (في النصف الاول لحكم المقتدر على الاقل)، ولكنهم كانوا - عدا الوزير علي بن عيسى - جماعة لا تهمهم الا مصالحهم، فلم يفكروا باصلاح او بتنظيم، بل كان همهم جمع المال بكل وسيلة واعطاء الوظائف لاصدقائهم ومحسوبيهم، والدس على بعضهم، وزاد الوضع سوءاً شعورهم بعدم الاستقرار في وظائفهم اذ كان كل منهم عرضة للعزل في اي لحظة.

لدس بعضهم على بعض وترحيب الخليفة بالاموال التي يقدمها كل وزير جديد والاموال التي يستحصلها هذا من سلفه للخزينة ـ فأضعف ذلك مركز الوزراء ووقف حائلا دون الاستقرار الاداري . وهم كثيراً ما استنجدوا في خصوماتهم بالحرم وأخطر من ذلك انهم جروا الجيش للتدخل في شؤونهم وادخلوه الى حومة السياسة وبذلك نحروا قوتهم بأيديهم ، ولم يتورع بعض الوزراء — لاسباب شخصية — عن التحالف مع الجيش ضد الخليفة .

وادت الخصومة بين الوزراء والكتاب ، وطمعهم في المال الى تدمير الهيئة الادارية والى ارهاق الشعب بالضرائب والى اهمال نظام الري كما انها ادت الى ازمة مالية وافلاس مزمن في الخزينة فكان لذلك ابلغ الأثر في تصديع سلطان الخلافة .

وعاد الجيش الى التدخل بالسياسة وعلى رأسه مؤنس ، فأخذ مؤنس منذ قضائه على فتنة ابن المعتز يعتد بفضله ويحاول التدخل في كل شيء . ولكن وجود الوزراء القديرين في اول عصر المقتدر — كابن الفرات — أوقفه عند حده ، وقتاً . إلا ان تخابط الوزراء واشتداد الأزمة المالية ساعده على تأكيد نفوذه ، ومن ورائه الجيش الذي صار يستغل كل فرصة لطلب زيادات في الرواتب ، او المطالبة برواتب متأخرة . وزاد الحال سوءاً بتكدر العلاقة بين الخليفة ومؤنس . ولما كانت القوة للجيش ، صار الامر بيده في سني المقتدر الاخيرة حتى انه خلعه سنة ٣١٧هـ ثم ارجعه .

وقد حاول الخليفة تأكيد سلطته باذكاء المنافسة والخصام بين فرق الجيش ولكن الاوان قد فات . فضعف الوزراء وفراغ الخزينة ، وشعور الجيش بالمصلحة المشتركة تجاه الخليفة احبطت مساعيه وأدت الى مقتله سنة ٣٢٠ هـ.

وبمقتل المقتدر نحرت الخلافة العباسية كقوة سياسية . فازداد الجيش تعنتاً وطغياناً ، حتى لقد ذهب القاهر ضحية حين حاول ايقافه عند حده . وكان الخلفاء الذين تلوا المقتدر من مرشحي الجيش ، يوليهم و يعزلهم حسب أهوائه . واستمرت الازمة المالية على حدتها . ونهب الجباة البلاد.

وأدت الفوضى في المركز الى انسلاخ كافة الولايات بيد وال استقل او امير جديد ظهر، ولم يبق بيد الخليفة سنة ٣٢٤ هـ الا المنطقة التي بين بغداد وواسط ، فاصبح سير الادارة مستحيلا لفراغ الخزينة وقلة الوارد وضعف الخليفة الذي لم يجد المال لدفع الرواتب . فنتج عن ذلك انتصار جديد مطلق للجيش . اذ اضطر الراضي ان يقبل بتعيين ابن رائق قائد الاتراك في منطقة واسط « امير الامراء » في بغداد لقاء دفع ابن رائق للنفقات اللازمة للبلاد وللادارة . وبموجب هذا التعيين انتقلت السلطة الدنيوية في الادارة والمال والجيش الى امير الامراء . ولم يبق للخليفة إلا الاسم . وشارك ابن رائق خليفته حتى في امتيازات الخلافة او شاراتها وهي ذكر الاسم في الخطبة ، وطبعه على السكة .

فتسلط الجيش على كل شيء وانهارت المؤسسات الادارية ، وبطلت الدواوين ولم يبق للوزير الا الاسم . وبذلك زال الاساس البيروقراطي

الذي قامت عليه الدولة العباسية .

وكانت السنوات التي سبقت الفتح البويهي (سنة ٣٢٤ — ٣٣٤) فترة فوضى ونزاع بين الطامحين الى امارة الامراء ، لاقت فيها البلاد عامة وبغداد خاصـة ، صنوف المذلة والتدمير وذهبت في نهايتها طعمة سهلة للبويهيين الفاتحين .

هذه هي التيارات التي سيرت الدولة العباسية حتى الفتح البويهي . ولعلنا أوضحنا وحدة التطور واثر الاوضاع الاقتصادية والانظمة الادارية على سير التأريخ العباسي . وسنرجيء تطور التأريخ العباسي في الفترات التالية الى فرصة اخرى .

ولعلنا وضعنا مثلا لمعنى النظرة الشاملة وتطبيقها على فترة من تأريخ المسلمين ، وهي ولا شك محاولة اولية علها تفتح آفاقاً جديدة .

٤ تموز ١٩٤٥ — عبد العزيز الدوري

الواثق

١٩ ربيع الاول ٢٤٧ — ٢٤ ذي الحجة ٢٣٢ / ١١ آب ٨٤٧

١ — تكاد المصادر القديمة ان تجمع على ان الواثق كان ابيض مشربا حمرة ، حسن الوجه ، عريض الصدر ، كث اللحية ، ربعة ، حسن الجسم ، في عينه اليمنى نكتة ببياض [١] . وكان على ما يظهر نهما كثير الاكل والشرب [٢] . ولكنه فطن لبيب فصيح ينظم الشعر [٣] ، ويحب الموسيقى حتى انه صنع مائة صوت [٤] .

اما نظرة المؤرخين المحدثين الى الواثق فمختلفة كل الاختلاف . فالبعض يتطرف في ذمه له تطرفا كبيراً لتعصب الواثق الديني وطمعه ، متناسين مزاياه الاخرى . فميور يقول : انه كان ضعيفاً وغير رشيد في ادارته [٥] . ويقول زترشتين : انه خلو من مزايا الحكام وانه كان رجلا طماعا متعصباً منغمساً في الملاذ [٦] .

بينما نجد البعض الآخر يغالي في مدحه مغالاة شديدة . فيقول امير علي : كان الواثق ـ رغم افتراء بعض الكتاب المتعصبين ـ حاكما

---

(١) الاربلي ص١٦٣ المسعودي التنبيه ص٣١٢ الطبري جـ ١١ ص٢٤ ابن الاثير جـ ٧ ص ٢١ . (٢) المسعودي جـ ٤ ص ١٩ . (٣) الفخري ص ٣١٥ . (٤) الاغاني جـ ٩ ص ٢٧٧ . (٥) ميور ص ٥١٩ (٦) دائرة المعارف الاسلامية مجلد ٤ ص ١١٩٤ .

ماهراً ، كريماً صبوراً ، واسع المعروف لم تشب اخلاقه ابسة شائبة برغم حبه المجون [١] .

وسنرى انه لم يكن هذا ولا ذاك . وان شخصيته في حياته الخاصة هي غيرها في حياته السياسية .

٢ — كانت سياسته استمراراً لسياسة عمه وابيه . فكان يحب الاعتزال ويبغض « التقليد واهله » ويشجع نشر العلوم بين الناس [٢] . اقتفى اثر عمه في الاعتزال . وحاول نشر مبادئه وامتحن الناس في خلق القرآن فكتب الى القضاة ان يفعلوا ذلك في سائر البلدان وان لا يجيزوا الا شهادة من قال بالتوحيد [٣] . وتشدد في ذلك ، حتى انه امر سنة ٢٣١ هـ بامتحان اهل الثغور فلما رفض اربعة ان يقولوا بخلق القرآن ضرب اعناقهم [٤] . ولما جرى الفداء سنة ٢٣١ هـ افتدى من الاسرى المسلمين من قال بخلق القرآن فقط [٥] .

وهكذا اصبح الاعتزال رمز المواطنة الكاملة واضطهد غير المعتزلة ، فادى ذلك الى السخط العام عليه . يقول المسعودي : «اشغل نفسه بمحنة الناس في الدين فافسد قلوبهم واوجدهم السبيل الى الطعن عليه» [٦] .

وسرعان ما ادى تشدد الواثق الى قيام حركة ضده في بغداد سنة ٢٣١ هـ يحمل لواءها « اصحاب الحديث ومن ينكر القول بخلق

---

(١) مختصر تأريخ العرب ص ٢٤٥ — ٢٤٦ . (٢) المسعودي — مروج الذهب جـ ٤ ص ٣٠ (٣) اليعقوبي جـ ٣ ص ١٠٧ . (٤) الطبري جـ ١١ ص ١٩ . (٥) الطبري ج ١١ ص ١٩ — ٢٠ ابن الاثير ج ٧ ص ١٨ وانظر اليعقوبي جـ ٣ ص ٢٠٧ . (٦) المسعودي — التنبيه والاشراف ص ٣١٣ .

القرآن » . ويقودها احمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي [١] . وانتشرت الدعوة سراً ولكن المؤامرة اكتشف قبل موعدها . فالقى القبض على احمد وعلى بعض انصاره وجيء بهم الى سامراء . فعقد الواثق مجلساً عاماً لمحاكمته حضره قاضي قضاته احمد بن ابي دواد وبعض قضاته . وحكم على احمد بن نصر بالكفر فقتله الخليفة بيده وتتبع اصحابه وسجنهم [٢] .

وهذه الحركة تدل دلالة واضحة على قوة اعداء المعتزلة رغم استمرار ثلاثة خلفاء على نشرها ، فلا تستغرب سهولة ضربها سياسياً في عصر المتوكل .

وسار الواثق على خطة ابيه في تقريب الاتراك وتقديمهم في الجيش . فاعتمد عليهم الاعتماد كله وأرسلهم الى قلب الجزيرة لضرب الثوار العرب كما اعطى الولايات الواسعة لقوادهم ورؤسائهم . فقد ولي اشناس « من بابه الى آخر عمل المغرب [٣] » وولي ايتاخ خراسان والسند وكور دجلة [٤] . ولكن مساوىء تقريبهم لم تظهر في خلافته .

واقتدى بالمأمون في سياسة التسامح مع العلويين . واحسن اليهم وبالغ في اكرامهم ومنحهم الاموال [٥] .

---

(١) الطبري ـ ١١ ص١٨ . (٢) ابن الاثير ـ ٧ ص١٤ـ١٥ الطبري ـ ١١ ص١٨ (٣) اليعقوبي ـ ٣ ص٢٠٤ . (٤) نفس المصدر ج٣ ص٢٠٥ . (٥) الاربلي ١٦٣ الفخري ٢١٥ ابن الاثير ـ ٧ ص ٢١ .

٣ — حدثت بعض الاضطرابات في خلافة الواثق ، ولكنها لم تكن خطرة ولعل اهمها اضطراب بعض القبائل في الجزيرة واقلاقها الامن . ولا شك ان هذه بادرة ان دلت على شيء فانها تدل على ضعف الحكومة المركزية أو اهمالها . كما انها كانت بدء ذلك الدور الهدام الذي لعبه البدو في شئون المملكة العباسية منذ هذا الوقت حتى سقوطها . ففي سنة ٢٣٠ ﻫ كان بنو سليم يعيثون حول المدينة ويأخذون ما ارادوا من الاسواق وبأى سعر أحبوا . ثم اعتدوا على بني كنانه وباهله وقتلوا بعضهم . ولما أرسل عامل المدينة حملة ضدهم هزموها وقتلوا قائدها . فقويت شوكتهم وزاد سوء تصرفهم وقطعوا طريق الحج بين مكة والمدينة ثم بايعوا بالخلافة رجلا منهم . فأرسل الواثق اليهم سنة ٢٣٠ ﻫ بغا الكبير في الشاكرية والاتراك والمغاربة فهزمهم ثم دعاهم الى الامان فاجابوه واحتبس عنده منهم من وصف بالشر والفساد وهم زهاء الف رجل وترك الباقين . ثم توجه الى بني هلال وعرض عليهم مثل الذي عرض على بني سليم فاجابوه وأخذ منهم نحواً من ٣٠٠ رجل من المفسدين وسجنهم في المدينة .

وفي السنة التالية (سنة ٢٣١ ﻫ) تغلبت فزاره ومره على فدك فأرسل اليهم حملة فهربوا الى الشام . ثم جاءه جماعة من بطون غطفان وفزاره واشجع وثعلبه فاستحلفهم بالايمان المؤكدة ان لا يتخلفوا عنه متى دعاهم فحلفوا . ثم سار الى بني كلاب فاستأمنوا فحبس في المدينة من اهل

الفساد نحواً من (١٠٠٠ — ١٣٠٠) وترك الباقين [1] .

وفي سنة ٢٣١ ﻫ تذمر الشاعر عماره بن عقيل بن بلال بن جرير الخطفي الى الخليفة من بني نمير واخبره بعيثهم وفسادهم في الأرض واغارتهم على الناس وعلى اليمامة وما جاورها . فأمر الخليفة بغا ان يسير اليهم من المدينة فتحرك في صفر سنة ٢٣١ﻫ وانتصر عليهم بعد معارك كاد يقضي فيها عليه . ثم تتبعهم حتى اقبل عدة من ساداتهم يطلبون الامان لانفسهم ولبطونهم فأمنهم وآنسهم ثم قيد منهم نحواً من ٨٠٠ رجل وأخذهم معه الى سامراء . وكذلك استدعى من سجن في المدينة [2] .

واضطربت ارمينيا « وتحرك بها قوم من العرب والبطارقة والمتغلبين وتغلب ملوك الجبال والباب والابواب على ما يليهم وضعف أمر السلطان » ولكن الواثق ارسل اليهم حملة فاخضعهم من جديد [3] .

وقام الخوارج بثورة صغيرة برآسة محمد بن عمرو الشيباني بديار ربيعة فقضى على الحركة وأسر زعيمها وجاء به الى سامراء حيث سجن [4]

٤ — اما في علاقته مع البيزنطيين فلم يحصل ما يسترعي الانتباه غير فداء كان سنة ٢٣١ﻫ . فقد قدم في آخر سنة ٢٣٠ ﻫ وفد بيزنطي يقترح

(١) ابن الاثير — ٧ ص ٨ ، ص ١٣ الطبري — ١١ ص ١٢ — ١٣ ، ص ١٥ اليعقوبي — ٣ ص ٢٠٥ . (٢) الطبري — ١١ ص ٢٢ — ٢٤ ابن الاثير — ٧ ص ١٩ . (٣) اليعقوبي — ٣ ص ٢٠٦ — ٢٠٧ . (٤) اليعقوبي — ٣ ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

الفداء، فعين يوم ١٠ محرم سنة ٢٣١ هـ موعداً لذلك [١]. وجرى الفداء على نهر (اللامس) على مسيرة يوم من طرسوس. وكان عدد الاسرى من المسلمين عند الطبري ٣٠٠٠ رجل و ٦٠٠ امرأة [٢]. وعند ابن العبري [٣] وابن الاثير [٤] الرجال ٤٤٦٠ والنساء والصبيان ٨٠٠ واهل ذمة المسلمين ١٠٠. وعلى كل حال فقد كان اسرى المسلمين اكثر من اسرى الروم ولذلك وجه الواثق الى بغداد والرقة لابتياع «الرقيق من مماليك الروم» ولكن العدة لم تتم «فاخرج... من قصره من النساء الروميات العجائز وغيرهن حتى تمت العدة» [٥].

٥ — كان عصر الواثق عصر هدوء نسبي ولكننا لاندري هل لازم ذلك رخاء نسبي. فقد كان الواثق متفقداً لرعيته [٦] يحسن الى الناس [٧] وقد «فرق في اهل الحرمين اموالا لاتحصى حتى انه لم يوجد في ايامه بالحرمين سائل» [٨]. ومن مظاهر عطفه ان الكرخ احترقت في ايامه فعجز الفقراء عن عمارة املاكهم وانتقلوا عنها فاعطاهم مليون درهم «معونة على اصلاح المنازل» [٩] كما انه اعطى المال لاهل فرغانه لسد ثبق وحفر نهر هناك. وشجع التجارة فامر سنة ٢٣٢ هـ بترك جباية اعشار سفن البحر [١٠] ويقول اليعقوبي «وفرق على قوم من التجار اموالا جمة... وأسقط ما كان

---

(١) الطبري ج ١١ ص ١٩. (٢) الطبري ج ١١ ص ١٩. (٣) ابن العبري مختصر الدول ص ٢٤٤ — ٢٤٥. (٤) ابن الاثير ج ٧ ص ١٧. (٥) الطبري ج ١١ ص ٩ — ٢٠ (٦) المسعودي ج ٤ ص ١٩ (٧) ابن الاثير ج ٧ ص ٢١ (٨) ابن الاثير ج ٧ ص ٢١. (٩) الاربلي ص ١٦٣، اليعقوبي ج ٣ ص ٢٠٨. (١٠) الطبري ج ١١ ص ١٤.

يؤخذ ممن يرد في بحر الصيني من العشر[١] »

ولكن الواثق يلام لانه اكثر من مصادرة موظفيه حتى صارت سنة سيئة لمن خلفه ومصدراً يعول عليه في اوقات الحاجة . ولاشك ان لذلك أسوأ الاثر في الادارة وفي الاستقرار المالي . ففي سنة ٢٢٩ هـ « حبس . . . الكتاب وألزمهم اموالا عظيمة وأخذ من احمد بن اسرائيل ثمانين الف دينار بعد ان ضربه ومن سليمان بن وهب كاتب ايتاخ ٤٠٠ الف دينار ومن الحسن بن وهب ١٤ الف دينار ومن ابراهيم بن رياح وكاتبه ١٠٠ الف دينار ومن احمد بن الخصيب وكتابه الف الف دينار ومن نجاح ٦٠ الف دينار ومن أبي الوزير ١٤٠ الف دينار[٢] »

ولا بد ان نشرك في المسؤولية المترتبة على حكم الواثق قاضيه بطل الاعتزال احمد ابن ابي دواد ووزيره محمد بن عبد الملك الزيات اذ « كان لايصدر الا عن رأيهما ولا يعاب عليهما فيما رأيا وقلدهما الامر وفوض اليهما ملكه[٣] » ولا شك ان استبقاء الواثق لابن الزيات في الوزارة رغم سخطه عليه وهو امير دليل على مقدرة ابن الزيات وعلى اتزان الواثق وقد قال له « والله ما ابقيتك إلا خوفاً من خلو الدولة من مثلك وسأكفر عن يميني فاني اجد عن المال عوضاً ولا اجد عن مثلك عوضاً[٤] » .

وأخيراً أرى اهم نتيجة للهدوء في عصر الواثق تعاظم نفوذ الترك لدرجة جعلت المتوكل يفكر بتقليله ، فجرى صراع صامت قوي أدى الى انتصار الاتراك .

(١) اليعقوبي - ٣ ص ٢٠٨ (٢) ابن الاثير - ٧ ص ٧ الطبري - ١١ ص ١
(٣) المسعودي - ٤ ص ١٩ (٤) الفخري ص ٣١٤

المتوكل

٢٤ ذو الحجة – ٢٣٢هـ/١١ آب ٨٤٧ – ٤ شوال ٢٤٧هـ

١١ كانون الاول ٨٦١

١ – توفي الواثق دون عهد . اذ رفض الاقتراح بتسمية خلف له قائلا « لا يراني الله اتقلدها حياً وميتاً [١] » وترك الامر لرجال الحاشية فاجتمع في دار الخليفة قاضي القضاة (احمد بن ابي دواد) والوزير ابن الزيات ، واحمد بن ابي خالد ابو الوزير وعمر بن فرج من رؤساء الكتاب ، ووصيف وايتاخ من قواد الاتراك وأرادوا البيعة لابن الواثق : ولكنهم عدلوا عنه لصغر سنه وقصره واحتج وصيف وقال : « اما تتقون الله ! تولون مثل هذا الخلافة وهو لايجوز معه الصلاة ؟ » فعدلوا عنه الى اخ الواثق . فألبسه قاضي القضاة الملابس وسلم عليه بالخلافة ؟ وكانت بيعته الخاصة في تلك الساعة ثم بايعه الناس البيعة العامة مساء[٢] .

وهكذا تمت بيعة المتوكل . وقد لعب الترك فيها دوراً مهما . ولكن اشتراك رجال الادارة قلل من خطر هذه التجربة[٣] . ويرى (بوون) ان الترك هم الذين اختاروا المتوكل [٤] فاختيارهم الخليفة يدل على ان نفوذهم قد استفحل جداً . فبات اصطدامهم بخليفة قوي كالمتوكل امراً منتظراً .

---

(١) اليعقوبي ٣ : ٢٠٨ . (٢) الطبري ١١ : ٢٧ (٣) اليعقوبي ٣ : ٢٠٨ .
(٤) bowen Ali b. Isa 8o3.

٢ — كان المتوكل كما يظهر من المصادر القديمة اسمر رقيق البشرة يضرب لونه الى الصفرة خفيف اللحية حسن الوجه كبير العينين خفيف العارضين نحيفاً مهيباً إلا انه ليس بالطويل [١].

ويوصف المتوكل بسهولة الأخلاق والاعتدال في صرف الاموال مع ميل للكرم. كما يوصف بالحزم والشدة والقسوة والالتجاء الى الغدر متى اقتضى الحال ذلك كما فعل بايتاخ. وكذلك يوصف بالانهماك في اللهو والشراب. فلم ير البعض مبالغة في القول بانه كانت لديه اربعة آلاف سرية [٢].

وقد أحب المتوكل العمارة. فانفق اموالا طائلة على القصور والابنية.

٣ — واجه المتوكل قوة المعتزلة واستبدادهم من جانب وزيادة نفوذ الاتراك زيادة خطرة من جانب آخر ولكنه لم يكن معتزليا وكان يخشى الاتراك بالرغم من مساعدتهم له في الوصول الى الحكم. فاتبع سياسة جديدة اقتضتها ظروفه وميوله، إذ قرر ضرب المعتزلة مستعيناً بمساندة الفقهاء من أهل السنة الذين التف الحزب العربي في المملكة حولهم. ويظهر ان حركة الاعتزال اقتصرت على بعض المثقفين بينما بقي السواد الاعظم محافظاً. وهذا يفسر نجاح المتوكل في ضرب قوة المعتزلة

---

(١) المسعودي — التنبيه ٣١٣ — ٣١٤. الطبري ١١، ٦٧ الاربلي ١٦٤ القرماني ١٥٩. (٢) الاربلي ١٦٤ المسعودي ٤ : ٣٨ القرماني ١٦١، ١٥٩ اليعقوبي ٣ : ٢٠٩.

السياسة دون ان يجابه بثورة أو عصيان . فنهى الناس عن الكلام في القرآن وأمرهم بالتسليم بالتقليد وأمر الشيوخ بالتحديث واظهار السنة . وأطلق من سجنه الواثق لتمسكه بقول أهل السنة وأخرج أحمد ابن حنبل من السجن ٢٤٢ هـ وأكرمه [١] .

ولكن سياسة الرجوع الى السنة صحبها اضطهاد المذاهب الاخرى . فتشدد في مطاردة العلويين وانصارهم ونكل بهم وصادر اموالهم [٢] . وقد تطرف في كرهه للعلويين حتى انه كان يبغض اسلافه الثلاثة لميلهم للعلويين [٣] . وأمر بهدم قبر الحسين وماحوله من المنازل والدور وحاول ان يخفي معالمه ، ومنع الناس من زيارته . وقرب جماعة كانوا مشهورين ببغضهم لآل علي فزادوا الطين بلة بان « كانوا يخوفونه من العلويين ويشيرون عليه بابعادهم و . . . الاساءة اليهم ، ثم حسنوا له الوقيعة في اسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم في الدين [٤] . » فذهب الى السخرية علنا من علي علياً .

فاظهرت هذه السياسة الهوجاء عدم امكان التفاهم بين العلويين والعباسيين ، وجلبت سخط قسم كبير من الناس حتى قال ابن الاثير : « فغطت هذه السيئة جميع حسناته [٥] » .

---

(١) المسعودي ٤ ، ٣٧ . اليعقوبي ٢ ، ٢٠٩ . ابن العبري ٢٤٨-٢٤٩ القرماني ص ١٥٩ . (٢) ابن الأثير ٧ ، ٣٦ . (٣) نفس المصدر ٧ ، ٣٧ (٤) ابن الاثير ٧ ، ٣٧ الطبري ١١ ، ٤٤ . (٥) ابن الاثير ٧ ، ٣٧ .

واضطهد المتوكل الذميين وكان وضعهم قبله حسناً. ولعله كان مسوقاً الى ذلك بارضاء العامة. ففرض عليهم نوعاً خاصاً من الزي «وقيد تصرفاتهم العامة، بان أمرهم سنة ٢٣٥ هـ « بلبس الطيالسة العسلية وشد الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب وعمل كرتين في مؤخرة السروج، وعمل رقعتين على لباس مماليكهم مخالفين لون الثوب كل واحد منهما قدر أربع أصابع ولون كل واحد منهما غير لون الاخرى. ومن خرج من نسائهم تلبس ازاراً عسلياً، ومنعهم من لبس المناطق... وان يجعل على ابواب دورهم صور شياطين من خشب». ومنعهم «ان يظهروا في شعانينهم صليبا، وان يستعملوه في الطريق. وأمر بتسوية قبورهم مع الارض». كما انه أمر بهدم كنائسهم الجديدة[1]. ومنع المسلمين من تدريس أولادهم[2]. وحظر استعمالهم في الوظائف[3]. حتى انه نحى سنة ٢٤٣ هـ المسيحي الذي كان يراقب مقياس النيل[4].

ويقول «تريتون» ان المتوكل كان أول خليفة من شرع منع بناء كنائس جديدة. ثم أكد تباين زى الذميين عن المسلمين بعد أربع سنوات إذ أمره بأخذ أهل الذمة بلبس دراعتين عسليتين على الاقبية والدراريع وبالاقتصار في مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين». كما انه شدد من جديد على «هدم البيع

(١) اليعقوبي ٢، ٢١٢ . (٢) الطبري ١١ ، ٢٩ . (٣) ابن الاثير ٧ ، ٣٤ — ٣٥ . الطبري ١١ ، ٣٦ . (٤) Tritton ، ٣٣ .

المحدثة في الاسلام »[1].

وفرض المتوكل ضريبة جديدة على أهل الذمة. فأمر « بأخذ العشر من منازلهم »[2]. ولما اشترك مسيحوا حمص في الثورة ضد العامل سنة ٢٤٢ هـ أمر باخراجهم من مدينتهم «وهدم كنائسهم وادخل بيعتهم في الجامع »[3]. وكان الغرض من هذه السياسه جلب رد الرأى العام، وخلق كتلة قوية تؤيد الخليفة. وهي في ذاتها تتعلق بمحاولته لتقليل نفوذ الترك وضربهم بعد ازدياد نفوذهم لدرجة خطرة.

وقد سار في مقاومته لنفوذ الترك بصورة بطيئة، فكانت ايامه سلسلة نزاع صامت بينه و بين حرسه انتهت بفشله ومقتله.

بدأ المتوكل بايتاخ « وكان اليه الجيش والمغاربة والاتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة[4] » بالاضافة الى الاشراف على بيوت الاموال و بذلك كانت سلطته خطراً على الخليفة. ولم يتردد ايتاخ في اظهار غروره. فأخذ الخليفة يدبر عليه. وفعلا ارسل اليه من حسن له الحج، ففعل ذلك ايتاخ فاسرع المتوكل بنقل الحجابة الى وصيف ثم دبر مؤامرة مع حاكم بغداد بأن يسجنه عند رجوعه فنجحت المؤامرة، ومات ايتاخ في السجن (٥) جمادي الآخرة سنة ٢٣٥هـ[5]. وكانت بغداد المحل المناسب لهذا المشروع لبغض اهلها للترك ولبعد ايتاخ عن انصاره

---

(١) ابن الاثير ٧ : ٤٧، الطبري ١١ : ٣٦. (٢) ابن الاثير ٧ : ٢٧.
(٣) ابن الاثير ٧ : ٥٠. (٤) الطبري ١١ : ٣٣، ابن الاثير ٧ : ٢٩.
(٥) الطبري ١١ : ٣٤.

حتى قال الطبري « ولو لم يؤخذ ببغداد ما قدروا على أخذه ، ولو دخل سامراء فاراد باصحابه قتل جميع من خالفه امكنه ذلك » (١) . اما اليعقوبي فيذكر ان ايتاخ اراد ان يوقع بالخليفة فلما لم يمكنه ذلك طلب الحج فسمح له الخليفة بذلك ثم دبر سجنه ومقتله في بغداد ، وانه صادر اموال عامل مصر لمكاتبته ايتاخ (٢) .

وبقي المتوكل يشعر بضعف مركزه ، وبانه في وسط جيش لا يدين له بولاء خاص ، ففكر بنقل مركز حكمه الى محل آخر يتخلص فيه من نفوذ الترك ويكون فيه بين عنصر يؤيده وهو العنصر العربي لانه لاحظ فشل سياسة التعاون مع الفرس والاتراك ، ولذلك فكر بدمشق التي كان النفوذ التركي والفارسي فيها معدوما ، كما انها تتعصب للسنة وتكره العلويين ، فهي بذلك تتفق وميوله . وفعلا انتقل اليها في صفر ٢٤٢ هـ « وعزم على المقام بها ونقل دواوين الملك اليها وأمر بالبناء بها » (٣) . ولكن الاتراك ادركوا خطر الوضع فاجبروه على الرجوع بعد ان قام بها شهرين واياماً (٤) ، إذ بدأوا بالضجيج ضده يطلبون ارزاقهم وارزاق عيالاتهم وجردوا السلاح . ثم لم يقنعوا باستلام اعطياتهم بل فكروا بقتله كما يقول المسعودي . فلم ينجحوا لتأييد بغا الكبير للخليفة وهكذا اضطروه الى الرجوع . ويؤيد هذا قول اليعقوبي بأن

---

(١) ابن الاثير ٧ : ٢٩ـ٣١ ، الطبري ١١ : ٣٣ـ٣٥ . (٢) اليعقوبي ٣ : ٢١٠ . (٣) الطبري ١١ : ٥٥ . (٤) الطبري ١١ : ٥٦

رجوع الخليفة كان لحذره من موقف الاتراك [١] .

ويعطي بعض المؤرخين تفسيراً آخر لرجوع الخليفة الى سامراء فيقولون : ان الهواء بدمشق بارد ندي والماء ثقيل والريح تهب مع العصر ، فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل وهي كثيرة البراغيث [٢] . لكن هذا التفسير اعتذاري ، فالمسعودي يبين ان المتوكل لم ينزل دمشق نفسها بل نزل « على ساعة من المدينة في اعلى الارض [٣] » ويؤكد البعض على برودة الهواء وان الثلج « حال ... بين السابلة والميرة [٤] » مع العلم ان المتوكل كان هناك بين صفر وربيع الثاني (بين مايس وتموز اي في وسط الصيف ([*]) .

وهكذا فشل المتوكل في هذه المحاولة تجاه مقاومة الاتراك وسرعة انتباهم للأمر .

ثم لم يستقر الخليفة في سامراء ذاتها بل قرر الانتقال الى شمالها ، ففي سنة ٢٤٥ هـ أو ٢٤٦هـ انتقل الى موضع يقال له الماحوزة على ثلاثة فراسخ من سامراء [٥] وأمر بالبناء هناك ، واقطع القواد واصحابه وأمر بحفر نهر مصدره من خمسة فراسخ شمال مدينته الجديدة التي سماها « الخاصة المتوكلية » [٦] . ولعله اراد بذلك تقليل ضغط الترك عليه

---

(١) اليعقوبي ٣ : ٢٤٥ـ٢٤٦ . المسعودي ج ٤ ص ٦٥ . (٢) الطبري ١١ : ٥٦ . (٣) المسعودي ٤ : ٦٥ (٤) ابن الاثير ٧ : ٦٦ (٥) اليعقوبي ٣ : ٢١٦ . (٦) الطبري ١١ : ٥٦ ـ ٥٧ .

(*) ميور ٥٢٨

والابتعاد عن خصومه ولعل أوضح دليل على ذلك نقض هـذه المدينة حال مقتله .

واستمر يدبر ضد الترك قال المسعودي « وجفا الموالي من الاتراك واطرحهم وحط مراتبهم وعمل على الاستبداد بهم والاستظهار عليهم[١] » . وقد خطا خطوة عملية في ذلك بان ادخل فرقة عربية في الجيش « اذ ضم الى وزيره عبدالله بن يحي بن خاقان نحواً من اثنى عشر الفاً من العرب والصعاليك وغيرهم برسم المعتز وكان في حجره » . وضاق ذرعاً بتصرف الاتراك باموال الدولة « وجعل يجيل الآراء في استئصالهم[٢] » . وحاول تشتيت الزعماء فقبض على ضياع وصيف واقطعها للفتح بن خاقان[٣] . كما انه عزم على الفتك به وببغا[٤] . غير ان الترك استغلوا الخلاف بينه وبين ابنه المستنصر فعاجلوه وقتلوه كما سنرى .

٤ —

ا) وكان وزراء المتوكل طوع أمره . إذ ابقى محمد بن الملك الزيات في الوزارة ولكنه كان يحقد عليه لسوء معاملته له في حياة أخيه فنكبه بعد اربعين يوماً[٥] وصادر امواله وعذبه حتى مات[٦] . وكان هـذا « رجلا شديد القسوة قليل الرحمة جباها للناس ، كثير الاستخفاف بهم لا يعرف له احسان الى أحد ولا معروف عنده ، وكان يقول الحياء خنث

---

(١) التنبيه ٣١٣ . (٢) نفس المصدر . (٣) الطبري ١١ : ٦٠ .
(٤) الطبري ١١ : ٦٤ . المسعودي ٤ : ٩٧ . (٥) اليعقوبي ٣ : ٢٠٩ .
(٦) الطبري ١١ : ٢٧ ـ ٢٩ .

والرحمة ضعف والسخاء حمق ، فلما نكب لم ير الا شامت به وفرح بنكبته [1] . »

ثم استكتب بعده احمد بن خالد المعروف بأبي الوزير دون تسميته بالوزارة ثم نكبه . ثم استوزر الجرجرائي « وكان شيخاً ظريفاً حسن الأدب عالماً بالغناء مشتهراً به فخف على قلب المتوكل » . ثم نكبه لكثرة السعايات عليه وابدى رغبة لاستيزار حدث وقال ضجرت من المشايخ فاستوزر عبدالله بن يحي بن خاقان ، وكان « حسن الخط له معرفة في الحساب والاستيفاء الا انه كان مخلطاً ... وكان كريماً حسن الاخلاق . وكان كرمه ايضاً يستر كثيراً من عيوبه ، وكان فيه تعفف [2] » وبقى في الوزارة حتى مقتل المتوكل .

ولكن الوزراء المعزولين كانوا عرضة للمصادرة كما حصل لابن الزيات ولابن الوزير . ويظهر ان نفوذ الاتراك كان يحدد من سلطة الوزير [3] .

ب) يذكر اليعقوبي ان المتوكل « امر سنة ٢٣٤ ﻫ ان يسلم الناس على ابنه محمد بالامرة ويدعى له على المنابر وكتب بذلك الى الآفاق [4] » . وفي سنة ٢٣٥ ﻫ / ٨٥٠ م نظم ولاية العهد فعقد لاولاده الثلاثة : محمد وسماه المنتصر ، وابي عبيد الله (اسمه محمد او الزبير او طلحة) ولقبه

---

(١) اليعقوبي ٣ : ٢٠٩ (٢) الفخري ٢١٥ — ٢١٧ (٣) الفخري ٢٠٦ — ٢٠٧ (٤) اليعقوبي ٣ : ٢٠٧

المعتز، وابراهيم ولقبه المؤيد (في ٢ - ٣ ذي الحجة) وعقد لكل واحد منهم لواءين احدهما اسود وهو لواء العهد والآخر ابيض وهو لواء العمل (الطبري). وقسم الامبراطورية بين الثلاثة: فكانت حصة الاسد للمنتصر، بينما كانت حصة المؤيد الحصة الصغرى. فضم الى المنتصر افريقيا والمغرب كله من عريش مصر الى حيث بلغ سلطانه حتى المغرب، وجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزرية والجزيرة والسواد والحرمين والجزيرة العربية والسند والاهواز ومستغلات سامراء ومنطقة الجبال، وصدقات العرب بالبصرة (يجعل اليعقوبي الجبل في حصة المعتز ٣: ٢١١). وولى المعتز على كور خراسان وكور فارس. وولى المؤيد على اربعة من اجناد الشام فقط، وهي جند دمشق وجند حمص وجند الاردن وجند فلسطين (اليعقوبي يضيف ارمينيا واذربيجان بينما الطبري يجعلها في حصة المعتز [١]).

وكان المنتصر وحده قد وصل سنا يساعده على التدخل الفعلي في امور الدولة (١٣ سنه لان سنه عند مجيئه للحكم ٢٥ سنة) بينما كان المؤيد حدثا، والمعتز طفلا، ولذلك عين المتوكل لكل منهم كاتباً يشرف على ادارة ولاياته [٢].

وبعد خمس سنوات أضاف المتوكل الى ابنه المعتز خزن بيوت الاموال في جميع الآفاق، ودور الضرب، وأمر بضرب اسمه على

(١) Z. M. D. G. P. 89 . (٢) اليعقوبي ٣ : ٢١١ .

الدراهم (١) .

ولكن المتوكل لم ينجح في تنظيمه ، فان الخصومات بين أفراد العائلة المالكة ودسائس الحاشية أدت الى تحطيم خطته وساعدت على قتله.

ج) اراد المتوكل ان يقوم باصلاح زراعي مهم ، فحاول تأخير موعد الجباية لحل مشكلة هامة . فقد كان الخراج يجبي قبل نضوج الزرع ، فكان الزراع يضطرون الى الاقتراض ، ويخسرون كثيراً حتى هجر البعض أراضيهم . وكانت هذه المشكلة موجودة منذ العصر الأموي ، فأمر ان يؤخر الموعد من نيسان الى ١٧ حزيران . ولكن مقتله حال دون تنفيذ هذا الاصلاح (٢) .

وفي سنة ٢٤١ جعل كورة سميساط عشرية وكانت خراجية (٣) ولعل اهلها ادعوا بانها ملك المحاربين . ولعل الضرورة العسكرية ساعدتهم في طلبهم .

واكثر المتوكل من المصادرات حتى أصبحت شبه ضريبة على الموظفين الكبار ولعله اعتبرها وسيلة لاسترجاع بعض أموال الدولة التي اخذوها بطرق غير مشروعة . كما ان كثرة النفقات وقلة الوارد دفعت الخليفة الى هذه الوسيلة . ويمكن الحصول على فكرة عن بذخه من نفقاته على الدور التي بناها . فقد بنى «قصوراً انفق عليها اموالا عظاما ، منها الشاه والعروس والشبداز والبديع والغريب والبرج . وانفق على

(١) الطبري ١١ : ٣٨ . (٢) الطبري ١١ : ٦٠ ابن الاثير ٧ : ٥٧-٥٨ البيروني ، المقريزي . (٣) ابن الاثير ٧ : ٥٠ .

البرج الف الف وسبعمائة الف دينار[1] » وانفق في بناء الماحوزه « اكثر من الف الف دينار[2] » . وخصص للنفقة على النهر الذي اجراه اليها ٢٠٠ الف دينار .

والامثلة على مصادراته كثيرة[3] .

٥ — ساعدت الفوضى في المركز على اضعاف كيان الدولة وعلى حصول الاضطرابات فيها . فحصلت ثورة في اذربيجان بزعامة محمد بن البعيث ، وكانت ربيعة العنصر الأساسي فيها . فأرسل المتوكل المتوكل لاخمادها فرقتين ولكنهما لم تخمداها ، حتى ذهب بغا الشرابي ، فاستطاع بدهائه ان يخمدها (سنة ٢٣٥)[4] .

وفي سجستان ظهر الصفارون وبدأوا بتكوين امارتهم التي قضت على آل طاهر[5] . واضطربت ارمنيا « وتحرك بها جماعة من البطارقة وغيرهم وتغلبوا على نواحيهم[6] » . وكان زعيمهم بقراط بن أشوط « وكان يقال له بطريق البطارقة » يريد الامارة والانفصال ، فارسل المتوكل اليها يوسف بن محمد[7] . فكاتب البطارقة فاجابه بعضهم وخرج بقراط اليه على الأمان فحمله يوسف مع ابنه نعمة الى المتوكل[8] .

---

(١) اليعقوبي ٣ : ٢١٥ . (٢) الطبري ١١ : ٦٠ . (٣) انظر اليعقوبي ٣ : ٢٠٩ . الطبري ١١ : ٣٥ . ٤٥ — ٤٦ . ٣٠ — ٣١ ابن الاثير ٧ : ٢٦ — ٧ اليعقوبي ٣ : ٢١٦ . (٤) اليعقوبي ٣ : ٢١٠ — ٢١١ . (٥) ميور ٥٢٦ . ابن الاثير ٧ : ٣٧ . (٦) اليعقوبي ٣ : ٢٢٣ (٧) الطبري ١١ : ٤٥ . (٨) ابن الاثير ٧ : ٢٨ .

فاجتمع البطارقة مع ابن اخي بقراط ضد الوالي وهاجموه وقتلوه ومن معه في الشتاء . فأرسل المتوكل اليهم بغا الشرابي (الصغير) فسار الى معقلهم الرئيسي فحاربهم وقتل منهم زهاء ٣٠ الف وسبى منهم خلقاً كثيراً ، ثم فتح ديبل وحاصر تفليس وكان فيها اسحق بن اسماعيل الأموي مستملا فضربها بالمنجنيق ومات في الحريق حوالي ٥٠ الف (١) « وهرب منهم جماعة وكاتبوا الروم وصاحب الخزر وصاحب الصقالبة واجتمعوا في خلق عظيم » فكتب بغا الى المتوكل فأرسل له نجدة بقيادة محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ، فسكن المتحركون وامنوا (٢) .

ونكث البجه وهم « جنس من اجناس الحبش » العهد الذي لهم مع المسلمين وكانوا يؤدون بموجبه « اربعمائة مثقال تبر قبل ان يطبخ ويصفى » الى عامل مصر . وامتنعوا سنة ٢٣٧هـ عن اداء الخراج ، فكتب عامل البريد يخبر الخليفة بذلك وبان البجه خرجت « من بلادها الى معادن الذهب والجوهر وهي على التخوم فيما بين أرض مصر وبلاد البجه فقتلوا عدة من المسلمين ممن كان يعمل في المعادن ويستخرج الذهب والجوهر وسبوا عدة من ذراريهم ونسائهم ، وذكروا ان المعادن كانت لهم وانهم لا يأذنون للمسلمين في دخولها وان ذلك اوحش جميع من كان يعمل في المعادن من المسلمين ، فانصرفوا عنها خوفاً على انفسهم

(١) الطبري ١١:٤٥—٤٨ ابن العبري ٢٤٧ . (٢) اليعقوبي ٣:٤١٢
ميور ٥٢ . ابن العبري ٢٤٧ . الطبري ١ : ٤٥—٤٨ .

وذراريهم . فانقطع بذلك ما كان يوخذ للسلطان بحق الخمس من الذهب والفضة والجوهر». فاضطرب المتوكل لبعد المسافة ووعورة الأرض . ولما زادت تعدياتهم وجه حملة وطلب من عامل مصر امدادها ، وحملت اليها المؤن من البحر فهزم البجة واجاب رئيسهم (علي بابا) الى الشروط السابقة ودفع خراج الأربع سنوات الذي لم يدفع وحمل الى سامراء حيث استقبل بحفاوة . ويروي انه كان يحمل صنما معه يعبده فاستنكر أهل سامراء ذلك[1] .

وحدثث ثورة في حمص سنة ٢٤٠—٢٤١ ﻫ وطرد اهلها العامل . فأمره المتوكل بمحاربتهم وأمده بجند من دمشق والرملة فاخضع الثورة[2] .

— ٦ —

تقتصر العلاقات مع البيزنطيين على غزوات صغيرة من الجانبين وتبادل الاسرى بين حين وآخر . وقد كان البيزنطيون اكثر فعالية من المسلمين في هذه الفترة . ففي سنة ٢٣٨ ﻫ هجم اسطول بيزنطي من ثلثمائة مركب على مصر فرسي مائة منها في دمياط وكانت خالية من الجند آنئذ لأن أمير مصر دعاهم الى الفسطاط لحفل خاص «فنهبوا واحرقوا وسبوا واحرقوا جامعها وأخذوا ما بها من سلاح ومتاع... وسبوا ما بها من النساء المسلمات والذميات نحو ٦٠٠ امرأة[3]» . فساروا

---

(١) الطبري ١١ : ٥٢ — ٥٤ ابن الاثير ٧ : ٥٠ — ٥٢ (٢) ابن الاثير ٧ : ٤٩ — ٥٠ (٣) ابن الاثير ٧ : ٤٥ ٠ ابن العبري ٢٤٨

الى اشنوم (قلعة) تنيس وعليه بابان من حديد من عمل المتوكل فنهبوا ما فيه من سلاح واخذوا البابين وهربوا .

وفي سنة ٢٤١ اغار الروم على عين زربة فاخذوا من بها الزط مع نسائهم وذراريهم ودوابهم [١] وفي تلك السنة حصل الفداء على نهر اللامس (١٢ شوال) وكان ذلك بعد ان قتلت (تدوره) من اسرى المسلمين ١٢٫٠٠٠ لرفضهم التنصر . وكان عـدد اسرى المسلمين ٧٨٥ رجلا و١٢٥ امرأة .

وفي سنة ٢٤٢ هـ غزا الروم الثغور الجزرية من جهة شمشاط حتى قاربوا آمد وانتهبوا عدة قرى واسروا نحواً من ١٠ آلاف انسان .

وفي سنة ٢٤٤ هـ وجه المتوكل بغا من دمشق لغزو الروم في ربيع الآخر فغزا الصائفة وافتتح صمله [٢] .

وفي سنة ٢٤٥ هـ أغار الروم على سميساط فقتـلوا وأسروا وسبوا خلقاً كثيراً [٣] . وفي سنة ٢٤٦ هـ غزا عمرو بن عبـد الله الاقطع الصائفة فأخرج ١٧ ألف رأس ، وغزا قربياس وأخرج ٥ آلاف رأس وغزا الفضل بن قارن في عشرين مركباً فافتتح انطاكية وغزا علي بن يحي الارمني فاخرج ٥ آلاف رأس ومن الدواب والحمير نحواً من ١٠ آلاف رأس وكان الفداء على يد علي بن يحيى الأرمني ففودي بـ ٢٣٦٧ [٤] .

(١) ابن الاثير ٧ : ٥٢ (٢) الطبري ١١ ، ٥٥ ۰ (٣) ابن الاثير ٧ : ٥٧ (٤) ابن الاثير ٧ : ٥٩

٧ —

وفي ليلة الاربعاء (يوم الثلاثاء ٤ شوال ٢٤٧ هـ) قتل المتوكل في مدينة الجعفرية قتله جماعة من الاتراك على رأسهم وصيف و بغا المعروف بالشرابي بعد ان انفض مجلس شراب الخليفة و بقي وحده في حالة سكر عميق ومعه الفتح بن خاقان الذي قتل وهو يدافع عن سيده . وكان ذلك كما يظهر باتفاق بين الترك والمنتصر (١) .

ولا شك ان قتله هذا كان فاتحة بلاء على الخلافة واعلاناً لزوال حرمتها . فهي اول مرة يجرأ فيها الجند البرابرة على سفك دم الخلفاء والتعدي عليهم وشجعتهم على اقتراف انواع الجرائم ضدهم . وقد اجتمعت ظروف متعددة أدت اليها . ودراسة أسبابها تلقي ضوءاً على السياسة العامة وعلى دسائس البلاط .

ولعل العقدة الاولى ناتجة عن انحراف المتوكل عن المنتصر . واني لأرى سبباً هاماً في ذلك وهو اختلاف ميول المنتصر عن ميول أبيه المتوكل . فقد كان الاول يميل الى الشيعة وآل علي بينما كان المتوكل يكره العلويين أشد الكره .

ويذكر ابن الاثير غضب المنتصر لان والده كان يسخر في مجلس طربه من الامام ! ويعلق على ذلك قائلا « فكان هذا من الاسباب التي استحل بها المنتصر قتل المتوكل (٢) » ويذكر الاربلي ان

---

(١) الطبري : ١١ ، ٦٤ — ٦٦ نجد فيها تفاصيل الحادثة . (٢) ابن الاثير ٧ ، ٣٦ .

المنتصر أخذته الغيرة لسب والده للعلويين » وانه قتله على سبيل المذهب [١].

وصار المنتصر يشترك في دسائس البلاط ، فزاد ذلك في اضرام النار واثارة سخط المتوكل وشكوكه ، وأخذ يهين ابنه المنتصر ويحتقره [٢]. ومما وسع في ثغرة الخلاف بين المتوكل والمنتصر وزيره عبيد الله بن يحيى ونديمه الفتح بن خاقان اللذان شجعا المتوكل على تقريب المعتز وابعاد المنتصر [٣]. حتى انهما اشارا عليه في آخر جمعة من رمضان سنة ٢٤٨ هـ ان يفوض أمامه الصلاة للمعتز فاغتاظ المنتصر « مما زاد في اغرائه [٤] ». وبلغ من كره المتوكل لابنه ومن خوفه من دسائسه انه فكر بالفتك به وزاد في شتمه واهانته ثم أعلن خلعه في مجلس شربه في اواخر ايام حياته [٥].

وقد انجرف المنتصر في دسائس الترك. فقد رأوا في سياسة المتوكل حتفهم فقرروا التخلص منه فوجدوا في ولي العهد خير حليف لهم. فقد ارتاع وصيف عندما ما علم بان المتوكل أمر بانشاء الكتب لقبض ضياعه واقطاعها للفتح بن خاقان [٦]. ويروي الطبري عن بعض المعاصرين « وذكر بعضهم ان المتوكل عزم ... على ان ... يقتل وصيفا وبغا وغيرهما من قواد الاتراك ووجوههم فكثر عيثه بهم » وحدد المتوكل لذلك يوم

---

(١) الاربلي ١٦٥ . (٢) Z. M. D. G P . 90 . (٣) المسعودي ٣ : ٦٩ . (٤) الطبري ١١ : ٦٢ . (٥) الطبري ١١ : ٦٤ . (٦) الطبري ١١ : ٦٠ .

الخميس ٥ شوال (بعد مقتله بيومين) [١] . ويذكر المسعودى ان بغا الصغير « كان توحش من المتوكل ... وكان (اوتامش) غلام الواثق مع المنتصر فكان المتوكل يبغضه لذلك [٢] » .

وأخذ الاتراك يتكتلون ويداولون الرأى بينهم في الخلاص من المتوكل [٣] . وأخذ المنتصر يقوي مركزه بينهم « فكان يجتذب قلوب الاتراك ... وكان اوتامش يجتذب قلوب الاتراك الى المنتصر ... فكان المنتصر لا يبعد أحد من الاتراك الا اجتذبه فاستمال قلوب الاتراك من الفراغنة والاشروسنه [٤] .

ويظهر ان تصرف المتوكل يوم الثلاثاء وضع آخر حجر في القضية . وانتهى بقتله مساء ذلك اليوم . وبقتله فتح باب الفوضى للدولة العباسية .

---

(١) الطبري ١١ : ٦٤ . (٢) المسعودي ٤ : ٦٩ . (٣) القرماني ١٦١ .
(٤) المسعودي ٤ : ٧٠ .

فوضى الاتراك

او

فترة التسع سنوات

المنتصر : ٨٦١ ٨٦٢م — المعتز : ٨٦٦ — ٨٩٩م

المستعين :٨٦٢ — ٨٦٦م — المهتدي:٨٦٩ — ٨٧٠م

هيأ مقتل المتوكل جحيما من الفوضى والاضطراب الشديد للخلافة، اقترف الترك فيه انواع الفظائع وانحطت هيبة الخلافة الى الحضيض، وتشجع امراء الاطراف على الانفصال ولاسيما في ايران ومصر. وتضاءلت اهمية الوزارة، واختلت الادارة، وانفسح المجال للتيارات الثورية الاجتماعية المكبوتة ان تظهر بشكل عنيف ، كما حصل في حركة الزنج والقرامطة التي زعزعت اركان الدولة وكادت تقضي عليها.

ولكن رسوخ قدم العباسيين ونفوذهم الديني على الجماهير وانقسام الترك على انفسهم وظهور بعض الخلفاء القديرين في آخر هذه الفترة انقذ الخلافة العباسية موقتاً واعاد لها بعض سلطانها.

تتميز هذه الفترة باستبداد الترك ، حتى اصبح الخلفاء العوبة بأيديهم يولونهم و يعزلونهم حسب اهوائهم و رغائبهم. وقد وصف الفخري هذا الوضع فقال : « ان الاتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على

المملكة ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة في ايديهم كالأسير ، إن شاؤا أبقوه وإن شاؤا خلعوه وان شاؤا قتلوه [١] .

فالمنتصر (٢٤٧—٢٤٨ ﻫ / ٨٦١—٨٦٢م) بايعه قتلة ابيه من الاتراك ، وفي اليوم التالي بايعه الناس [٢] . ثم ألح عليه وصيف وبغا بخلع أخويه المعتز والمؤيد وتولية ابنه عبد الوهاب خوفاً على انفسهما من ولي العهد . فأجبر المنتصر أخويه على التنازل ، بحجة صغرهما يوم التولية فنزلا عند امره . وقد ورد في كتاب التنازل : « ان امير المؤمنين المتوكل على الله قلدني هذا الامر وانا صغير من غير ارادتي ومحبتي ، فلما فهمت أمري ، علمت أني لا أقوم بما قلدني ، ولا اصلح لخلافة المسلمين فمن كانت بيعتي في عنقه فهو من نقضها في حل وقد حللتكم منها وابرأتكم من ايمانكم [٣] ... » وبعد حكم قصير دام ستة اشهر لاقى حتفه ، كنتيجة لمرض ضميره او بالسم [٤] .

ثم رشح زعماء الاتراك (بغا الكبير وبغا الصغير والتامش) واحمد بن الخصيب احمد بن محمد بن المعتصم ابن اخي المتوكل للخلافة لخوفهم من اولاد المتوكل ، ولقبوه بالمستعين (٢٤٨—٢٥١ﻫ) . ويبين الطبري كيفية البيعة قال : « اجتمع الموالي . . . وفيهم بغا الصغير وبغا الكبير واوتامش (التامش) ومن معهم فاستحلفوا قواد الاتراك

---

(١) الفخري ٢٢٠ . (٢) الطبري ١١ : ٦٩ — ٧١ . (٣) الطبري ١١ : ٧٧ . (٤) Z. M. D. G. P. 91 .

والمغاربة والاشروسنة ، على ان يرضوا بمن رضى به بغا الكبير و بغا الصغير واوتامش وذلك بتدبير احمد بن الخصيب فحلف القوم [١] . »
ولم يكن اختيار المستعين مرضياً للجميع فقد « انكر بعض القواد البيعة » ووقع نزاع بين الاتراك و بين الابناء لمدة ثلاثة ايام تغلب في آخرها الاتراك [٢] .

لم يتمتع المستعين بالحكم طويلا ، لانقسام الاتراك على انفسهم وتنافسهم على السلطة . فقد أطلق المستعين يد اوتامش وشاهك الخادم في بيوت الاموال ، وشاركتهم في السلطة ام المستعين القوية ، فكانت معظم الاموال تنقل الى هؤلاء الثلاثة . ولكن السلطة الحليقية آلت الى اوتامش . فأخذ وصيف و بغا يتآمران مع الجند ضده [٣] . ونجحت دسائسهما ، فثار الاتراك والفراغنة ضد اوتامش بحجة استئثاره بارزاقهم [٤] وقتلوه في ربيع الآخر سنة ٢٤٩ ﻫ

الا ان قتل اوتامش لم يحل المشكلة ، اذ تنفذ (باغر) دون وصيف و بغا ، واخذ هذان يدبران المكائد ضده للتخلص منه . وكان باغر قويا يخشى بأسه و يخاف شره [٥] . فلما ادرك ما يراد به وشعر بان الخليفة في جانب اعدائه « جمع اليه الجماعة الذين كانوا بايعوه على قتل المتوكل او بعضها مع غيرهم » . و بعد ان تأكد من ولائهم له قال لهم « الزموا

---

(١) الطبري ١١ : ٨٢ ، (٢) اليعقوبي ٣ : ٢١٨ . (٣) الطبري ١١ : ٨٦ . (٤) اليعقوبي ٣ : ٢١٩ . (٥) الطبري ١١ : ٩٢ .

الدار حتى نقتل المستعين و بغا ووصيفا ونجيء بعلي بن المعتصم او بابن الواثق فنعقده خليفة حتى يكون الامر لنا كما هو لهذين اللذين قد استوليا على امر الدنيا و بقينا نحن في غير شيء ، فأجابوه الى ذلك [١] . »

وهكذا تجاهلوا كل اعتبار ونظروا الى مصلحتهم قبل كل شيء . واصبح المستعين في حالة يرثى لها وسط هذه الدسائس . فبعث الى وصيف و بغا وقال لهما « ما طلبت اليكما ان تجعلاني خليفة وانما جعلتماني واصحابكما ثم تريدان ان تقتلاني ! » وأخيراً نجح حزب وصيف و بغا في قتل باغر فثار اصحابه وتأزم الوضع فاضطر الخليفة وسيداه (وصيف و بغا) ان ينحدروا الى بغداد [٢] ، يصحبهم « جلة العمال والكتاب و بني هاشم وكذلك ... الاتراك الذين في جانب وصيف و بغا [٣] . » ولا شك ان هذه التدابير كانت لصالح وصيف و بغا فقط . اذ بقي «المستعين لا امر له والامر لبغا ووصيف [٤] ».

اضطرب الاتراك والفراغنة وغيرهم من الموالي بسامراء لانتقال الخليفة ، فقرروا ارسال وفد يسترضيه ، فارسلوا اليه عدة من وجوه الموالي ومعهم البرد والقضيب و بعض الخزائن ومائتا الف دينار » وسألوه الرجوع « واعترفوا بذنوبهم واقروا بخطئهم وضمنوا له ان لا يعودوا ولاغيرهم من نظرائهم الى شيء من ذلك مما انكره عليهم [٥] » ولكنه

(١) الطبري ١١ : ٩٢ . (٢) الطبري ١١ : ٩٤ ـ ٩٥ (٣) الطبري ١١ : ٩٧ . (٤) المسعودي ٤ : ٩٠ (٥) المسعودي ٤ : ٦ ١ .

أبى ان يرجع ، ووعدهم بارسال ارزاقهم بانتظام من مقره الجديد [1] . وكان معنى ذلك فقدان سامراء واتراكها الدور الرئيسي في الحكم واستناد الخلافة الى اهالي بغداد . اذا فلا غرابة ان نجد الاتراك في سامراء يقررون خلع المستعين ، واخراج المعتز والمؤيد من السجن ، ومبايعة الاول بالخلافة . وهكذا أدى تنازع الاتراك على السلطة الى وقوع الحرب الأهلية الثانية ، والى حصار بغداد للمرة الثانية [2] . وأوكل المستعين أمر الدفاع عن بغداد الى محمد بن عبدالله بن ظاهر ، بينما اعطى المعتز قيادة قواته الى اخيه ابي أحمد بن المتوكل . وحصنت بغداد بتقوية سوريها واعاما ستدارتها ، وبحفر خنادق حولها ، وضعت حاميات على الابواب ، وجهزت بالمجانيق الضخمة ، و بثقت المياه بطسوج الانبار وطسوج بادوريا لقطع طريق الاتراك . وأمر المستعين بقطع الميرة عن أهل سامراء من جهتي الموصل و بغداد ، وجند ابن طاهر قسماً من أهالي بغداد واستعان ببعض الخراسانيين الذين قدموا للحج وفرض فروضا ببغداد [3] . كما استعين بقسم من العيارين برآسة عرفائهم ، وعملت لهم تراس من البواري المقيرة ومخال تملأ بالحجارة .

وكتب المستعين الى ولاة الخراج في كل بلدة وموضع قبل بـدء القتال ان يرسلوا الوارد في بغداد لا الى سامراء ، كما حاول كل من

---

(١) الطبري ١١ : ٩٧ ـ ٩٨ . (٢) N. Abbot P. 62

(٣) الطبري ١١ : ٩٧ .

الخليفين استمالة اتباع صاحبه والاستعانة بالفرق الموجودة في الخارج. وهرب جماعة من اهل القرى المحيطة ببغداد خوفا من الترك الى بغداد نفسها تاركين امتعتهم ومزارعهم، و بذلك زادوا في صعوبة التموين.

وتوالت فرق المعتز (بين صفر و ربيع الاول سنة ٢٥١ هـ) واحاطت ببغداد من الجانبين (يقدر بعضهم عددها بـ ١٢٫٠٠٠ جندي في الجانب الغربي و ٧٫٠٠٠ جندي في الجانب الشرقي [1]).

ومما تجدر ملاحظته ان المغاربة والاتراك كانوا في جانب المعتز غالباً او مستعدين للانضمام اليه، وهذا خير دليل على شعورهم بان سيادتهم متعلقة بنتيجة تلك الحرب. وقد أبدى المدافعون شجاعة ومقدرة عظيمتين، وكتب النصر لهم اول الامر. ولكن طيلة القتال والحصار الاقتصادي على بغداد ادى الى ضعف معنويات البغداديين حتى الحوا على ابن طاهر في طلب الاكل و رفع الحصار.

تقدم ابن طاهر للمفاوضة في شروط الصلح، و يظهر ان الانقسام قد دب في صفوف حاشية المستعين قبل ذلك، وفكروا بمصالحهم لما رأوا عبث المقاومة [2]. وكان من شروط الصلح خلع المستعين والاعتراف بالمعتز خليفة للمسلمين. و بذل ابن طاهر جهده لاقناع المستعين (١٦ ذي الحجة) بذلك فابى. فقال له: «لابد لك من خلعها طائعاً او مكرهاً»

---

(١) الطبري ١١ : ١١٧ (٢) الطبري ١١ : ١٣٣ - ١٣٤.

واجاب اخيراً . وقد يشم المرء رائحة تنبىء بحصول علاقة سرية بين ابن طاهر وجماعة المعتز . فعندما ذكر ابن طاهر توكيد كتاب الشرط ، قال له الخليفة : « لا عليك لا عليك ، الا تركتها يا ابا العباس فما لقوم باعلم بالله منك ، وقد أكدت على نفسك قبلهم ، فكان ما قد علمت [١] » .

والمسعودي يصرح بهذا إذ يقول: « لما رأى محمد بن عبدالله بن طاهر ضعف أمر المستعين وقوة المعتز كاتب المعتز وجنح اليه ومال الى الصلح على خلع المستعين وكان من شروط الصلح الأمان للمستعين ولاهله و ولده وما حوته ايديهم من املاكهم وعلى ان ينزل مكة هو ومن شاء من اهله وان يقيم بواسط الى وقت مسيره الى مكة [٢] » : « وان يدفع اليه مال معلوم وضياع تقيمه [٣] » .

وأخبر بن طاهر الناس في أول الأمر ببقاء الخليفة في منصبه ، على أن يكون المعتز ولي عهده . فلما اكتشفوا الحقيقة ، هجموا على دور الأمير واحاطوا به وهددوه . ولم يهدئهم إلا توسط المستعين [٤] .

انتصر المعتز ، ولكنه أختلف مع الاتراك بعد مدة قصيرة ، لانهم كرهوا ميله للمغاربة والفرغانيين (الذين كانوا يكرهون الاتراك لاستئثارهم بالسلطة) . ومما زاد الأمر تعقيداً ، خلو الخزينة من المال ، وعدم تمكنه من دفع الرواتب بصورة منتظمة . على ان بعض القادة

---

(١) الطبري ١١ : ١٣٧ . (٢) المسعودي ١٠٧٠٤ . (٣) اليعقوبي ٢٢٢:٣ (٤) Levy P. 107 - 114 الطبري ١١ : ١٣٧ .

و بعض أعضاء العائلة المالكة (ولاسيما ام المعتز) جمعوا اموالا طائلة. وأدت هذه المشكلة (الرواتب) الى اجتماع كلمة الترك والفرغانيين والمغاربة، يطالبون الخليفة برواتبهم. فاستعان بامه، إلا انها انكرت وجود الأموال عندها. ولما عجز عن تلبية طلبهم، قرروا خلعه [١]. فاضطر الى التنازل بعد ان أمنوه على نفسه وماله و ولده، ولكنهم سجنوه وعذبوه الى ان مات [٢].

ثم أسرع الاتراك بارجاع محمد بن الواثق من بغداد (وكان المعتز قد نفاه اليها [٣]) ولكن موسى بن بغا الذي كان في خراسان لمحاربة مساور الشارى، لم يعترف بالخليفة الجديد [٤]. ولما لاحظ الاتراك عزم الخليفة على تشذيب نفوذهم اصطدموا معه وانزلوه عن عرشه ثم قتلوه. وكان خلعه في ١٤ رجب بينما وفاته كانت في ١٨ منه بعد رفضه [٥] خلع نفسه (اليعقوبي يجعل الوفاة في ١٦ رجب [٦]). ثم اجتمعت الآراء على مبايعة أحمد بن المتوكل على الله (المعتمد).

بهذه الأساليب الوحشية كان الحزب التركي يملي رغباته حتى جعل من الخلافة مهزلة عامة. وكانت المصالح المادية هي المرشد لهم في تعيين الخلفاء. فعند بيعة المنتصر «قال أحمد بن الخصيب لوصيف و بغا،

---

(١) Abbot : 93 . (٢) المسعودي ٣ : ١٢٠ . الطبري ١١ : ١٦٠ _ ١٦٢ . اليعقوبي ٣ : ٢٦٦ . (٣) المسعودي ٤ : ١٢٠ . (٤) المسعودي ٤ : ١٢٥ . (٥) الطبري ١١ : ٢٠٣ _ ٢٠٤ . (٦) اليعقوبي ٣ : ٢٥٦ .

انا لا نأمن من الحدثان ، وان يموت أمير المؤمنين (المنتصر) فيلي الأمر المعتز فلا يبقى لنا باقية و يبيد خضراءنا ، والرأى ان تعمل في خلع هذين الغلامين قبل ان يظفرا بنا ، فحمد الاتراك ذلك وألحوا على المنتصر ... فلم يزالوا به حتى فعل[1] » ثم مالوا لأحمد بن المعتصم ، ولكن أحد الحاضرين ذكرهم بانه يعتقد انه أحق بالخلافة من المتوكل والمنتصر وانه اخر عنها ، وأضاف « فبأى عين يراكم وأى قدر يكون لكم عنده ، ولكن اطيعوا انساناً يعرف كل ذلك » فقبلوا رأيه الا بغا الكبير فانه قال: « نجيء بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه ، وان جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا فقتلنا انفسنا » ولكنهم اخيراً نجحوا في اقناع بغا وتولية احمد بن محمد بن المعتصم[2] . وفعلا صدقت الايام نبوءة بغا الكبير .

وكما اتصفت هذه الفترة باستبداد الترك وتلاعبهم في امور الدولة ، كذلك كانت فترة نضال بينهم و بين الخلفاء ، حاول فيها الخلفاء مقاومة الترك بل اضعافهم و كسر شوكتهم . فالمسعودي يرى ان المنتصر « عزم على تفريق جميع الاتراك » وانه خاف ان يجرئهم مقتل والده على الخلفاء ، فقال يوماً وقد رأى بغا الصغير مقبلا وحوله جماعة من الاتراك « قتلني الله ان لم اقتلهم وافرق جمعهم بقتلهم المتوكل على الله » . وكانت أول خطوة خطاها لتفريقهم كانت بارسال وصيف في جمع كثير من الاتراك الى غزاة الصائفة بطرسوس ، ولكن المنية عاجلته ولعل الاتراك سموه لما لما لاحظوا « ما يفعل بهم وما قد عزم عليه[3] » .

(١) الطبري ١١ : ٧٥ — ٧٦ (٢) الطبري ١١ : ٨٢ — ٣ ، حاشية (٣) المسعودي ٤ : ٩١ .

ثم جاءت خلافة المعتز والمهتدى فكانت فترة نزاع علني بين الخليفة والحرس التركي . فقد لاحظ المعتز منذ أول خلافته ان دسائس الاتراك تحيط به من كل مكان ، ونمى اليه ان اخاه المؤيد تحالف مع جماعة من الموالي على خلعه ، فسجنه واضطره الى خلع نفسه . واتصل بالخليفة ان جماعة من الاتراك ، كانت تحاول اخراج المؤيد من السجن وتوليته الخلافة . فأمر بقتله (٢٢ رجب سنة ٢٥٢ هـ/ ٨ آب ٨٦٨م [١]) . كما حاول وضع حد لطغيان الاتراك ، فكاتب (كما يقال) طاهر بن محمد بن عبدالله بن طاهر صاحب خراسان ان يساعده ، فارسل اليه عمه سليمان ابن عبدالله « في خلق كثير من جند خراسان » ودخل سامراء فخلع عليه الخليفة ، ولكن وصيفا و بغا اضطرا الخليفة ان ينحيه و يرسله الى بغداد (فجاءها في ١٦ ربيع الآخر سنة ٢٥٤ هـ [٢]) . وسعى لضرب الحرس بعضهم ببعض ؛ فاصطنع المغاربة والفراغنة وقربهم على حساب الترك ، واعمل الحيلة للتخلص من رؤساء الاتراك مستغلا التنافس بينهم . ونجح فعلا في قتل بغا [٣] . ولكن الاتراك انتبهوا الى ذلك ، فاجتمعوا بزعامة صالح بن وصيف . واتخذوا الارزاق ذريعة للفتك به ونجحوا في القضاء عليه [٤] .

جاء المهتدى وكان حازماً كما يظهر ، ولعل الاتراك اختاروه لورعه

---

(١) N . Abbot . 93 المسعودي ٤ : ١١٨ — ١١٩ (٢) اليعقوبي ٣ : ٢٢٣ (٣) انظر التفاصيل في اليعقوبي ٣ : ٢٢٦ . والطبري ١١ : ١٥٦ — ١٥٧ (٤) المسعودي ٤ : ١٢٠ .

وتقواه ، ولضعفه الظاهر . فاظهر المهتدى براعة ودهاء في محاربة نفوذ الاتراك ، واتبع في ذلك طريقتين : التقرب من العامة ورجال الدين وجمعهم حوله ، وتقسيم صفوف الجيش وضربهم بعضهم ببعض. فبنى قبة المظالم لها اربعة ابواب وجلس فيها للعام والخاص « وأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحرم الشراب، وأخرج القيان والمغنين من سامراء ونفاهم الى بغداد ، وابطل الملاهي ، وقرّب العلماء ورفع من منازل الفقهاء [1] » وصرح للناس انه يريد ان يقتدي بسيرة عمر الثاني ، وعمد الى الصور التي كانت في المجالس فمحيت وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين يدي الخلفاء ، والديوك وقتل السباع المحبوسة . ولاشك ان ذلك أرضى العوام وزاد في حماسهم لهم [2] . وكان المهتدى صالحاً دينا ولكنه كان يفكر بتقوية مركزه ، حتى نجده في المعارك الاخيرة بينه وبين الاتراك يعلق المصحف في عنقه ويستنفر العامة ويبيحهم دماء الاتراك واموالهم [3] وينادي فيهم في الساعة الحرجة ، « انا أمير المؤمنين ، قاتلوا عن خليفتكم [4] » . و« يا معشر الناس انصروا خليفتكم [5] » . ولكن العوام قوة غير منظمة فلم تنفعه كثيراً .

كما انه في نفس الوقت حاول الاقتصاد في النفقة مدفوعاً بافلاس الخزينة فقلل مثلا نفقات مائدته من ١٠،٠٠٠ درهم الى ١٠٠

---

(١) المسعودي ٤ : ١٢ (٢) الطبري ١١ : ١٧١ . المسعودي ٤: ١٢٤ ١٣٠—١٣١ . (٣) اليعقوبي ٣: ٢٢٨ . (٤) الطبري ١١ : ٢٠٦ اليعقوبي ٣ : ٢٢٨ . (٥) الطبري ١١ : ٢٠٤ .

درهم . وقلل من اللباس والفراش و « أمر باخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم [١] » .

وحاول المهتدي تقسيم صفوف الجيش وضرب زعمائه الاقوياء [٢] . فحاول استغلال المنافسة بين الاتراك وبين الفراغنة والمغاربة ، وقدم الصنفين الأخيرين ، وسعى من وراء ذلك لضرب الترك [٣] . كما انه سعى لتفريق الاتراك انفسهم . وقد نجح في أول الأمر وأيده قسم من الاتراك الصغار (اللاحقين من أولاد الاتراك) ولكنهم رجعوا وانضموا لاخوانهم . وأراد استئصال شأفة الزعماء الترك مستغلا منافستهم على الرياسة ، فكتب الى (بايكباك) وكان مع موسى بن بغا ومفلح في طريق خراسان ، يغريه سراً بالقيادة العامه للجيش ويأمره بقتل موسى بن بغا ومفلح ولكن (بايكباك) انتبه الى الخطر وأطلع صاحبيه على الرسالة . فاغاظهما الأمر ويظهر انهم اتفقوا على ان يظهر بايكباك الولاء للمهتدي ثم يقتله . فرجع بايكباك وموسى ودخل بايكباك سامراء فشعر المهتدي بخطر تآمرهما فجمع حوله الموالي فكان عددهم من المغاربة والاتراك حوالي ١٥,٠٠٠ ، ثم قبض على بايكباك وعندما شاغب أصحابه أمر بقتله فقتل . فكان ذلك اعلانا للحرب بين الخليفة والاتراك انتهت بخلع الخليفه وأودت بحياته . وبايع موسى والاتراك لأحمد بن المتوكل ولقبوه

---

(١) المسعودي ٤ : ١٣٠ — ١٣١ . (٢) اليعقوبي ٣ : ٢٢٨ ؛ الطبري ١١ : ٢٠٩ . (٣) الطبري ١١ : ٢٠٩ .

بالمعتمد على الله في ١٣ رجب [١] .

وقد كان مقتل بايكباك حجة مباشرة للهياج ، ولكنه لم يكن السبب الحقيقي بل السبب الحقيقي هو « مساواة (الخليفة) الفراغنة لهم (الاتراك) في الدار ودخولهم معهم ، ووضح عندهم ان التدبير إنما جرى في قتل رؤسائهم حتى يقدم عليهم الفراغنة والمغاربة [٢] .

وهكذا انتهت هذه الفترة القصيرة بانتصار الترك ، وكادت سلطة الخلفاء ان تنهار نهائياً وسط خصومات الجيش وفوضاه . ولكن القواد الاتراك توقفوا عن اثارة الاضطراب بعد مجيء المعتمد . وربما كان ذلك عائداً الى تضعضع صفوفهم وانهاكهم في هذه الفترة . كما ان موسى بن بغا لم يكن له مساو بينهم ، ولما كان الخليفة صنيعته لم يبق مجال للنزاع في البلاط . ولا تنس انه شغل الجند باخماد الثورات في جهات متعددة [٣] .

وأدى شلل الحكومة المركزية اثناء الفوضى الى تقوية الميول الانفصالية عند بعض الامراء ، والى قيام الثورات في جهات متعددة . وكان كثير من تلك الثورات شيعية قام بها الزيدية . ففي سنة ٢٤٩ ﻫ ثار يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي في الكوفة « واجتمعت اليه الزيدية ودعا الى الرضا من آل محمد ». ومن الغريب ان « تولاه العامة من اهل بغداد [٤] . » إلا ان الحركة اقتصرت عملياً على

---

(١) الطبري ١١ : ٢٠٣ ـ ٢٠٥ . (٢) الطبري ١١ : ٢٠٩ .
(٣) Eowen P. 5 . (٤) الطبري ١١ : ٨٨ .

الكوفة وفشلت [١] .

وفي السنة التالية قاد الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي الثورة بطبرستان وكان عمال سليمان بن عبد الله (عم محمد بن طاهر امير خراسان) والي طبرستان قد أساؤوا السيرة فيها. ومما زاد الوضع سوءاً ان الخليفة اقطع محمد بن عبد الله (حاكم بغداد ٨٥١ — ٨٦٧) من صوافي السلطان قطائع في طبرستان على حدود الديلم « وكان بحذائها ارض لاهل تلك الناحية فيها مرافق منها محتطبهم ومراعي مواشيهم ومسرح سارحتهم [٢] . » فجاء ممثل محمد بن عبد الله لادارة القطائع ، فضم الارض المشاعة اليها وأدى ذلك الى ثورة عامة قادها الحسن بن زيد واستطاع ان يخضع طبرستان وجرجان ، وان يجمع كلمة سكانها (٢٥٠ — ٢٧٠ / ٨٦٤ — ٨٨٤) [٣] . ويعلق (بارتولد) على هذه الحركة ، قائلا : « وفي هذه الحالة كانت الحركة الشيعيه نتيجة للتجاوز على مصالح الفلاحين [٤] . » ثم خلفه اخوه محمد بن زيد الذي ضم اليه الديلم سنة ٢٧٧ ه وبقي يحكم حتى فتح السامانيون المنطقة سنة ٢٨٧ ه / ٩٠٠ م [٥] .

ولنستطرد قليلا فنقول ان ثورة اخرى قامت في طبرستان سنة ٣٠١ ه / ٩١٣ — ٩١٤ م برآسة حسن بن علي الاطروش العلوي ناصر

---

(١) الطبري ١١ : ٨٧ — ٧٩ ، اليعقوبي ٣ : ١٢١ . (٢) الطبري ١١ ، ٩٠
(٣) الطبري ١١ ، ٩٠ ـ ٩٣ (٤) Barthold T. : P. 221 .
(٥) انظر Browne vol. I. P. 348 المسعودي ٣ ، ٩٨

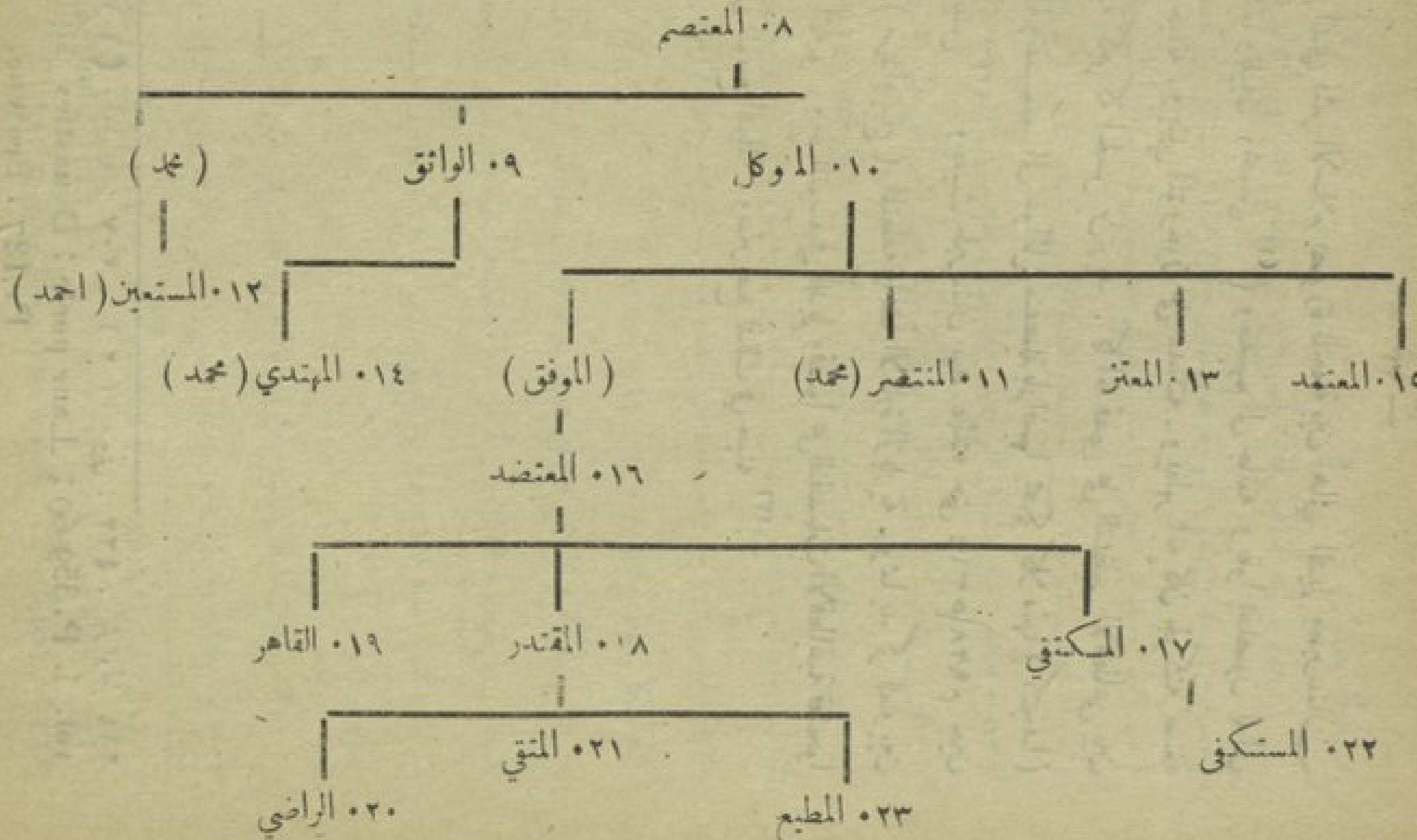
الحق الذي نشر الاسلام بصورة ناجحة بين أهالي الديلم وطبرستان (وكانوا وثنيين ومجوس [١]) وجذبهم الى جانبه وبقوا يخلصون له الى آخر حياته . ويثني المؤرخون على عدالته . ويظهر انه كان لحركته صبغة شعبية كحركة الحسن بن زيد . كما انه قضى على التنظيم الاقطاعي بين الديالمة وتقسيمهم الى عوائل منفصلة باراضيها يحكم كلا منها (كتخدا) أو رئيس [٢] . وبقيت طبرستان بيد عائلته حتى ٣١٤هـ/٩٢٨م حين فتح (مرداويج) المنطقة وانشأ الامارة الزيارية . ومما يذكر للعلويين انهم اثاروا روح التوسع في الديلم وقضوا على التقسيمات الاقطاعية ففتحوا المجال لتوسع الديالمة . وسنرجع لذلك في حينه [٣] .

---

(١) براون ١ : ٢٠٧ . (٢) البيروني : ٤٢٢ . بارتولد ٢١٤

(٣) انظر Dynasties : Lane poole ; vol. I. P. 359-60 Browne, P. 127 .

جدول بأسماء الخلفاء بين ٢٢٧هـ – ٣٣٤هـ



ثورة الزنج

٢٦ رمضان ٢٥٥ – ٢ صفر ٢٧٠ ﻫ

٥ آب ٨٦٩ – ١١ آب ٨٨٣م

– ١ –

كانت ثورة الزنج حركة خطرة، هددت كيان الدولة العباسية في الصميم واشغلتها حوالي اربعة عشر عاماً. ولا يكفي لفهمها فهم طموح الرجل الذي أثارها، أو اضطراب وضع الخلافة فحسب، بل لابد من تحليل وضع من انضوى تحت لوائه، والدوافع التي دعتهم الى ذلك، حتى جعلتهم يكافحون بحماس عجيب طيلة الثورة.

وحركة الزنج – كما يدل اسمها – هي: ثورة العبيد في وجوه اسيادهم، مستهدفين من وراء ذلك رفع منزلتهم وتحسين وضعهم بعد أن نظمهم رجل ادعى النسب العلوي وبث فيهم دعاية لم يألفوها من قبل، ولكنها تتفق وروح العصر الذي عاشوا فيه.

لم يكن استخدام العبيد في المزارع بالأمر الجديد الذي يلفت النظر، وانما المهم ان نلاحظ ظهور بعض الاتجاهات والأوضاع الجديدة في هذا العصر. فقد شهد القرن الثالث الهجري – نتيجة لتحول المجتمع من طور زراعي الى تجاري – نشوء طبقة من المثرين ذات

رؤوس اموال عظيمة ، تستخدم من الرقيق عدداً كبيراً . ونتيجة لذلك ظهر نوع جديد من التمركز في العمل ، كوجود آلاف من الرقيق يشتغلون في محل واحد . وظهرت دعاية جديدة واسعة النطاق متسترة بأسم العدالة الدينية ، واكنها ليست في الحقيقة إلا تأكيداً قوياً على تحسين الوضع المالي والاجتماعي للطبقات العامة [١] .

— ٢

كان عامة الثوار عبيداً من زنوج الصومال و زنجبار الذين كانوا يستخدمون في سهول البصرة (فرات البصرة) في كسح السباخ لجعل الأرض قابلة للزراعة وللاستفادة من الاملاح المجتمعة [٢] . وانضم اليهم جماعات من العبيد الهاربين (الآباق) من القرى والمدن المجاورة ، تخلصاً من وضعهم السيء وهرباً من الضغط الشديد الذي ينوؤون بثقله [٣] .

كان عددهم كبيراً . وكانوا يشتغلون عادة جماعات تتراوح بين ١٠٠٠ — ٥٠٠٠ [٤] . بل قد يكون العدد اكثر من هذا بكثير ، إذ قد بلغ عدد احدى الجماعات التي كانت تشتغل على نهر الدجيل خمسة عشر الفاً [٥] . مما يدل سعة تمركز العمل بين هؤلاء الزنوج .

ويمكننا ان نقول ان هؤلاء الزنوج كانوا يشتغلون بلا مقابل تقريباً . فقد اقتصرت اجورهم على قوت قليل من الطحين والتمر

(١) الدوري — دراسات في تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري . ٧٦ — ٧٧ . (٢) الطبري ١١ : ١٧٤ . (٣) الطبري ١١ — ١٧٧ . (٤) دائرة المعارف الاسلامية ٤ : ١٢١٢ . (٥) الطبري ١١ : ١٧٧ .

والسويق [١]، مما جعل اي وعد لتحسين وضعهم المعاشي اغراء كبيراً لهم .

واذا فقد كان هؤلاء الزنوج يرزحون تحت اوضاع اقتصاديه واجتماعية سيئة . فقد كان شغلهم شاقا، ووضعهم المعاشي سيئاً . ثم ان الشعور بالولاء الذي يربط العبد بسيده في المجتمع الاسلامي كان معدوما عندهم . كما ساعد هذا التكتل الواسع على بعث شعور عام بينهم بالمصلحة والقيام ضد اسيادهم [٢] .

— ٣

ويظهر ان زعيمهم « صاحب الزنج » ادرك هذه الحقائق، فحاول اولا معرفة دقائق وضعهم، فسأل « عن اخبار غلمان الشورجيين وما يجري لكل غلام منهم من الدقيق والسويق والتمر [٣] » وشدد التأكيد في دعوته على الناحية المادية . ففي سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٩ م خطب الزنج خطبة « ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال، وان الله قد استنقذهم به من ذلك، وانه يريد ان يرفع اقدارهم ويملكهم العبيد والاموال والمنازل ويبلغ بهم اعلى الامور [٤] » .

من هذا يتضح لنا ان « صاحب الزنج » قصد الى ادخال بعض التعديلات على الاوضاع الاجتماعية ولكنه لم يقصد الى الغاء الرق . فقد

---

(١) الطبري ١١:١٧٦. (٢) Noldeke. P.149-148 (٣)الطبري ١١ : ١٧٦ . (٤) الطبري ١١ : ١٧٧ .

حرر العبيد كلما سنحت له الفرصة [١] ، ولكنه استرق أسرى المسلمين [٢]. واذا فقد كانت حركته لفائدة طبقة العبيد ليس الا . ولهذا فلا نستغرب فشل دعوته بين أهل البصرة رغم انقسامهم الى حزبين متناحرين [٣] . كما ان هذا كان السبب في اغراء اهل القرى المجاورة (بالاضافة الى سادة الزنج) القائد (رميس) ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م بكميات متنوعة من المال ان هو اخمد الحركة وارجع العبيد الى اسيادهم [٤] .

فكل ما اراده « صاحب الزنج » هو تحرير العبيد وتحسين حالتهم المادية ، ولم يكن ليجول في خلده انشاء نوع من الاشتراكية كما اعتقد مؤلف سياسة نامة [٥] . ولعل عدم وجود برنامج اقتصادي اجتماعي شامل في حركة الزنج يلقي بعض الضوء على فشل محاولة حمدان قرمط للتفاهم مع صاحب الزنج ضد العباسيين [٦]. ومع ذلك فهناك اشارة الى وجود « القرماطيين » مع الزنج [٧] .

لم ينس « صاحب الزنج » ان يلبس حركته ثوبا دينياً . ومع ان عامة الزنج كانوا برابرة لا يفهمون العربية ، ولا يملكون اي ثقافة [٨] ،

---

(١) الطبري ١١ : ١٨٦–١٨٧ ، ٢١٣ . (٢) الطبري ١١ : ١٨٢، ٢٧٩ ، ٢٠٣ . السيوطي ٢٤٢ . (٣) الطبري ١١ : ١٧٥ ، ١٨٤ . (٤) الطبري ١١ : ١٧٩ ، اطروحة الدوري . (٥) سياسة نامة ٢٨٥ يقول صاحبها ان مبادىء صاحب الزنج هي مبادىء مزدك . (٦) الدوري الطبري ١١:١٧٧ . (٧) الطبري ١١ ١٧٩ . (٨) Noldeke P. 174 الطبري ١١ : ١٧٧ .

الا ان بعضهم لم يكن الى هذا الحد من الجهل بالدين واللغة كالفراتية والنوبة [١] . وكان لابد لصاحب الزنج من ان يزودهم بحجة شرعية للقيام ضد العباسيين . فادعى ان العناية الالهية أرسلته لانقاذ العبيد المظلومين، وانها كانت ترشده وتساعده [٢] . وأدعى العلم بالغيب [٣] وانتحل النبوة والرسالة [٤] . ومع انه أدعى النسب العلوي ليكتسب شرفاً [٥] ، إلا انه لم يبشر بمبادىء شيعية ، بل بشر بمبدأ الخوارج الذي ينكر مبدأ الوراثة (الذي يستند اليه العباسيون والعلويون معا) ويرى لزوم خلافة أفضل المسلمين ولو كان عبداً حبشياً . وقد صرح بذلك المسعودي بقوله : انه كان يرى رأى الازارقة [٦] . فكتب على لوائه « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله [٧] » . ولهذا اكتفى بكتابة اسمه وأسم أبيه على علمه دون ذكر أصله . هذا الى ان بساطة هذا المبدأ تجعل فهمه ميسوراً على الزنج ، كما ان البصرة لم تكن علوية كالكوفة [٨] . واتباعه لمذاهب الخوارج (الازارقة) يفسر كيف انه وضع السيف في رقاب اعدائه واسترق نساءهم واطفالهم [٩] . وهكذا كانت حركة الزنج متلونة بالاوضاع

---

(١) الطبري ١١ : ١٧٩ . (٢) الطبري ١١ : ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ . (٣) السيوطي ٢٤٢ . (٤) ابن الجوزي ٥ : ١٧ . (٥) الطبري ١١ : ٢٢٢ . (٦) المسعودي ٤ : ١٣٥ . (٧) الطبري ١١ : ١٧٦ (٨) Noldeke P. 151-152 الطبري ١١ : ١٧٦ . (٩) المسعودي ٤ : ١٣٥ .

السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي نشأت فيها .

ولننتقل الآن الى بحث حوادث تلك الحركة والطبري مصدرنا الرئيسي : —

١ —

وقعت حوادث الحركة في السهول الواقعة بين مصب دجلة العوراء (شط العرب الحالي) وبين واسط . وهي أراضي تكثر فيها مجاري المياه وتزدحم الادغال . فقد كانت البطيحة تغمر القسم الشمالي منها ، بينما كانت الأراضي حول دجلة العوراء تغمرها شبكة من القنوات التي تزداد كثافة حول البصرة ، حتى قدر الجغرافيون العرب عددها بمائة ألف قناة في تلك المدينة .

وطبيعي أن يساعد هذا الوضع الجغرافي على حرب العصابات ويجعل حركة الجيوش المنظمة أمراً عسيراً كما يساعد على اطالة أمد الحرب ، وعلى المباغتات التي تنشأ عن جهل المهاجمين بالمسالك الخفية والقنوات المتعددة . وأخيراً تجعل اقامة وسائل الدفاع أمراً سهلا وازالتها أمراً صعباً . وقد استغل الثوار هذه الأوضاع ، ولم ينجح الجيش العباسي في محاربتهم واخضاعهم إلا بعد اناة طويلة ومعرفة جيدة للمنطقة بعد خبرة طويلة وخسائر فادحة .

٢ —

اما بطل الحركة فاسمه (بهبوذ) [١] . واصله من (وزرنين)

(١) ابن الجوزي ٥ : ٧٠ السيوطي ٢٤٢ .

وهي قرية من قرى الري [١]. فكأنه من أصل فارسي، ولكنه تسمى بمحمد بن علي وزعم انه عربي. فانتسب أول الامر الى عبد القيس [٢]، ثم الى زيد بن علي (اولا الى عيسى بن زيد وبعد خراب البصرة الى يحيى بن زيد) [٣] وقد نفى المؤرخين صحة نسبه العلوي وسكتوا عن عروبته فكأنهم يسلمون بها.

ويظهر انه كان طموحاً ذا نفس متوثبة تسمى دوما وراء السيادة، الا انه كان صبوراً هادىء التفكير. فقد بدأ يبشر بمذهبه في البحرين واتبعه ناس وقاومه آخرون مما جر الى فتنة بين الطرفين فرحل عنها [٤]. ومما يؤيد هذا ان بعض كبار اتباعه (ومنهم سليمان بن جامع اكبر قواده) هم من تلك المنطقة [٥].

ثم ورد البصرة سنة ٢٥٤ هـ ثاني مدن العراق وقلبه التجاري، وكانت مسرحا لفتن مستمرة وخصومات دائمة بين جماعتي البلالية والسعدية ففشل في دعوته. واحس به العامل فطلبه فهرب الى بغداد وتتبع بعض اتباعه واقاربه والقاهم في السجن. ثم عاد مرة ثانية الى البصرة سنة ٢٥٥ هـ بعد ان عزل العامل، وبعد ان خرج أهله من السجن نتيجة للاضطرابات التي تلت العزل [٦].

---

(١) الطبري ١١ : ١٧٤. (٢) الطبري ١١ : ١٧٤. (٣) الطبري ١١:١٧٤:٢٢٢ (٤) الطبري ١١:١٧٤. (٥) Noldeke. P. 156
(٦) الطبري ١١ : ١٧٥ — ١٧٦ Noldeke. P. 146 - 147 :

٣

وجه على بعد رجوعه ، دعايته الى الزنج في السهول الواقعة شرق البصرة وذلك بعد ان مكث فيها مدة يدرس الاوضاع [١] فلاقت دعوته نجاحاً سريعاً . إذ كان الزنج ينضمون اليه جماعات تتراوح بين الخمسين والخمسمائة في المرة الواحدة [٢] حتى « اجتمع اليه بشر كثير من غلمان الشورجيين [٣] .

ويعتبر يوم الاثنين (٦ ايلول ٨٦٩ م/٢٦ رمضان ٢٥٥ هـ) يوم قيامه بالثورة . إذ خطب اتباعه « فمناهم ووعدهم ان يقودهم ... ويملكهم الاموال » وأكد لهم اخلاصه وعطفه [٤] . ثم خطبهم خطبة ثانية يوم عيد الفطر (١٠ ايلول) ووعدهم بتحسين حالهم وانهم سيمتلكون الاموال والعبيد والمنازل [٥] ويبين الطبري انه كان يستعمل المترجين لافهام من لم يعرف العربية من اصحابه [٦] .

وكان اتباعه من جماعات متنوعة من الزنج وهم اخطر اصحابه واهمهم ، والعبيد الفراتيين (من منطقة الفرات) والنوبة [٧] .

ويظهر ان بعض الاعراب الساخطين على الخلافة حالفوا الزنج وقاتلوا معهم . ففي سنة ٢٥٧ هـ ساعد بعض الاعراب الزنج في الهجوم

---

(١) الطبري ١١ : ١٧٦ . (٢) الطبري ١١ : ١٧٦ . (٣) الطبري ١١ : ١٧٦ . (٤) الطبري ١١ : ١٧٦ - ١٧٧ . (٥) الطبري ١١:١٧٧ .
(٦) الطبري ١١ : ١٧٧ . (٧) الطبري ١١ : ١٧٩ .

على البصرة [١]. وفي سنة ٢٥٨ هـ عاث الباهليون في البطائح فصاب رئيسهم « فانضم باقي رؤسائهم الى الزنج » [٢]. وفي سنة ٢٦٦ هـ انتهب الاعراب كسوة الكعبة ثم « صار بعضهم الى صاحب الزنج [٣] ».

وتعاون بعض اهالي القرى (في منطقة البصرة) مع صاحب الزنج وايدوه . فقد : « أتى عليه (صاحب الزنج) أهل الكرخ (قرية على الدجيل) ... ودعوا له بخير وامدوه من الانزال بما اراد » [٤] وهذا دليل على تذمر الفلاحين من معاملة ملاك الأرض . ويرى نولدكه انه « لو لا مساعدة الفلاحين وتغاضيهم لصعب تموين جيوش صاحب الزنج الجرارة » [٥].

ومما قوى الزنج وزاد في شكيمتهم ، انضمام الجنود السود من جيوش الخلافة اليهم وخاصة بعد الهزائم المتكررة . ولعل القليل من اصحاب الحرف في المدن اشتركوا مع صاحب الزنج [٦].

ويظهر من مفاوضة رميس (قائد فرقة البصرة) مع صاحب الزنج ان الحكومة لم تقدر نياته وحركته حق قدرها . اذ عرض رميس عليه الأمان ورد الزنج الى اسيادهم ، على ان يعطيه خمسة دنانير عن كل رأس . ولكن صاحب الزنج رفض ذلك . ولما اضطرب الزنوج وخافوا المفاوضة أكد لهم اخلاصه . كما ان تهاون الحكومة اول الأمر ساعد على انتصاراته السريعة [٧].

---

(١) الطبري ١١ : ٢١٨ . (٢) ابن الجوزي ٥ : ٨ . (٣) ابن الجوزي المنتظم ٥ : ٥٦ . (٤) الطبري ١١ : ١٨٠ — ١٨١ . (٥) Noldeke. P. 154 (٦) Noldeke . P. 152-153 (٧) الطبري ١١ : ١٧٩ وما بعدها .

— ٤

ويمكننا ان نقسم حرب الزنج الى فترتين . فالاولى كانت فترة انتصارات متوالية للزنج ، ساعدهم عليها اضطراب شؤون الخلافة العباسية وقلة خبرة جيوشها وضعف قيادتها. والفترة الثانية وتبدأ سنة ٢٦١ هـ أي بعد تعيين أبي أحمد الموفق للمرة الثانية لضرب تلك الحركة .

بدأ محمد بن علي اعماله بغارات على القرى المجاورة وعلى مدينة البصرة العظيمة. وقد اظهر في القيادة مقدرة فائقة. فكان رابط الجأش، بعيد البصيرة، كثير التروي مقدراً للظروف في حركاته وسكناته . وقد ساعده نظام الجاسوسية والاستطلاع اللذان كانا نشيطين عنده على معرفة احوال اعدائه وسيرهم العسكري . ففي سنة ٢٥٥ هـ اخبر بتجمع جيش أكثره من أهل البصرة على نهر بيان لمقاتلته ، فهاجمه ومزق صفوفه شر تمزيق بعد ان اطلع بواسطة جراسيسه على عدده وتشكيلاته العسكرية [1] . ولعله كان يأمل أن ينضم اليه أحد الحزبين المتناحرين فيما بينهما في تلك المدينة . الا ان آماله ذهبت ادراج الرياح لا سيما بعد ان اتحد الحزبان ضده [2] .

وبعد ان هزم فرقتين بصريتين اخريين ، الح على اصحابه بالانتظار ، ولكن نشوة النصر حملت بعضهم على التعجيل فكانت العاقبة وخيمة عليهم ، إذ قد منوا بهزيمة منكرة (١٢ من ذى القعدة ٢٥٥ هـ / ٢٣ تشرين الأول ٨٦٩ م) . ولكن البصريين لم يكونوا

---

(١) الطبري ١١ : ١٨٤ — ١٨٥ . (٢) Noldeke. P, 155 .

جيشاً مدرباً يعرف التعقيب كما لم تكن لهم قيادة تقارن بقيادة الزنج . فلا غرابة ان مزق الزنج جمعهم بعد يومين (٤ من ذي القعدة) ولم ينج منهم الا الشريد[1] » . وكان هذا الانتصار كافياً لتحطيم معنوية البصريين ولأن يصبح أسم الزنج مثاراً للرعب والخوف في تلك المنطقة[2] .

وهنا ظهرت عبقرية صاحب الزنج ، فلم يسمح لجنده بمهاجمة البصرة لانه اقتنع بعدم وجود الموالين له فيها ، وادرك ان ليس باستطاعته اخضاع تلك المدينة . هذا بالاضافة الى ان جيشه كان بحاجة الى الراحة والاستجمام بل والاستعداد من جديد[3] .

ثم رأى ضرورة انشاء مركز حصين له ولجنده ، ليسهل تنظيم الجيوش وتعبئة الحملات منه . فانسحب الى سبخة في آخر انهار البصرة (سبخة أبي قره بين نهر ابي قره ونهر الحاجر) وأمر اصحابه بانشاء الاكواخ من سعف النخيل والطين فيها . ثم انتقل في السنة التالية الى نهر ابي الخصيب وانشأ على ضفته الغربية مدينة حصينة باسوارها وخنادقها ، علاوة على الحصانة الطبيعية من الادغال الكثيفة والقنوات العديدة وأمر اصحابه بالبناء فيها . وبنى قصوره من الحجارة كما يظهر وجعلها كالقلاع . ويظهر انه بنى حصوناً على الجانب الشرقي لابي الخصيب التجأ اليها في ايامه الأخيرة . واعتنى بصورة خاصة بتموينها

---

(١) الطبري ١١ : ١٨٨ — ١٨٩ . (٢) الطبري ١١ : ١٩١ .
(٣) Noldeke. P. 155-156 الطبري ١١ : ١٩١ .

فكانت الأراضي التي حولها عامرة ، وجعلها قريبة من البحر والبادية ليسهل الحصول على الاقوات من الجانبين . وسنرى ان قضية التموين كانت عظيمة الأهمية في حرب الزنج [1] .

— ٥ —

استنجد البصريون بالخليفة فارسل اليهم القائد التركي (جعلان). ويدل تركيب جيشه على جهل بمنطقة الحرب . فقد كان اكثر اصحابه فرسانا ، ولذلك لم يجد «الى لقاء صاحب الزنج سبيلا لضيق الموضع، بما فيه من النخل والدغل (ويمكن ذكر القنوات ايضاً) عن مجال الخيل [2] » فبقي ستة اشهر قابعاً في مكانه دون حركة . ولكن خصمه الداهية استغل جهله وارتباكه فبيت له وشتت اصحابه . فاضطر جعلان ان ينسحب الى البصرة [3] . وبهذه المناسبة نقول ان التبييت واستعمال الكمناء كانا من ابرز أساليب الزنج في هذه الحرب . وقد لاقت منها جيوش الخليفة الأمرين .

وبعد هذا الانتصار تشجع الزنج (ونقلوا مركزهم الى الجانب الغربي من نهر ابي الخصيب) فهاجموا الأبلة ، المرفأ التجاري العظيم (وهي على اربع ساعات من البصرة) في ٢٥ رجب سنة ٢٥٦/١٩ حزيران سنة ٨٧٠م وكانت دورها من الخشب . فاقتحموها ونهبوها

---

(١) الطبري ١١ :١٩١ ، ٢١١—٢١٢ ، ٢٧٦،١٦٣٠ (٢) الطبري ١١ : ٢١١ ، (٣) الطبري ١١ : ٢١١ Noldeke. P. 157 ؛

واضرموا النار فيها « فاحترق وقتل خلق كثير وغرق خلق كثير[١] » فزاد الرعب من خطر الزنج ، حتى ان أهل عبادان (وهي مدينة على جزيرة في مصب دجلة العوراء) فتحوا له ابواب مدينتهم ليسلموا مما صارت اليه الأبلة ، « فدخلها اصحابه فأخذوا من كان بها من العبيد (وجرروهم) وحملوا ما كان فيها من السلاح اليه ففرّقه عليهم »[٢].

وبعد ان تقوى جيشه بالرجال والسلاح والمال ، صار يطمع بالاهواز . فهاجم جبّى ودخلها ، والاحراق والنهب يصحبه ، ثم تقدم الى مدينة الاهواز نفسها (العاصمة على نهر كارون الخالي) فانسحبت الحامية منها . و يظهر ان هذا ضمن لها شيئاً من الاعتدال في المعاملة . فدخلها في ١٢ رمضان سنة ٢٥٦ هـ / سنة ٨٧٠ م[٣]

وهكذا استطاع هذا المغامر على رأس عصابات الزنج ان يبسط سلطانه على اراضي واسعة ، وكان صدى انتصارات مروعا وخاصة لاهل البصرة ، حتى « انفض كثير من اهلها عنها وتفرقوا في بلدان شتى »[٤]. ولم يكتف الزنوج بذلك بل تجاوزوا الى طرق المواصلات بين بغداد والبصرة فقطعوها واحلوا بالتجارة اضراراً فادحة .

— ٦

ولكن وضع الخلافة بدأ يبشر بالتحسن . فقد قتل المهتدي

(١) الطبري ١١ ، ٢١٣ . (٢) الطبري ١١ ، ٢١٣ . (٣) الطبري ١١ ، ٢١٣—٢١٤ 158 Noldcke. P . (٤) الطبري ١١ ، ٢١٥ .

و بويع للمعتمد ، وانتقلت السلطة الحقيقية الى اخيه ابي احمد الموفق فاظهر ابو احمد من المقدرة والكفاءة والمثابرة ما مكنه من استرجاع هيبة الخلافة وسلطتها في المقاطعات المركزية على الأقل (١).

ولعل انشغال الموفق منعه من الاشراف على حرب الزنج بنفسه فارسل جيشاً بقيادة حاجبه (سعيد الحاجب) في رجب في سنة ٢٥٧ ﻫ واستطاع ان يهزم فرقة من الزنج قرب معقل ، ولكن صاحب الزنج جاءه بغتة فهزمه ، وهزم خلفه في القيادة — وهو منصور بن جعفر الخياط — دون ان يجد صعوبة ما (٢).

ثم عاد الزنج فقطعوا مواصلات البصرة بدجلة ، وضربوا عليها حصاراً اقتصادياً وخربوا المدن التي حولها ثم قرروا مهاجمتها ، والبصرة يومئذ تعاني الغلاء الشديد والعصبية التي كانت تمزق صفوف حاميتها الضعيفة (٣). وكانت قيادة الزنج العليا الى علي بن ابان الملهبي ، يساعده يحيي بن محمد . وفي ١٧ شوال سنة ٢٥٧ ﻫ / ١٨ ايلول سنة ٨٧١ م هجموا على البصرة أثناء صلاة الجمعة من ثلاث جهات واعملوا فيها النهب والسلب والقتل ثم انسحبوا خوف الكمين . ولكنهم اعادوا الكرة يوم الاثنين وفتحوها وانتقموا من أهلها انتقاماً مريعاً وقتلوا ما يقارب ٣٠٠,٠٠٠ م ، وسبوا النساء والاطفال حتى حصل كثير منهم على عشرة ارقاء أو اكثر « وهرب الناس على وجوههم » وأحرقوا المسجد الجامع .

---

(١) Noldeke : P 158 . (٢) الطبري ١١/٢١٥٠—٢١٦٠ .
(٣) الطبري ١١/٢١٩٠ — ٢٢٠٠ .

ولما فكر علي بن ابان بالتساهل مع السعدية وأرسل وفدهم الى صاحب الزنج ولعله (كان يطمح باستمالتهم) رفض صاحب الزنج مقابلة الوفد ونحى عليا وافرد يحيي بالقيادة « لموافقة ما كان يحيي أتى من القتل اياه »(١).

لم يكن احتلال البصرة احتلالاً دائماً امراً ممكناً ، فانسحب الزنج منها ، ولذا استطاع جيش محمد بن المولد الذي أرسله الخليفة على أثر النكبة (ذو القعدة سنة ٢٥٧ ه) ان يحتل البصرة والابلة دون مقاومة تذكر . ولكن محمداً لم يكن اسعد حظا من اسلافه ، إذ بيته صاحب الزنج وانقض عليه ومزق جيشه (٢) .

وهكذا فشل قواد الخليفة في الصمود أمام أساليب صاحب الزنج المختلفة ، مما أدى الى اضعاف معنوية جيوشهم وزاد في ثقة اعدائهم .

— ٧

ثم تسلم الموفق القيادة العليا وتقدم الى البصرة مع « جيش عظيم لم يرد على الخبيث مثله » فرعب الزنج لعدده وعدته . واصطدم الجيشان في ١٢ جمادي الاول سنة ٢٥٨ ه فهزم جيش الموفق . ثم استدعى صاحب الزنج قائده علي بن ابان من الاهواز ليجمع قواه وليضرب الجيش العباسي الضربة الحاسمة . أما الموفق فقد عرج على الابلة ليلم شعث

---

(١) الطبري ١١ : ٢١٩ — ٢٢١ . (٢) الطبري ١١ : ٢٢٢

جيشه وليستعد من جديد (١) . ولكنه عندما رأى تجمع الزنج لم يرتح لمحله فانسحب الى واسط . ولكنه فشل من جديد في مقابلة الزنج . وزاد الوضع سوءاً التهام النار معسكره (٢) . وربما كان لتحرج موقفه واضطراب شئون الخلافة في سامراء ، ما دعاه الى استخلاف محمد بن المولد والعودة الى العاصمة (٢٦ ربيع الاول ٢٥٩ هـ / ١٣ كانون الثاني ٨٧٣ م) .

٨ —

ارسل صاحب الزنج جيشاً الى الاهواز بعد رجوع الموفق الى مقر الخلافة وتمكن من احتلال العاصمة مرة اخرى . وربما كان صاحب الزنج يفكر في توسيع سلطانه الا انه لم يقصد الاحتلال الدائم اذ كان يعلم انه هو وزنجه في مأمن مادام بين الادغال والقنوات . ولعل توسعه الى الاهواز والى جهات واسط لم يكن يقصد به احتلال منظم بقدر ما كان للحصول على الغنائم والمؤن وبث الرعب في قلوب اعدائه (٣) .

ثم اسندت قيادة الجيش العباسي الى القائد التركي الكبير موسى ابن بغا (وكانت اليه ولاية المشرق) فوافى البصرة في ذي القعدة سنة ٢٥٩ هـ / ايلول ٨٧٢ م فارسل فرقة الى الاهواز . ثم رجع عبدالرحمن وعسكر بيبان لمحاربة صاحب الزنج فدامت المناوشات بين الطرفين الى ان استقال موسى بن بغا من منصبه (٤) . ويظهر ان موسى جعل واسطاً

---

(١) الطبري ١١ : ٢٢٥ . (٢) الطبري ١١ : ٢٢٨ . (٣) Noldeke P. 161

(٤) الطبري ١١ : ٢٣٠ — ٢٣١

مركزاً له ، ولكنه ضجر من محاربة الزنج ، كما ان احد الثوار احتل مقاطعة فارس وطرد نائب موسى منها . فاستعفى هذا (سنة ٢٦١ هـ ٨٧٥ م) من محاربة الزنج ومن ولاية المشرق « لكثرة المتغلبين عليه وانه لا قوام له بهم » فانتقلت الولاية والقيادة لابي احمد الموفق .

استغل الزنج هذا الوضع المضطرب فعادوا الكرة على الاهواز للمرة ثالثة ودخلوها واعملوا في اهلها القتل والسبي ونهبوا ما استطاعوا عليه[1] ، حتى يقدر عدد القتلى في هذه المرة بخمسين الف[2] .

ثم هبت زوبعة على الخلافة اشغلتها فترة من الزمن ، وفسحت المجال امام الزنج ليوسعوا نفوذهم وليعيثوا في جنوب العراق ، اذ انشغل الموفق بخطر جديد وهو الخصومة بين يعقوب بن الليث الصفار وبين الخليفة ، فاسند حرب الزنج الى ابي مسرور البلخي . ولم تمض الا مدة قصيرة حتى جاء يعقوب قاصداً الاستيلاء على بغداد . فقابله الموفق عند دير العاقول (بين واسط وبغداد) ٨٧٦م-٢٦٢ هـ واسرع البلخي لنصرة الخليفة وتعزيز جيشه . فبقيت واسط مفتوحة امام الزنج . وقد تعلق مصير الخلافة بتلك الفترة . ولكن الظروف ابت الا ان ينتصر الموفق وان يمنى يعقوب بالفشل[3] .

لم ينجح الزنج في التفاهم مع الصفاريين . فقد جرت مناوشات بين

---

(١) الطبري ١١ : ٢٣٥ . (٢) ابن الجوزي ٥ : ١٩ . (٣) الطبري ١١ : ٢٣٦—٢٣٨ .

أتباع يعقوب (بعد انسحابه الى الاهواز) و بين علي بن ابان سنة٢٦٣ﻫ . كما رفض يعقوب اقتراح الزنج بالتحالف معهم لانه اعتبرهم مارقين ، ولـكن الضرورة العسكرية جعلت الطرفين يقنعان بالهدنة [١] .

توسع الزنج بقيادة سليمان بن جامع في منطقة دست ميسان والبطيحة . وقد لاقوا بعض المساعدة من بعض القبائل الساكنة في البطيحة [٢] . ودخلوا « واسطا فخلى الناس البلد وخرجوا حفاة على وجوههم ، وخربت واسط بالنار » [٣] ثم تقدموا شمالا حتى وصلوا النعمانية « فاحرقوا سوقها واكثر منازلها وسبوا » ثم وصلوا جرجرايا وصاروا على مسافة قريبة من بغداد ولا غرابة ان ترك اهل السواد قراهم والتجؤا الى بغداد تخلصا من أذى الزنج [٤] .

٩ —

وتحسن وضع الموفق سنة ٢٦٥ ﻫ إذ توفي يعقوب وعقد خلفه الصلح معه بعد أن بذل الموفق في سبيل ذلك جهوداً كثيرة [٥] .

تفرغ الموفق حينئذ لحرب الزنج . فحشد جيوشه وركز قواه لضربهم الضربة القاضية . كما ان خبرته بحرب الزنج ، والتجارب التي استفادها من فشل الجيوش العباسية المتكرر جعلته أبعد بصيرة بحربهم ممن تقدمه . فادرك ضرورة التأني والتروي وأخذ يسعى لبلوغ غايته بهدوء

---

(١) الطبري ١١ : ٢٤٦ . (٢) الطبري ١١ ٢٣٣—٢٤٠ P. 162 Nöldeke . (٣) ابن الجوزي ٥ : ٤٥ . (٤) الطبري ١١ : ٢٥٣—٢٥٤ .
(٥) الطبري ١١ : ٢٥٤ .

وتؤدة . فلا يخاطر إلا قليلا ، بل لا يخط خطوة لا يتأكد منها . ومنذ هذا الحين انعكت الآية وصارت الامور تجري في صالح العباسيين [١] .

أرسل الموفق (بعد دخول الزنج واسطا) ابنه ابا العباس (المعتضد فيما بعد) في ربيع الثاني ٢٦٦ ﻫ لحربهم بعد ان استعرض جيشه واسطوله قرب بغداد . وكانت سفن الاسطول متنوعة ، فبعضها كبار تستعمل حصوناً أو للنقل وبعضها صغار تسع الواحدة ٢٠ـ٤٠ رجلا كانت اعدت للهجوم في الدرجة الاولى . وبلغ عدد جيشه رجالا وفرسانا « عشرة آلاف رجل في أحسن زي وأكمل عدة » .

ولما سمع الزنج بمقدمه غلب على اذهانهم انه فتى غر « لم تطل ممارسته للحروب وتدريبه عليها » (كان عمره ٢٣ سنة) فقرروا حشد اكبر قواهم لصدمه بقوة ترجعه على اعقابه . ولكن ابا العباس اظهر من المقدرة والبراعة ما مكنه من فل جيش سليمان بن جامع وتمزيقه [٢] .

ثم فكر ابو العباس ببناء معسكر لجيشه يأمن فيه شر المباغتة فاختار (العمر) « وهو على فرسخ من واسط » وقال « اجعل معسكري اسفل واسط ليأمن من قومة الزنج .... واعرض.... عن مشاورة اصحابه واستماع شيء من آرائهم » [٣] .

ولم سليمان شعث جيشه واتته نجدات جديدة . ثم اصطدم بابي العباس فاندحر وولى هارباً [٤] .

---

(١) Noldeke P. 164 . (٢) الطبري ١١ : ٢٦٠—٢٦١ .
(٣) الطبري ١١ : ٢٦١—٢٦٢ (٤) الطبري ١١ : ٢٦٢ .

وأظهر ابو العباس الى حنكته في القيادة جرأة وشجاعة . فكان يتعرف المواقف والممرات والمسالك بنفسه ويهتم كثيراً بالاستطلاع [١] واظهر بعد نظر في معالجة الامور . فلما شقت فرقة من الزنج (في عبدسى) استبقى رئيسها وضمه الى قواده [٢] . وهذا أول تطبيق لسياسة جديدة كان لها نجاح كبير في اجتذاب قواد الزنج والثوار وجنودهم . وكلما تحرج وضع صاحب الزنج ، ازداد استئمان اصحابه من الموفق ، مفضلين أمانه وهباته على تحمل الاخطار ، بينما كان هذا يظهرهم بالخلع على مرأى من اصحابهم ليطمعهم وليفت في اعضادهم ، حتى اضطر صاحب الزنج في الأخير الى اتخاذ تدابير فعالة لمنع تسلل اتباعه الى الموفق .

لاحظ صاحب الزنج قوة ابي العباس وكثرة جيوشه ، فارسل الى علي بن ابان ان يترك الاهواز ويصير بجميع من معه الى ناحية سليمان بن جامع ليجتمعا على حرب الجيش العباسي . فلما سمع الموفق بذلك توجه (صفر سنة ٢٦٧هـ/ تشرين الأول ٨٨٠ م) الى ساحة القتال بجيش كبير وتراجع ابو العباس الى مقره بجوار واسط لينتظر والده [٣] .

سار الموفق وابنه لمهاجمة حصن الزنج الشمالي (المدينة المنيعة) الذي بنوه قرب واسط . فهزم جيشهم في ٨ ربيع الثاني واحتل الحصن واستنقذ (٥٠٠٠) أسيرة مسلمة . وهكذا صار تحرير الأسيرات المسلمات يتكرر

(١) الطبري ١١ : ٢٦٣—٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ (٢) الطبري ١١ : ٢٦٥ (٣) الطبري ١١ : ٢٦٦ .

حتى نهاية الحرب . ثم « اذن للناس ... في أخذ ماكان فيها اجمع ، وأمر بهدم سورها وطم خندقها واحراق ما كان بقي فيها من السفن »[١] .

ثم أخذالموفق يستعد لضرب حصن الزنج الثاني (المدينة المنصورة) بجوار (طهيثا) وكان الزنج قد حصنوها بخمسة خنادق ، وجعلوا أمام كل خندق منها سوراً يمتنعون به »[٢] . فأمر باصلاح سفن الجسور ليحدرها معه واستكثر من العمال والآلات التي يسد بها الانهار ويصلح بها الطرق للخيل[٣] . ولعل من المفيد ان نذكر ان الموفق كان يهتم كثيراً في كل تقدم يقوم به بضمان مواصلاته الخلفية . وهذا ولا شك يتطلب كثيراً من الهندسة . فكان المهندسون (المدنيون) يلعبون دوراً هاماً في هذه الحرب[٤] .

وفي ٢٧ ربيع الثاني دخل العباسيون طهيثا ، وأجلوا الزنج عنها « وافلت سليمان بن جامع في نفر من اصحابه » كما « استنقذ الموفق من نساء اهل واسط وصبيانهم ومما اتصل بذلك من القرى ونواحي الكوفة زهاء ١٠،٠٠٠ ... وحملوا الى واسط ودفعوا الى اهلهم[٥] » . وأمر الموفق بهدم سورها وطم خنادقها ، كما أمر بتتبع الزنج اللاجئين الى الآجام ، والعفو عنهم واكرامهم بدل التنكيل بهم « لما دبر من استمالتهم وصرفهم عن طاعة صاحبهم » وأرسل فرقه لتتبع سليمان « والهراب معه »

---

(١) الطبري ١١ : ٢٦٧ — ٢٦٨ • (٢) الطبري ١١ : ٢٧١ •
(٣) الطبري ١١ : ٢٦٩ • (٤) Nöldeke P. 170-171 • (٥) الطبري ١١ : ٢٧١ •

وان يستمر في طلبهم حتى يوافي دجلة العوراء ، ثم امر « بفتح السكور التي كان الفاسق احدثها ايقطع بها الشذا (القوارب الحربية) عن دجلة فيما بينه و بين النهر المعروف بابي الخصيب »[١]. وقد كان انشاء السدود في الانهار والقنوات من اساليب الزنج المشهورة لمنع سفن اعدائهم من المرور ولعرقلة حركات جيوشهم .

ثم خلف الموفق ابنه ابا العباس في واسط ، وسار الى الاهواز لينقذ اهلها من المهلبي. أما صاحب الزنج فاضطرب لماحل بجماعته وكتب الى المهلبي والى بهبوذ بن عبد الوهاب (واليه يومئذ ولاية مابين الاهواز وفارس) بالقدوم وذلك حذراً من هجوم الموفق على مدينته[٢].

و بعد ان وطد الموفق الوضع في الاهواز وجمع الذخائر والمؤن دعا ابنه وقائديه في منطقة البطيحة الى نهر المبارك . فاجتمع كلهم هناك في ١٥ رجب سنة ٢٦٧ ﻫ / ١٨ شباط ٨٨٦[٣].

— ١٠

ومنذ هذا الوقت اقتصر الزنج على مدينتهم «المختارة» وأصبحت الحرب تدور حولها حتى انتهت بتدميرها وتمزيق شمل الزنج.

بدأت المناوشات بحملة استطلاعية قام بها ابو العباس. ومما يذكر ان أحد قواد الزنج (اسمه منتاب) استأمن اثناء هذه الحملة مع جماعة من

---

(١) الطبري ١١ : ٢٧١ (٢) الطبري ١١ : ٢٧٢ — ٢٧٣

(٣) الطبري ١١ : ٢٧٤ .

اصحابه « فكان ذلك مما كسر الخبيث واصحابه »[(١)] وهذا أول قائد استأمن .

ثم كتب الموفق (مراعاة التعاليم الاسلامية) كتاباً الى صاحب الزنج يدعوه فيه الى التوبة والكف عن القتال « ويعلمه ان التوبة له مبسوطة والأمان له موجود ، فان هو نزع عما هو عليه من الامور التي يسخطها الله ودخل في جماعة المسلمين محا ذلك ماسلف من عظيم جرائمه وكان له به الحظ الجزيل في دنياه »[(٢)] فلم يزده الكتاب الا نفوراً واصراراً ولعله كان يأمل ان تحصل فتن تشغل عدوه .

قضى الموفق خمسة ايام في الاستعداد ، وفي اليوم السادس سار الى المختاره « فاشرف عليها وتأملها فرأى من منعتها وحصانتها بالحصون والخنادق المحيطة بها وما عور من الطرق المؤدية اليها واعد من المجانيق والعرادات والقسي الناوكية وسائر الآلات على سورها ما لم ير مثله ممن تقدم من منازعى السلطان . ورأى من كثرة عدد مقاتلتهم واجتماعهم ما استغلط أمره »[(٣)] . ولم يكتف الزنج بهذه التحصينات بل استمروا في انشاء وسائل دفاع جديدة من انواع مختلفة طيلة فترة الحصار حتى كانوا يلجأون الى بثق القنوات احياناً[(٤)] . وكان الزنج (٣٠٠،٠٠٠) أكثر عدداً من جيش الموفق (٥٠،٠٠٠) ولكن

---

(١) الطبري ١١ : ٢٧٥ . (٢) الطبري ١١ : ٧٥ — ٢٧٦ (٣) الطبري ١١ : ٢٧٦ . (٤) Noldeke p: 167 .

تجهيزات الموفق كانت أحسن ، وتموينه انظم ، وكان جيشه يزداد باستمرار بانضمام فرق جديدة اليه .

وبعد مناوشات اولية استأمن اصحاب سميريتين ، فاكرمهم الموفق وخلع عليهم « وأمر بادنائهم من الموضع الذى يراهم فيه نظراؤهم فكان ذلك من انجع المكايد التي كيد بها الفاسق ، فلما رأى الباقون ما صار اليه اصحابهم من العفو عنهم والاحسان اليهم رغبوا في الأمان وتنافسوا فيه [(١)] » . وتوالت حوادث الاستئمان كثيراً . وكان لها أثر سيء على وضع الزنج ، إذ تقوى جيش عدوهم على حسابهم وليس ذلك لقوة المستأمنين العسكرية فقط بل لاطلاعهم على وضع الثوار ومعرفتهم الدقيقة بمنطقة الحرب وخططهم العسكرية . وهذا الأثر المعنوي كان له المفعول القوي على نفوس الباقين ، وعلى علاقة صاحب الزنج باتباعه ، حتى صار يشك في ولائهم [(٢)] .

لاحظ الموفق حصانة المختارة ، الا انه لم يفكر ان يأخذها بهجوم مفاجيء بل قرر المطاولة . فانتقل يوم ١٥ شعبان سنة ٢٦٧ هـ الى معسكر جديد بازاء المختارة وانشأ هناك المدنية الموفقية ، وأخذ يقوي نفسه . ويصف الطبري استعداداته بتفصيل فيقول : « واحتاج الى الاستكثار من الشذا وما يحارب به في الماء ، فأمر بانفاذ الرسل في حمل الميرة في البر والبحر وادرارها الى معسكره بالمدينة التي سماها الموفقية . وكتب

(١) الطبري ١١ : ٢٧٦ (٢) Noldeke p. 167

الى عماله في النواحي في حمل اموال الى بيت ماله في هذه المدينة. وأنفذ رسولا الى (سيراف) و(جنابا) في بناء الشذا والاستكثار منها لما احتاج اليه من ترتيبها في المواضع التي يقطع بها المير عن الخائن واشياعه، وأمر بالكتابة الى عماله في النواحي بأنفاذ كل من يصلح للاثبات في الديوان ويرغب في ذلك »[1]. ومن هذا يتضح انه جعل لمشكلة التموين اهمية كبرى في خطته الحربية.

ولقد نجح في قضية التموين فعلا، اذ « وردت المير (بعد شهر او نحوه) متتابعة يتلو بعضها بعضاً، وجهز التجار صنوف التجارات والامتعة وحملوها الى المدينة الموفقية، واتخذت بها الاسواق وكثر بها التجار والمتجهزون من كل بلد » وكذلك فتح طريق التجارة البحرية فوردت المراكب بعد ان قطعها الزنج « قبل ذلك بأكثر من عشر سنين » واتخذ الموفق دوراً لضرب الدراهم والدنانير[2].

وكما اعتنى الموفق بتأمين تموينه، اهتم اهتماماً خاصاً بفرض حصار اقتصادي على الزنج لانه رأى ذلك انجع طريق للقضاء عليهم[3]. فقطع سبل الاتصال بينهم وبين الخارج، ولما سمع بورود سمك من البطيحة، وبوصول اعراب من البادية الى معسكرهم بحجة شراء التمر، منع جلب السمك منعاً باتاً وانشأ سوقاً خاصاً للاعراب في البصرة يستطيعون ان يأخذوا منها ما يشاؤن من التمر. وشدد الحصار في السنة التالية

(١) الطبري ١١ : ٢٧٩ (٢) الطبري ١١ : ٢٧٨ — ٢٧٩
(٣) الطبري ١١ : ٢٨٠

في البر والبحر والنهر « فلم يكن للزنج سبيل الى بر ولا بحر ، فضاقت عليهم المذاهب واشتد عليهم الحصار »[١] .

وحاول صاحب الزنج اختراق الحصار الاقتصادي وتهديد تموين الموفق فأرسل حملة (من ١٠٫٠٠٠) الى جهة البطيحة لأخذ ما وجدوا من طعام وميرة وليقطع الميرة الواردة من مدينة السلام و واسط عن الموفق ولأنه « انقطعت عن الخبيث مواد الميرة وسدت عليه » فأسرع الموفق بأرسال فرقة مزقتها[٢] . وهكذا فشلت المحاولة الهامة الوحيدة لرفع الحصار الاقتصادي .

وقد ظهر اثر الحصار الاقتصادي على الزنج بوضوح . فقد ازداد استئمان الزنج هربا من سوء الوضع المعاشي . فما ان جاء ذوالحجة سنة ٢٦٧هـ حتى « جعل الزنج يهربون في كل وجه ويخرجون الى ابي احمد في الامان » . ولما سد صاحب الزنج المسالك على اتباعه ووكل بفوهة الانهار ليمنع خروج السفن المستأمنة هرب بعض الزنج خلال المعارك الى جيش الموفق[٣] .

فافتضحت خطط الزنج لتبييت عسكر الموفق أكثر من مرة ، لكثرة هذا الانضمام بل لقد صرنا نسمع بمباغتة فرقهم وتشتيتها[٤] . واضطر آخرون الى ان « تفرقوا في القرى والانهار النائية عن عسكرهم

---

(١) الطبري ١١ : ٢٩١ . (٢) الطبري ١١ : ٢٨٤ . (٣) الطبري ١١ : ٢٨٤ — ١٨٥ . (٤) الطبري ١١ : ٢٨١ — ٢٨٢ .

في طلب القوت » فأمر الموفق جماعة من قواد غلمانه السودان بمطاردتهم » [١] .

وفي ذي القعدة سنة ٢٦٧ هـ / تموز ٨٨١ م قام الموفق بهجوم على المختارة ونجح اصحابه في دخولها ثم تراجعوا عنها ليلا . [٢] وفي ربيع الثاني سنة ٢٦٨هـ هاجم الموفق المختارة وأمر اصحابه بهدم السور وان لا يدخلوا المدينة . فلما خالفوا اصيبوا بخسارة فادحة . [٣] ولنلاحظ ان هذه الهجمات كان يقصد منها في الدرجة الاولى تخريب الجسور والقناطر وأزالة وسائل الدفاع ، وكانت النار اليونانية والرصاص المذاب تستعملان في الهجوم ، كما ان سفن الحريق كانت تستعمل لتخريب القناطر . [٤]

وتقدم الموفق بهدم اسوار المختارة بالتدريج حتى اضعف تحصينها ، ولكن الحوادث اسعفتها موقتاً . اذ اصيب الموفق (٢٥ جمادي الاول سنة ٢٦٩هـ) بسهم في صدره فأعاقه عن الاشراف على القتال حتى شفي في شعبان [٥] . ثم شغل الموفق بمشكلة المعتمد الذي هرب في ٤ شعبان سنة ٢٦٩هـ/ ٨٨٢ م من سامراء قاصداً اللجوء الى ابن طولون . ولكن اسحق بن كنداج عامل الموفق على الموصل ، قبض عليه وارجعه الى سامراء . وبذلك تخلص الموفق من هذه المشكلة .

وسرعان ما استغل صاحب الزنج هذه الفرصة لتقوية وسائل

(١) الطبري ١١ : ٢٩٢ — ٢٩٣ . (٢) الطبري ١١ : ٢٨٦ . (٣) الطبري ١١: ٢٨٧ . (٤) Noldeke . p. 165 . (٥) الطبري ١١ : ٢٩٩ .

دفاعه و «اعاد بناء بعض الثلم التي ثلمت في السور»[١].

ثم رجع الموفق الى متابعة القتال. ففي ١٩ شعبان سنة ٢٦٩هـ/شباط ٨٨٣م هاجمت شذواته وسميرياته (مراكب حربية) المختارة حتى وصلت قصر صاحب الزنج فاحرقته وخرج هارباً[٢]. ثم اعتل الموفق «بوجع المفاصل» فاعاقه عن متابعة القتال حوالي شهرين فاستفاد صاحب الزنج من ذلك في بناء قنطرة وجسرين على نهر أبي الخصيب ولكن الموفق دمرها بعد شفائه[٣].

وهاجم الموفق جيش الزنج في غرب نهر ابي الخصيب فمزقه واحرق الجسر الثاني على النهر[٤]. وأفلت ابن صاحب الزنج (انكلاى) وسليمان ابن جامع الى الجانب الشرقي.

لقد وصلت حوادث الاستئمان الآن الى حد بعيد. ففي ٢٦٨هـ قتل صاحب الزنج «ابن ملك الزنج» لما عرف انه يريد اللحاق بالموفق[٥] والآن (سنة ٢٦٩) تقدم (انكلاي) نفسه يطلب الامان. فأجابه الموفق الى كل ما سأل، ولكن والده عذله وثناه عن رأيه[٦]. ثم استأمن الشعراني- قائد مؤخرة جيش صاحب الزنج- (تردد الموفق في منحه ذلك لفظاعة اعماله فتنكر الزنج فقبل امانة) وكان التحاق الشعراني بجيش الموفق ضربة لجيش صاحب الزنج[٧]. ولما عين صاحب الزنج

(١) الطبري ١١: ٣٠١. (٢) الطبري ١١: ٣٠٢ — ٣٠٣.
(٣) الطبري ١١: ٣٠٥ — ٣٠٦. (٤) الطبري ١١: ٣١٢—٣١٣
(٥) ١١: ٢٩٥. (٦) الطبري ١١: ٣١٣. (٧) الطبري ١١: ٣١٤.

محله شبل بن سالم استأمن ايضاً بدوره . « وكان شبل هـذا من عدد الخبيث وقدماء اصحابه وذوي الغناء والبلاء في نصرته »[١].

واخذ الموفق يكثر من ارسال الفرق لالقاء الرعب في نفوس الزنج وللاطلاع على دقائق مسالـكهم . ثم اقتنع بان الوقت قد حان لشن الهجوم الاخير . فجمع المستأمنة من الزنج وذكرهم بفضله واحسانه « وانهم من الخبرة بمسالك عسكر الخبيث ومضايق طرق مدينته والمعاقل التي اعدها للهرب اليها على ما ليس عليه غيرهم . فهم احرياء ان يمحضوه نصيحتهم ويجتهدوا في الولوج على الخبيث والتوغل اليه في حصونه حتى يمكنهم الله منه ومن اتباعه » فشكروه واقسموا له يمين الاخلاص[٢].

انتقل صاحب الزنج الى الجانب الشرقي من نهر ابي الخصيب دون ان يهمل الجانب الغربي . وجمع الموفق السفن من البطيحة ودجلة . ولما اتم استعداداته هجم في ٧ ذي القعدة من اماكن متعددة على شرق نهر ابي الخصيب وغربه . وكان عدد جيشه خمسين الفاً « من الرجالة والفرسان في احسن زي واكمل هيئة »[٣]. فدخلوا المدينة المختارة واستولوا على قصر صاحب الزنج ونهبوه وسبوا أهله . فانتقل الى قلعة اخرى (لعلها في نفس المدينة) وهي قصر المهلبي[٤]. ثم خطا آخر خطوة في ضرب نمو بن صاحب الزنج ، اذ احرق بيادره « وكان احراق ذلك من اقوى الاشياء

(١) الطبري ١١ : ٣١٤ (٢) الطبري ١١ : ٣١٤—٣١٥ (٣) الطبري ١١ : ٣١٧ (٤) الطبري ١١ : ٣١٧

على ادخال الضعف على الفاسق واصحابه اذ لم يكن له معول في قوتهم غيره [١] .

ووردت للموفق هـذا الوقت نجدات جديـدة . فقدم في ٢ ذى الحجة عشرة آلاف بين فارس وراجل من سامراء . كما ان لؤلؤ قائد شمال سورية انفصل عن سيده أحمد بن طولون وفاوض الموفق في الانضمام اليه وجاء « بجيش عظيم من الفراغنة والاتراك والروم والبربر والسودان وغيرهم » [٢] .

واستمرت الأموال تتوارد على الموفق، وجاءه كثير من المتطوعة للجهاد ، مثل عامل ايذج (أحمد بن دينار) في الاهواز ومعه جمع كثير من الرجال والفرسان والفي رجل من البحرين وبعض المتطوعة من فارس وبلدان اخرى [٣] .

وكان الهجوم العام على شرق ابي الخصيب وغربه وفي النهر يوم ٢٧ محرم سنة ٢٧٠ هـ / ٥ آب ٨٨٣ . وكان عدد الرجالة حوالي ٥٠٫٠٠٠ والفرسان ٢٫٠٠٠ « سوى من عبر من المطوعة وأهل العسكر من لا ديوان له » ومع ان الموفق ازال السكر الذي أحدثه الزنج اخيراً في نهر ابي الخصيب [٤] . إلا أن ضيق المواضع وكثرة الخنادق والانهار بقيت عائقاً أمام عسكر الموفق حتى في هذا الهجوم .

---

(١) الطبري ١١ : ٣١٨ (٢) الطبري ١١ : ٣١٨ — ٣١٩
Noldeke 172 (٣) الطبري ١١ : ٣٢١ (٤) الطبري ١١ : ٣١٨ — ٣١٩

وعلى كل حال فقد مزقت قوة الزنج وهرب رئيسهم وابنه وسليمان[1] . ثم اعاد الموفق الكرة يوم ٢ صفر ٢٧٠هـ/ ١١ آب ٨٨٣م . فحطم البقية من عصاباتهم وقتل رئيسهم وأسر سليمان بن جامع وعلي بن ابان المهلبي فصلبا . ولم يبق إلا شرذمة استعصت في ادغال البصرة وعاثت فيها ثم اضطرت الى طلب الأمان[2]

وأصدر الموفق منشوراً الى العالم الاسلامي يبشرهم بانتهاء الخطر ويدعو « أهل البصرة والابلة وكور دجلة وأهل الاهواز وكورها وأهل واسط وما حولها » الرجوع الى مدنهم المهجورة[3] .

وهكذا انتهت حركة الزنج بعد ان تركت وراءها آثاراً فضيعة من التدمير والتخريب . ولعل أهم مافيها الروح الطبقية التي اتصفت بها ، والدور الكبير الذي لعبته الحرب الاقتصادية خلالها ، وأهمية الهندسة المدنية في اعمالها ، وانكشاف ضعف الخلافة وقواها الكامنة في وقت واحد .

ثبت المراجع

Noldeke = Sketches From Eastern History London 1892.
Massignon = Art. "Zanj" E. I Vol. IV
DURI = Studies on the Economic Life of Mesopotamia in the 10th century.

---

(١) الطبري ١١ : ٣٢٢ (٢) الطبري ١١ : ٣٢٦ . (٣) الطبري ١١ : ٣٢٦

الطبري — تاريخ الرسل والملوك (المطبعة الحسينية) ج ١١

المسعودي — مروج الذهب ج ٤

اليعقوبي — التاريخ (النجف) ج ٣

ابن الجوزي — المنتظم ج ٥

السيوطي — تاريخ الخلفاء (القاهرة ١٣٥١ ﻫ)

الامارات الفارسية

مقدمة

لم ينس المأمون انه مدين للفرس بانتصاره على اخيه الأمين ، فاعتمد عليهم في ادارة الولايات الشرقية أكثر من اسلافه . ولكن سياسة بني سهل أكدت له شكوك اسلافه في ولاء الارستقراطية الفارسية فنكل بهم و بذلك فشلت آخر محاولة للتعاون الوثيق بين العباسيين و بين ارستقراطية الفرس ، وأصبح كل منهم يخشى الآخر . ثم ان رجوع المأمون الى بغداد واقتفاءه خطة اسلافه خيب أمل جماهير الفرس في احياء حكم العدل الذي وعد به العباسيون . ولذلك حصل بعض الوئام بين مصلحة الارستقراطية الفارسية ومصلحة الجماهير ضد السيادة العباسية . ولعل هذه الأوضاع تلقي بعض الضوء على ظهور الامارات الفارسية (كالطاهرية والصفارية والسامانية) في القرن الثالث للهجرة . ومع ان من الممكن اعتبارها الثمرة الأولى للوعي الفارسي، إلا انها لم تتخذ سياسية قومية كما سنرى .

آ — الطاهريون

طاهر بن الحسين ٢٠٥ — ٢٠٧ هـ/ ٨٢٠ — ٨٢٢ م

طلحة بن طاهر ٢٠٧ — ٢١٣ هـ/ ٨٢٢ — ٨٢٨ م

عبدالله بن طاهر ٢١٣ — ٢٣٠ هـ/ ٨٢٨ — ٨٤٤ م
طاهر بن عبدالله ٢٣٠ — ٢٤٨ هـ/ ٨٤٤ — ٨٦٢ م
محمد بن طاهر ٢٤٨ — ٢٥٩ هـ/ ٨٦٢ — ٨٧٢ م

١ —

كان لبني طاهر نفوذ محلي في خراسان قبل خلافة المأمون . فقد عين مصعب جد طاهر لولاية بوشنج (في منطقة هرات) ثم خلفه ابنه الحسين (المتوفي سنة ١٩٩ هـ| ٨١٤ — ٨١٥ م) وتلاه حفيده طاهر في الولاية.

ولعب طاهر وابنه عبدالله دوراً كبيراً في خلافة المأمون . فهو مدين لهما بالدرجة الاولى في انتصاره على الأمين وفي تهدئة مملكته المضطربة . ومع ان المأمون عرف لهما ذلك وكافأهما بالمناصب الرفيعة ، إلا انه حاول ابعادهما عن خراسان لانه خشي نفوذهما هناك وخاف طموح طاهر . ولكن طاهراً لم يقنع بتعيينه والياً على الجزيرة و برئاسة شرطة بغداد والاشراف على المعاون في السواد بل كان يتطلع الى خراسان ، وقد نجح بالتآمر مع الوزير أحمد بن ابي خالد في الحصول على رغبته . وتظهر قلة ثقة الخليفة بطاهر من ان التوالية لم تتم إلا بضمان شخصي من الوزير بحسن سلوكه .

وتحققت شكوك المأمون في طاهر إذ أسقط هذا اسم الخليفة من الخطبة سنة ٢٠٧هـ/ ٨٢٢ م ، معلنا بذلك الانفصال عن بغداد ولكنه

توفي فجأة . وربما كان للمأمون أو لوزيره يد في ذلك . ثم عين المأمون طلحة ابن طاهر محل والده . ولعل ذلك كان بدافع رغبة الخليفة في ازالة الشكوك التي حامت حول وفاة طاهر الفجائية . ولكن التولية بحد ذاتها تدل على النفوذ المحلي القوي الذي كان لآل طاهر في خراسان .

أما تولية عبدالله بن طاهر بعد اخيه ، فربما كانت نتيجة لثقة المأمون بقابلياته وباخلاصه . ولكنها اكسبت العائلة صفة وراثية في الحكم ونفوذاً وسلطة محلية لم يتمتع بها أحد قبلهم . وفي خلال حكم عبدالله وصلت العائلة أوج قوتها وثبتت اصولها لدرجة لم يعد معها ممكننا نقلهم لأية ولاية اخرى . حتى ان المعتصم رغم كرهه لعبدالله لم يجرأ على عزله بل اكتفى بتشجيع الخطط السرية لقتله . ومن الجهة الاخرى كان عبدالله اكيس من والده فلم يخن الثقة عندما اطلع على مؤامرة المعتصم ، ولكنه كان حازماً يعرف انه آمن ما دام في بلاده ولذلك لم يذهب الى الحج رغم تدينه (١) .

ولما توفي عبدالله، فكر الواثق بتولية اسحق بن ابراهيم المصعبي على خراسان ، ولكنه عدل عن ذلك قبل سفر الوالي الجديد وعين طاهراً بن عبدالله محل والده . واخيراً ولى محمد بن طاهر (وكان يميل للهو والمجون فخسر امارته و بلاده ليعقوب الصفار سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٢ م .

(١) فكر مرة بالحج واستشار كاتبه فقال له « لا ايها الامير انت احزم من ان تقوم بعمل غير متزن كهذا » فوافقه ، اوضح وانه انما اراد ان يختبره .

٢ —

كان الطاهريون من الارستقراطية وبنفس الوقت كانوا الممثلين الرسميين لسلطان العرب (نظريا على الأقل) فلم يكونوا يمثلون الميول القومية أو الشعبية كما كان ابو مسلم والدعاة الآخرون. ولعل خير وصف لحكمهم انه « الاستبداد المهذب ». ولكنهم في محاولتهم لانشاء حكم مستقر، ولاعادة السلم للبلاد، لم يغفلوا العامة، بل اتخذوا موقف الحماة لها ضد ظلم الطبقات الارستقراطية، فشجعوا التعليم وعنوا بالامور الزراعية. كما انهم قاوموا عناصر الاضطراب والثورة بين الطبقات العامة.

وتظهر هذه الأتجاهات جلية في حكم عبدالله بن طاهر الذي اهتم بشؤون الزراع كثيراً. فعندما لاحظ كثرة الخصومات بينهم على توزيع المياه، دعا اليه جماعة من الفقهاء وطلب اليهم شرح الاسس الفقهية لمشاكل الري. فوضعوا له كتاب « القني » الذي صار دليل الزراع فيما بعد. كما انه اوصى عماله بحفظ مصالح الفلاحين لان « الله يطعمنا بايديهم ويرحمنا بدعائهم ويمنع الاساءة اليهم ». واهتم بنشر التعليم بين الطبقات الواطئه، مما يدل على مدى عطفه عليهم.

٣ —

أما صلات الطاهريين ببني العباس، فكانت حسنة على العموم وكانوا يدفعون جزية سنوية الى الخلفاء بصورة منتظمة[1] وبقوا انصاراً

(١) بلغ مقدار الجزية السنوية التي يدفعها الطاهريون (٣٨،٠٠٠،٠٠٠) درهم سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م من وارد (٤٨،٠٠٠،٠٠٠) على قول قدامة. انظر ابن خرداذبة ايضاً ص ٣٨ وقدامه ص ٢٥٠ واليعقوبي — البلدان.

مخلصين للعباسيين بحكم ظروفهم ومصالحهم . فقد حكموا (حكماً مستقلا عملياً) أهم الولايات (كرمان ، الري ، خراسان ، ما وراء النهر) هذا بالاضافة الى ان شرطة بغداد وولايتها كانت بيدهم[١] . وقد رفع المنصب الأخير من قدرهم كثيراً حتى ان محمداً لعب دوراً هاماً في النزاع بين المستعين والمعتز (٢٥١ هـ / ٨٥٦ م) . وقد وافق دور قوتهم وسيطرتهم (زمن عبدالله بن طاهر) عهد قوة الخلافة ، كما كان دور ضعفهم وانحطاطهم موافقاً لدور تضعضع الخلافة .

وقد حملت الظروف بني طاهر على التعاون مع الخلافة احياناً فلما ادعى محمد بن القاسم العلوي الامامة في خراسان ، طارده عبد الله وأسره وأرسله الى المعتصم سنة ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م . ولما ثار المازيار بن قارن في طبرستان تعاون المعتصم وعبدالله بن طاهر على ضربه . ولا ننسى ان كون الطاهريين سنة جعل مصالحهم الدينية تتفق ومصالح العباسيين . ففي مقاومتهم المستمرة للعلويين في طبرستان وللخوارج في سجستان كانوا يخدمون القضية العباسية وقضيتهم في آن واحد لأن القضاء على حركات الدينية في بلادهم كان ضرورة سياسية . هذا الى ان العباسيين كانوا يقدرون خدمات الطاهريين ويقربونهم . فنجدهم على الأكثر يأخذون جانبهم في النزاع مع الصفاريين ويبقون شرطة بغداد في ايديهم (على الاغلب) حتى سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م .

(٢) كان محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد بين ٢٣٧ ، ٢٥٣ .

وفي الاخير نقول ان الطـاهريين رغم تمتعهم بحكم ولاياتهم بشكل وراثي واستقرار مركزهم الا انه لا يمكن اعتبارهم مستقلين تماماً عن بغداد .

أهم المراجع

Barthold - Turkestan p. 207 - 9, p. 210-13.
Siddiqi - Caliphate and kingship in Medieval persia. Islamic culture 1935 p. 571 et seq.
E.I. - Tahirids (Barthold); Tahir b. al-Husain (Barthold). Abdullah b. Tahir(Zittersteen)
Lane-poole - Muhammadan Dynasties p. 128.

أهم المصادر :

الطبري . ابن خلكان . ابن خرداذبه . قدامه . اليعقوبي ابن طيفور .

ب — الصفاريون

١ —

كانت سجستان ولاية تابعة للطاهريين ، وكان سكانها شديدي الشكيمة مما ساعد على انتشار المذهب الخارجي بينهم . ولم يستطع الطاهريون اخضاعهم بل على العكس ازدادت فعالياتهم بضعف هؤلاء . وأصبح الخوارج مصدراً للفوضى والاضطراب في البلاد . فتشكلت فرق من المتطوعة لحماية السكان من عبثهم ومن بين صفوف المتطوعة هذه ظهرت السلالة الصفارية .

— ٢

كان يعقوب بن الليث (بن معدل) واخوته من بلدة (قرنين) على فرسخ من (زرنج) عاصمة سجستان . وكان يعقوب يشتغل عند أحد الصفارين كصانع ليس غير وبأجرة قدرها (١٥) درهماً في الشهر . اما اخوه عمرو فكان نجاراً او مكاراً . ثم انخرطوا في سلك المتطوعة واستطاعوا جمع بعض الاتباع حولهم وحسبك أن تعلم انهم اشتركوا في احدى فرق « الغزاة » وعلى رأسها درهم بن نصر بن صالح .

وقد اقلق الغزاة والي سجستان حتى اضطر للتخلي عنها . فصار درهم الحاكم الحقيقي ، وعين يعقوب حاكماً (لبست) ، ولكن مآثر هذا وشخصيته غطت على درهم بنظر الجيش ، فتخلى له عن الرئاسة (الاحد ٦ محرم ٢٤٧ هـ/٢٢ مارت ٨٦١ م) .

وطد يعقوب نفوذه في سجستان واخضع الخوارج ونشر الامن والسلام في البلاد لضمان المواصلات والاستقرار . ثم بسط نفوذه على وادي كابل والسند ومكران وأخيراً افتتح (سنة ٢٥٣هـ/٨٦٧م) هيرات وبوشنج . ثم استولى على كرمان سنة ٢٥٦هـ/٨٦٩ م وقد كان المعتز اعطاها له ولوالي فارس (علي بن حسن) في نفس الوقت ليوقع الخصومة بينهما . فدحر يعقوب خصمه وأخذ فارس (موقتاً) بالاضافة الى كرمان . وارسل الى الخليفة بعض الهدايا مؤكداً ولاءه .

وفي مارت سنة ٢٥٧ هـ | ٨٧١م ارسل يعقوب وفداً الى الخليفة

مع بعض الهدايا للمفاوضة على بعض الولايات . وكان الموفق يود تشجيع يعقوب للتوسع شرقاً مستهدفاً ابعاده عن جواره . فلما اراد يعقوب سنة ٨٧١ م فتح فارس من جديد وصلته رسالة بتوليته على بلخ والاراضي الشرقية حتى الهند بالاضافة الى كرمان وسجستان . وفعلا ضم يعقوب (ان لم يكن فعل ذلك من قبل) ولاية بلخ واستولى على غزنه وكابل . ولما لاحظ ضعف محمد بن طاهر ، قرر فتح خراسان ، ولم يعدم حجة لذلك . إذادعى ان محمداً بن طاهر الجأ احداعدائه . فدخل نيسابور في ٢ آب سنة ٨٧٣م/ ٢٦٠ هـ واسر محمداً بن طاهر .

ويعطي غرديزي رواية ممتعه عن المفاوضة بين محمد وبين يعقوب قبل فتح نيسابور ، اذ كتب محمدالى خصمه، ان اتيت بعهد من الخليفة فاظهره لاسلم البلاد اليك ، والا فارجع . فانتضى يعقوب سيفه من تحت سجادته وقال : « هذا عهدي وهذا لوائي » . ثم كتب للخليفة مبيناً انه انما فعل ذلك لطلب الخراسانيين ، لانهم ملوا الفوضى الناتجة عن ضعف محمد . وكرمز لولائه للخلافة ارسل رأس خارجي تمكن مدة ثلاثين سنة ان يدعوانفسه امير المؤمنين (بجوار هيرات) . وفي السنة التالية دحر الحسن بن زيد امير طبرستان قرب (سارى) ولكنه لم يستطع فتح المنطقة لبرودة ولصعوبة المواصلات واعقب هذا ببعث رسالة الى الخليفة مبيناً له فيها انه كسر الخارجيين من العلويين وانه اسر ستين من آل علي.

(٣) ولكن نفوذ الطاهريين كان قوياً في بغداد ، مما جعل

الخليفة ينحاز الى جانب محمد بن طاهر . ففي سنة ٢٦٠هـ / ٨٧٤ م جمع حجاج الولايات الشرقية وقرأ عليهم منشوراً صرح فيه بان يعقوب مغتصب وخارج على الدولة . فما كان هذا التصريح الا ليحث الصفار على الاستمرار في مشاريعه . فسار الى فارس (صيف سنة ٢٦١ هـ/ ٨٧٥م) وهزم واليها ثم تقدم الى الاهواز ، ودخل (رامهرمز) فاضطربت بغداد وحاولت استرضاءه بمختلف الوسائل . فدعى الموفق تجار الولايات الشرقية وتلا عليهم عهد تولية يعقوب على خراسان وطبرستان وجرجان والري وفارس وشرطة بغداد . وارسل اليه سفاره . ولكن يعقوب الذي فقد كل احترام واجلال للخليفة رفض طلب الخليفة واجاب بكل وقاحة انه سيقرر في بغداد نفسها ماريد .

تقدم يعقوب في منطقة ميسان ، فقابله الموفق (يصحبه الخليفة وعليه بردة الرسول وفي يده القضيب) عند دير العاقول (٥٠ ميلا من بغداد) ودارت على يعقوب الدائرة . (الاحد ٢١ رجب ٢٦٢ هـ ٨ نيسان ٨٧٦م) وانقذ محمد بن طاهر من الاسر ، وعين من جديد والياً على خراسان ولكنها كانت ولاية صورية فلم يترك ابن طاهر بغداد .

انسحب يعقوب الى جند يسابور ولكنه تردد في الهجوم ثانية . وحاول الموفق التفاهم معه لانه كان مهدداً من قبل الزنج . فرفض يعقوب . ومات يوم ١٥ شوال سنة ٢٦٥هـ/ ٩ حزيران ٨٧٩ م بعدان نجح في تثبيت سلطانه في جنوب ايران فقط .

كان يعقوب جندياً قديراً ، ذا شخصية جبارة ، محبوباً من

جنده ولم يحاول اختلاق الحيل الشرعية لتبرير اعماله ، بل اعتبر السيف أساس حقه . ووجه جل اهتمامه لتكوين جيش مطيع له ، والحصول على المال الضروري لاتمام حروبه . فاثقل ولاياته بالضرائب ، ولجأ احياناً الى مصادرة أموال بعض المثرين .

وكان يقرر الامور بنفسه ، ولكنه لم يظهر مقدرة في الادارة إذ لم يربط ولاياته بنظام موحد . وبقي في حياته الخاصة جندياً بسيط الذوق يرتدي ملابس القطن ويجلس على الأرض وينام ورأسه على الدرع، إلا انه كان يظهر الابهة في الحفلات .

أما ميوله فليست واضحة . فمن المؤرخين (القزويني ونظام الملك) من يعتبره شيعياً . ولكن يظهر انه جمع حوله كل المتذمرين من الطبقات الواطئة .

٤ —

بايع الجند لعمرو (٢٦٥ — ٢٨٧ ﻫ / ٨٧٩ — ٩٠٠م) بعد اخيه فجنح للسلم مراعاة للظروف، وصالح الخليفة . فعين والياً على خراسان وفارس ، واصفهان ، وسجستان ، وكرمان والسند وحاكماً عسكرياً لبغداد وسامراء . وبذلك اصبح الحاكم الشرعي (بنظر الفقهاء والمتطوعة) لهذه الولايات[١] وتمكن من اخضاع فارس سنة ٨٨١ وخراسان سنة ٨٨٢

(١) وهذا ما يدل على انه حاول التفاهم مع الطاهريين . فعين عبيدالله بن عبدالله بن طاهر نائباً عنه في بغداد . ولكن احد الثوار في خراسان فتح نيسابور سنة ٢٦٦ ﻫ/ ٨٨٠ م ودعا لارجاع الطاهريين اصحاب الحق الشرعي وخطب باسمهم فافسد هذا علاقة عمرو بالطاهريين .

بعد القضاء على الثورات فيها .

ثم ساءت علاقته ببغداد . إذ اراد الموفق (بعد ضرب الزنج) استرجاع فارس وفاوض عمروا في ذلك ولكن دون جدوى . وفي سنة ٢٧١ ﻫ / ٨٨٥ م جمع المعتمد حجاج خراسان وقرأ عليهم كتاباً باقالة عمروا من ولايته ثم أمر بلعنه على المنابر . وبعد سنتين فتح الموفق فارس وهزم عمرو بن الليث . ولكن الموفق كان يعرف قوة الصفاريين . فاعاد توليته سنة ٨٨٩ على كل ولاياته (حتى فارس) ثم نحاه عن منصبه في شباط سنة ٢٧٦ ﻫ / ٨٩٠ م .

جاء المعتضد سنة ٢٧٩ﻫ / ٨٩٢ م الى الحكم فاعترف بعمرو نهائياً حاكما شرعياً لخراسان . وارسل اليه العهد مع لواء اظهره عمرو في صحن داره بنيسابور ثلاثة ايام ليراه الناس .

— ٥

وطمع عمرو في بلاد ما وراء النهر ، ولكن مركز السامانيين فيها كان قوياً . أما الخليفة فاضطر بطلب من عمرو ان يقرأ على الحجاج الخراسانيين (شباط سنة ٢٨٥ﻫ/٨٩٨ م) بياناً بعزل اسماعيل بن احمد الساماني عن ما وراء النهر وتولية عمرو محله . ثم ارسل رسولا يحمل الهدايا والعهد الى نيسابور . فلما وضع العهد بين يدي عمرو قال : « ماهذا ؟ » فقال الرسول « هذا الذي سألته » فقال عمرو « وما اصنع به ، فأن اسماعيل بن احمد لا يسلم الى ذلك الا بمائة الف سيف ! » فقال « انت سألته

فشمر الآن لتتولي العمل في ناحيته»

وفي ربيع سـنة ٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م حطم جيش عمرو قرب بلـخ ، وأسر عمرو نفسه ثم ارسل الى بغـداد ، فسر الخليفة بذلك . ثم قتل (نيسان سنة ٩٠٢) والخليفة على فراش الموت . ولعل حكومـة بغـداد كانت تشجع اسماعيل سراً على المقاومة .

٦ —

كانت سلطة عمر و تستند الى السيف . ولذا اهتم بضمان الموارد الكافية لحكومته . وكانت عنده ثلاثة بيوت للاموال : الاول وارده من الخراج والضرائب الاخرى ومنه نفقات الجيش . والثاني وارده من الضياع والاملاك الخاصة ومنه تصرف نفقات البلاط . أما الثالث فوارده من المكوس والاحداث والمصادرات ، ومنه كانت تدفع الهدايا للمخلصين المقربين . وقد ضبط رعيته بواسطة نظام الجاسوسية القوي الذي كان يتبعه .

٧ —

طبق الصفارون مبادىء العدل والمساواة بين اتباعهم ، فأدى ذلك الى تأييد الطبقات الفقيرة في سجستان لهم . كما أرضى كبرياء السجستانيين القومي كون الزعيم من بينهم .

ودعا الصفارون للخليفة ، لقوة نفوذه الديني ، وطلبا لجلب رضاء الجماهير . فنجد مثلاً ان العلماء والمتطوعة لم يعترفوا بشرعية ولاية عمرو

الا بعد وصول عهد الخليفة اليه . لذا استمر الصفارون يذكرون اسم الخليفة في الخطبة وعلى النقود حتى بعد قطع علاقتهم ببغداد .

ومع ذلك حاول الصفارون تحديد سلطة الخليفة ، رغم كونها اسمية . فكان يعقوب اول من ادخل اسمه في الخطبة مع اسم الخليفة ، وعمرو اول من نقش اسمه على الدنانير (بينما حرم الطاهريون من ذلك) . ويظهر انهم لم يدفعوا جزية منتظمة للخلافة .

والصفارون أول من هاجم سلطة العباسيين في ايران ، وحاول انقاص سلطتهم الدنيوية الى ادنى حد . ومع ان عمراً و يعقوب لم يحققا كل مطامحهما إلا انهما نجحا في التأكيد على حق الامراء التابعين ليشاركوا الخليفة في شارتي السلطان - الخطبة والسكة . وانشأوا سنة عدم دفع جزية منتظمة لحكومة بغداد . وما أخذوه غصباً سمحت به الخلافة طوعاً لمن أتى بعدهم .

كان الصفارون سنة ، ولهذا كانوا حلفاء بغداد الطبيعيين ضد العلويين والخوارج .

أهم المراجع

Barthold - turkestan
Siddiqi - Caliphate and Kingship in Medieval Persia.
I. C. 1936. P. 97 off.
Noldeke - Sketches from Eastern History.
E. I. - Art "Saffarids".
Lane-pool : Muhammadan Dynasties .

الطبرى ، المنتظم لابن الجوزي ، ابن خلكان .

السامانيون

٢٦١ — ٣٨٩هـ/ ٨٧٤ — ٩٩٩م

١ —

اصلهم من عائلة زردشتية نبيلة في بلخ . اسلم جدهم (سامان خدات) على يد الوالي الاموي اسد بن عبدالله القسري وسمي ابنه اسداً . وقد سطع نجم ابناء اسد في خلافة المأمون ، فعينهم والي خراسان غسان بن عباد (٨١٩ — ٨٢١) — حسب رغبة الخليفة لبعض الولايات . فكان نوح على سمرقند واحمد على فرغانه ، ويحيى على الشاش والياس على هيرات . ثم توفى الياس ففقدوا هيرات ، ولكنهم حافظوا على سلطانهم في ما وراء النهر .

وعمر أحمد أكثر الاخرة فصار اليه حكم سمرقند وفرغانه والشاش وقسماً من الصغد وبعض المدن التركية (سنة ٨٥٥ م) . وبوفاته سنة ٨٦٤ م أصبح ابنه نصر رئيساً للعائلة واتخذ سمرقند مركزاً له .

وفي سنة ٨٧٤ م غنم السامانيون بخارا إذ اضطرب فيها الوضع وصارت غرضاً للطامعين فدعا اهلها نصراً الساماني، فارسل اخاه اسماعيل واسند اليه حكمها بالنيابة عنه (٢٥ حزيران ٨٧٤) . وفي السنة التالية (٨٧٥) حصل نصر على عهد من الخليفة المعتمد بولاية ما وراء النهر بكاملها .

واستطاع اسماعيل ان يقضي على عصابات اللصوص التي كانت

تتشكل من الفلاحين للتدرين ، وان يسترضي النبلاء دون ان يعتمد عليهم . فلما قوي مركزه دب الشك في تصرفاته الى اخيه نصر وأدى ذلك اخيراً الى نزاع طويل انتهى سنة ٨٨٨م بأسر نصر ، فعامله اسماعيل بكل احترام وخاطبه كرئيس لا كأسير ثم رجع الى سمرقند وبقي يحكمها كرئيس اسمي للعائلة حتى وافته المنية في ٢١ آب ٨٩٢ .

— ٢

ولما توفي نصر اوصى ان يخلفه اخوه اسماعيل . وفي السنة التالية جاء عهد الخليفة بتولية هذا على بلاد ما وراء النهر . وفي نفس الوقت قضى اسماعيل على امارة اشروسنه وضمها الى ولايته . واصبحت خراسان ولاية تابعة له بعد ان قضى على عمرو بن الليث . ثم هزم محمد بن زيد العلوي في طبرستان وأستولى على بلاده .

— ٣

لم يظهر بعد اسماعيل أمير قدير ، ولكن متانة الادارة السامانية ، وتوطد حكمهم في ما وراء النهر خاصة ، مكنهم من المحافظة على ملكهم مدة مائة سنة .

ومما يسترعي الانتباه قبل انحلال سلطان السامانيين ، ان نصرا (الثاني) حفيد احمد اتهم بميول اسماعيلية ، فاضطر لأن يتنازل تجاه مؤامرة الحرس ضده لأبنه نوح سنة ٩٤٣م . ومنذ ولاية نوح أخذت بوادر الانحلال تظهر في الاسرة السمانية واخذ نجمهم بالافول ، لضعف الامراء

ولتعاظم نفوذ الحرس التركي (الذي اكثر منه السامانيون فصاروا يتلاعبون بالامراء ويتدخلون بالسياسة، واسقطوا هيبة الوزارة واهميتها) لاختلال الادارة واضطراب الامور المالية حتى أصبحت الخزينة تشكو الافلاس المزمن .

وتقلص حكم السامانيين بتأثير الثورات الداخلية التي كان لمطامع الحرس التركي اليد الطولى فيها ، ولظهور البويهيين في الغرب والقرخانيين (الذين تزعموا القبائل التركية بين فرغانة وحدود الصين) في الشرق وانشأ الب تكين - أحد قواد السامانيين - امارة مستقلة في غزنة سنة ٩٦٢م . وفي سنة ٩٧٧ أصبح سبكتكين (مولى الب تكين) أمير غزنة . واظهر سبكتكين ولاءه للسامانيين ، ولذا اخذوا يستعينون به في اخماد الثورات الداخلية . وعندما أخمد ثورة خطرة سنة ٩٩٤ عينوا ابنه محموداً لولاية خراسان .

الا ان الخطر العظيم كان من جانب القرخانيين الذين هاجموا اراضي السامانيين سنة ٩٩٦، فاستنجد هؤلاء بسبكتكين ، ووفق هذا الامير الى عقد صلح مع القرخانيين على ان تكون سهول قطوان هي المنطقة الفاصلة بين املاك الاثنين . وكنتيجة لهذه النجدة صار لسبكتكين نفوذ عظيم ، وانتقلت جميع الاراضي جنوب نهر جيحون الى يده دون ان يكون للسامانيين نفوذ فيها .

ومع ان السامانيين هاجموا خراسان بعد وفاة سبكتكين (سنة

٩٩٧) حين انشغال محمود بشؤون غزنه ، إلا ان هذا استغل خيانة الجيش الساماني لأميره ، فحمل على الجيش الساماني ودحره في مايس سنه ٩٩٩ وفتح خراسان .

وأخيراً دخل الترك القرخانيون بخارى في ٢٣ تشرين الأول سنة ٩٩٩ وقضوا على السامانيين .

— ٤

ومن المهم ان نتعرف على العلاقة بين الخليفة والسامانيين في في الفترة التي سبقت فتح البويهيين للعراق (سنه ٣٣٤ هـ / ٩٤٥) . فليس هناك ما يدل على ان السامانيين دفعوا جزية منتظمة للخليفة منذ انتصارهم على عمرو. وهذا يظهر أكيداً سنة ٣٠٦ هـ من خلو قائمة علي بن عيسى من أية اشارة الى وارد من خراسان وما وراء النهر .

ومنح الخليفة السامانيين حق ذكر اسمهم في الخطبة كما نقش هؤلاء الامراء اسماءهم على الدنانير بجنب اسم الخليفة (وهذا رمز الاستقلال السياسي) .

ولما كان السامانيون على المذهب السني ، كانوا بحاجة الى عهود تولية من الخلفاء كي يصبح حكمهم شرعيا بنظر الناس . فكان الخليفة مصدر السلطة شرعيا ولكن السامانيين كانوا اصحاب السلطة عملياً . فلم تكن للخليفة يد في تولية الامراء وعزلهم .

وكانت عهود التولية تحتوي على كثير من الواجبات الدينية

والسياسية التي يوصي الخليفة الامراء بتنفيذها [١] فكان ينتظر من السامانيين مثلا ضرب اهل البدع ، واعلان الجهاد وتسهيل امور الحج .

ولما دخل الترك بلاد ماوراء النهر سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٣م أعلن اسماعيل الجهاد ضدهم ، وتمكن بواسطة المتطوعة من القضاء عليهم تقريباً ، وأرسل يبشر الخليفة بذلك . ولا شك ان وقوف السامانيين ضد المذاهب غير السنية كان في مصلحتهم السياسية . ولهذا طارد نوح بن نصر الثاني الاسماعيلية في مملكته واضطهد انصارها وصادر املاكهم وقمع حركتهم الظاهرة .

كانت علاقة السامانيين بالخليفة حسنة ، أساسها التفاهم والثقة المتبادلة . حتى ان الوزير علي بن عيسى اقترح على المقتدر الذهاب الى خراسان عندما هدد القرامطة بغداد .

— ٥

ولكون السامانيين من النبلاء لم يستطيعوا تمثيل النزعات الشعبية كما مثلها ابو مسلم . ولكنهم كانوا يهتمون بحماية الزراع والفلاحين من ارهاق النبلاء الاقطاعيين ليضمنوا السلام والرفاه في البلاد وليوطدوا حكمهم . وهذا يمكن اعتباره حكماً « مستبداً عادلا » في وقت واحد .

ويمكن ارجاع مبدأ النهضة الفارسية الفعلي الى هذا الدور . فقد

(١) راجع رسائل الصابي

ادعى السامانيون انهم من نسل (بهرام جوبين) الزعيم الساساني الذي هرب الى الترك سنة ٥٩١ م . وكانت اللغة الفارسية هي الرسمية في عهد معظم امرائهم . وافتى العلماء بجواز الصلاة باللغة الفارسية . وشجع السامانيون الشعراء الفرس حتى ان بعضهم صرح بآراء لا تتفق وروح الاسلام فالشاعر الرودكي السمرقندي يقول : « لا معنى لتولية الوجه نحو القبلة والقلب منجذب الى القدسية المجوسية » . وصرح (الدقيقي) - الذي كان أول من حاول نظم الاساطير الايرانية - بعلاقته بالزرادشتية فيقول : « اختار اربعة اشياء من كل الخير والشر في الدنيا : شفة (الحبيب) بلون الياقوت ، وزمزمة العود ، والخمرة القانية ، ودين زرادشت » . وفي زمنهم ترجم تفسير الطبري الى الفارسية .

اهم المراجع .

Barthoid - Turkestan

Siddiqi - Caliphatic and king ship I. C. 1936 p. 103 off.

Lane-pool= muhammadan Dynasties

انظر سلسلة الامراء : ص ١٣٢ و ١٣٣ .

E. I. - Art. "Samanids."

E. G. Browne- A Literary History of persia Vol I.

الطبري . ابن الاثير . رسائل الصابي . مسكوية . بارتولد - الحضارة الاسلامية .

الاسماعيلية والقرامطة

١ —

زلزل العالم الاسلامي بحركة متشعبة النواحي — دينية، اجتماعية، فلسفية، سياسية هددت اسس حضارته ولعبت دوراً مهماً في تاريخه. تلك هي الحركة الاسماعيلية التي بدأت في القرن الثاني للهجرة بتمازج عدة فرق من الغلاة. ولعل بعضها كان من أصل فارسي، كما ان فيها اصولا سريانية وغنوصية.

على ان الحركة الاسماعيلية لم تتخذ شكلا واحداً، ولا اقتصرت على اسم معين، بل ظهرت بأشكال وصور متعددة في نظرياتها وتنظيماتها. فكانت دائبة على ضم فرق جديدة الى صفوفها، واضافة آراء جديدة الى مذهبها. وزيادة على ذلك كانت تتجزء الى شعب متناحرة في الغالب.

وقد استطاعت ان تنظم وتوجه السخط الاجتماعي والديني في البلاد الاسلامية باتخاذها حق العلويين الشرعي في الحكم وسيلة للدعاية السياسية، وبمزجها الداخلي لمبادىء من جميع الاديان والفلسفات، مع نزعة قوية لتحكيم العقل في مذهبها الديني، وباستغلالها التذمر الاجتماعي، والاقتصادي، وبتنظيماتها الدقيقة كجزء أساسي من فعاليتها [١].

---

(١) B. Lewis - Origins of Ismailism P. 2.

ولاشك في ان وضع الخلافة كان مساعداً على انتشار هذه الحركة فهناك ضعف العباسيين السياسي وتقلص سلطتهم ، الى جانب خيبة أمل الناس فيهم لأن حكمهم لم يحقق السعادة والسلم الموعودين . وهناك تذمر الطوائف من العناصر غير العربية من حكم العرب ومن سيادة دينهم ومحاولتها التخلص من الكابوس الاجنبي السياسي الروحي . وهناك انتشار الفلسفة اليونانية التي قوت الشك وفتحت باباً لمقاومة الدين وهناك قلة ثقافة الطبقة العامة وتسرب الخرافات اليهم مما سهل عليهم قبول أي مبدأ . وهناك التبدل الاقتصادي الجديد الناتج عن انتقال المجتمع من طور زراعي الى تجاري، والذي أدى الى الاتحاد بين مصالح الاغنياء العرب وغيرهم من جهة وبين مصالح الفقراء من موالي وعرب على اساس اقتصادي . وهناك بذور الغلو التي لعبت دورها في الدعوة العباسية ، ولكن حيويتها الكامنة اكتسبت شكلا واتجاهاً جديدين عن طريق خبرتها المكتسبة من صلتها بالمجتمع ومن فشلها المتكرر منذ مجيء العباسيين (١) .

ادرك رجال الحركة هذه الظروف فاستغلوها بشكل عجيب وسنقتصر في بحثنا هذا على عرض موجز للحركة ، مراعين في ذلك تبيان بعض مظاهرها الهامة .

— ٢ —

ترجع بذور الحركة الى الغلو ، والى بيئة الكوفة التي التقت فيها

(١) الدوري بحوث تاريخية .

المذاهب من كل نوع . والغلو كان يحمل في ثناياه الثورة الاجتماعية ، فهو ستار كل ساخط وتحت لوائه انضم كل متبدم بالمجتمع القائم و بنظامه (١) .

ومع ان يصعب تحديد مبدأ لهذه الحركة ، ومع شعورنا بانها متممة للحركات الثورية السابقة كالحركة الخرمية ، وانها نتيجة تظافر تيارات وظروف اجتماعية معقدة ، الا اننا نلحظ ان اولياتها ظهرت في حياة جعفر الصادق وفي الكوفة . وتجمع اكثر المصادر على ان ابا الخطاب كان أول منظم لحركة لها صفة باطنية واضحة .

كان ابو الخطاب من اتباع الصادق ، ثم غلا في ادعاآته ، فنسب الى الصادق قوى آلهية ، وأدعى النبوة وانه خليفة الصادق . و بشر بمباديء غريبة كالاباحة والتنوير (او تكرر الحلول) . واليه ينسب المبدأ الاسماعيلي في الامام الناطق والصامت (٢) . وقال بالتأويل فلا غرو ان تبرأ الصادق منه . ولكنه نجح في تكوين فرقة تسمى الخطابية ومركزها الكوفة . وقد قتل في سنة ١٣٨ / ٧٥٥ (٣) .

و يؤكد كثير من المصادر على الصلة بين الخطابية والاسماعيلية فتبين ان ميمون القداح واتباعه هم تلاميذ ابي الخطاب ، وان حركة

---

(١) انظر الدوري العصر العباسي الاول ص ١٨ - ١٩ ، وص ١٥

(٢) البغدادي ص ٢٣٦ ، الاشعري — مقالات الاسلاميين ج ١ ص ١٠ ، Casanova - Lo Doctrine Secrete des Fatimides d' Egypte. p. 19. n. 1. Coiro 1910.

(٣) Lewis p. 32-3 ، الكشي — معرفة الرجال ص ١٨٨ ومابعدها ، النوبختي — فرق الشيعة ص ٦٩ — ٧١ ، الشهرستاني ص ١٣٦ .

ميمون وابنه عبدالله (واليهما ينسب تكوين الحركة الاسماعيلية) هي الحركة الخطابية نفسها. وتعترف كتب الاسماعيلية الاولى وبعض كتب النصيرية بدور ابي الخطاب وتعتبره منشيء المذهب الاسماعيلي [١].

وقد تبرأ جعفر الصادق من ابنه اسماعيل كما تبرأ من ابي الخطاب، ويروى انه فعل ذلك لاستهتار اسماعيل بالشراب. ولكن هناك ما يشير الى سبب اخطر من ذلك وهو وجود صلة بين اسماعيل والخطابية. روى الكشي ان الصادق قال للمفضل بن عمر الجعفي، وهو خطابي: «يا كافر يا مشرك مالك ولابني يعني اسماعيل بن جعفر. وكان منقطعاً اليه يقول فيه مع الخطابية». وقال الصادق لاسماعيل «ايت الفضل وقل له يا كافر يا مشرك. ما تريد الى ابني؟ تريد ان تقتله؟» [٢]

ومن هذا نرى وجود صلة قوية بين اسماعيل ودوائر الغلاة الثوريين وان اباه تبرأ منه لهذه العلاقة. ويؤيد ذلك الصلة الوثيقة بين محمد بن اسماعيل وميمون القداح وابنه عبدالله والأخيران من اتباع ابي الخطاب.

وتوفي اسماعيل قبل والده بعد ان التفت حوله جماعة من الاتباع. ثم انقسم اتباع اسماعيل بعد وفاة الصادق (سنة ١٤٨هـ / ٧٦٥م) الى طائفتين:

آ— فرقة قالت بامامة اسماعيل بن جعفر بعد أبيه «وانكرت موت اسماعيل في حياة ابيه وقالوا كان ذلك على جهة التلبيس من ابيه على الناس

---

(١) Lewis. P. 34 - 6 (٢) الكشي: ص ٢٠٦- ٢٠٧.

لانه خاف فغيبه عنهم .. وانه هو القائم .. وهذه الفرقة هي الاسماعيلية الخالصة » .

ب — فرقة قالت بامامة محمد بن اسماعيل بعد والده « ولا يجوز غير ذلك لانها (الامامة) لاتنتقل من اخ الى اخ » . وهذه تدعى المباركية نسبة الى المبارك مولى اسماعيل . واليهم انضم قسم من الخطابية . ومن هذه الفرقة تشعب القرامطة . [١]

ويذكر المجلسي فرقة ثالثة من الاسماعيلية تقول بأن الصادق عهد بالامامة الى محمد ابن اسماعيل رأساً . وهو يتفق مع النوبختي في ان القرامطة من المباركية . [٢] ويبين الامام الزيدي المتوكلي (٥٣٢ ه ٥٦٦) ان الاسماعيلية يتكونون من الخطابية والمباركية [٣] .

ومن هـذا تظهر اهمية المبارك . فاليه ينسب تنظيم الفرقة الاسماعيلية واجتماعها حول محمد بن اسماعيل . وهذه الفرقة باستيعابها القسم الاكبر من الخطابية والفرق الاسماعيلية الاخرى كونت الحركة الاسماعيلية الكبرى التي قامت بدور مهم في التأريخ الاسلامي . [٤]

وينسب الدور الاكبر في تنظيم الحركة الاسماعيلية وفي وضع مبادئها الى عبدالله بن ميمون القداح . وهو ذو شخصية احاطتها الروايات بضباب من الاضطراب والابهام .

(١) النوبختي - فرق الشيعة ص ٦٨ - ٧٢ . (٢) المجلسي - بحار الانوار ج ٩ ص ١٧٥ . (٣) انظر Lewis p. 41 . (٤) نفس المصدر والصفحة .

يخبرنا ابن رزام [1] بان عبدالله القداح كان واسع الاطلاع في جميع المذاهب والاديان وانه ادعى معرفة الغيب واستعمل الحمام لنقل الاخبار بسرعة . كما انه وضع نظام التنشئة على سبع درجات في الدعوة . اما اصله فمن (قورج العباس) في الاهواز ، ولكنه سكن (عسكر مكرم) فاخرج منها الى ساباط ابي نوح وفيها اكتشف الناس زيف ادعاآته . واخرجه الشيعة والمعتزلة الى البصرة حيث التجأ الى عقيل ابن ابي طالب ودعا لمحمد بن اسماعيل . وكان يصحبه في طريقه الى البصرة احد رجاله وهو الحسين الاهوازي ثم طاردته الحكومة في البصرة فهرب مع الاهوازي الى (سلميه) و بقي مختفيا فيها حتى وفاته . وكان يرسل الدعاة من مخبئه الى العراق لبث دعوته ، واقتفى اولاده أثره في توجيه الدعوة بعد وفاته حتى نجح أحدهم في انشاء الدولة الفاطمية في شمالي افريقية .

ويؤكد مؤرخو العرب وبعض المتشرقين (مثل De sacy , De Goeje) وجود دافع سياسي لدى عبدالله بن ميمون وهو رغبته في القضاء على سلطان العرب وعلى الدين الاسلامي الذي جلب اليهم تلك السلطة وارجاع مجد ايران مرة ثانية [2] .

---

(١) تجد روايته في الفهرست والاتعاظ للمقريزي ، والنويري وقد كتب ابن رزام حوالي ٣٦٥ هـ . ويرى ماسنيون ان المؤرخين الذين وضعا نظرية السنة عن القرامطة والفاطميين هما محمد بن رزام الطائي (صاحب ديوان المظالم سنة ٣٢٩ هـ ببغداد) ومحمد اخو محسن بن العابد وهو علوي من دمشق توفى سنة ٣٧٥ . E. I. vol II p. 768 . (٢) يتفرد Browne (ج ١ ص ٧٠٤) بالقول بان العنصر السياسي مبالغ فيه ويرى ان المذهب الاسماعيلي يرجع في اصوله الى مبادىء متأصلة في ايران وان تلك الروح الفارسية في المذهب هي التي أثارت اهتمام عبدالله وليس التعصب للفرس .

ويسمي ايفانوف مجموع الروايات عن عبدالله القداح بـ « اسطورة القداح» ويرى انها من اصل متأخر ، ويرجح انها من النصف الثاني للقرن الرابع الهجري وانها من اختراع ان رزام ، ثم انتشرت من كتابه في كل مكان .(١)

ثم يناقش دور القداح ، ويبين ان عبدالله بن ممون لم يقم بدور ما في الحوادث التاريخية ، وانه وان كان على صلة بالخطابية وبالغلاة الآخرين الا انه لاتوجد اية اشارة الى مشاركته لهم في آرائهم او التبشير بآراء آخرى .(٢) ثم ينفي النظرية التقليدية التي مضمونها ان القداح اراد ان يقوض الاسلام فاستغل الشعور الشيعي عند الجماهير وكون المذهب القرمطي المؤدي الى الالحاد واستغل اسم اسماعيل بن جعفر في اثاره حركة شعبية قوية نقلت الملك إلى حد احفاده باسم المهدي .(٣)

ثم يفسر نشوء تلك « الاسطورة » بان العقل في القرون الوسطى لم يكن يفكر بالتطور او بالعمل المجتمع للاجيال ، وانه لم يدرك التدرج المعقد الذي انتج المذهب الاسماعيلي المنظم. ويبين ان المذهب كان وثيق الصلة في شكله وجوهره بنجاح الحركة السياسية وتوسعها وغاياتها السياسيه(٤) .

وهكذا ينفي ايفانوف اثر عبدالله بن ميمون في الحركة الاسماعيلية ويرى ان الروايات نسبت اليه تطور الحركة خلال اجيال ويخمن وفاته بين ١٦٠ - ١٨٠ هـ

(١) Ivanov-Rise of The Fatimids p. 172 (٢) Ibid p. 128
(٣) Ibid p. 128-130 (٤) Ibid p. XIX-XX

ومع اني وافق ايفانوف في عدم الاطمئنان الى التطرف والتناقض الموجود في الروايات بشأن القداح ، وفي لومه للباحثين على اهمال كتب الاسماعيلية الا اني ارى في رايه تطرفاً وثورة على الروايات التي تؤكد دور القداح . ولذا اراني اميل الى قبول نتائج لويس في الموضوع بعد ان ناقش مختلف اصناف الروايات . وقد توصل الويس بشأن القداحين الى ما يأتي .

كان ميمون وابنه عبدالله من اتباع الصادق المحترمين . وفي وقت ما اتصل ميمون بالغلاة الذين كان يتزعمهم ابو الخطاب (واسماعيل) فقام بدور يذكر في تكوين مبادىء تلك الفرقة وتنظم دعوتها . وبعد مقتل ابي الخطاب ، صارت اليه الرئاسة ، وقام بتربية محمد بن اسماعيل ، فنشأه على مذهب الباطن . اما عبدالله بن ميمون فتخرج على والده ، وتثقف وصار الحجة بعدوفاته . وقد توفى عبدالله في اوائل القرن الثالث الهجري . (١)

اذن فقد كان لعبدالله بن ميمون دور مهم في اوائل الدعوة الاسماعيلية ، وهذا ماجعل المؤرخين - شأنهم كثير من الأدوار التاريخية - ينسبون اليه تطورات ظهرت بعده . ومما ساعد على ذلك ، كما يظهر ، ان عبدالله اخرج الدعوة من نطاقها الضيق ، وبث لها الدعاة في انحاء الشرق الادنى ، فاعتقد بعضهم أنه هو مكونها .

---

(١) Lewis p. 45-6 ; p. 66-67

٣ - وعلى كل حال ، فقد بدأ المؤرخون باالكتابة عن الحركة الاسماعيلية حين اخذت تهدد الوضع القائم . ويمكن ادراك خطورتها واتساع رقعتها من القاء نظرة الى فروعها المختلفة . فمن القابها «الاسماعيلية، والباطنية، والقرامطة، والسبعية، والتعليمية» وهذه الاسماء شبه مترادفات تؤكد شعبه او مظهراً للحركة العامة . فالقرامطة الذين روعوا الخلافة في العراق والبحرين في القرن الرابع ، والحركة الاسماعيلية في اليمن ، والحركة الفاطمية في شمالي افريقيا والانسكاو بيديين — اخوان الصفا — الذين حاولوا نشر المعارف والفلسفة بشكل مبسطا بين الجماهير والحشاشين المرعبين في سورية وايران في القرنين الخامس والسادس كلهم فروع للحركة نفسها .

ومع انه « كانت لهم دعوة في كل زمان ، ومقالة جديدة بكل لسان » [1] الا ان ذلك لا يمنع من ان تكون لهم مبادىء عامة مشتركة ، سنكتفي بسرد بعضها مما كان له الأثر الفعال في حركتهم .

فاهمها مبدأ الباطن . وكان له الدور الرئيس في نشر الدعوة بين جماعات مختلفة المذاهب والأديان . فيقول الشهرستاني : « اشهر القابهم الباطنية . وانما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بان لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا » [2] . ويقول الديلمي انهم انما لقبوا بالباطنية « لانهم ينسبون لكل ظاهر باطنا ويقولون الظاهر بمنزلة القشور والباطن

(١) الشهرستاني ٢ : ٢٩ . (٢) نفس المصدر .

بمنزلة اللب »[١]. أما البغدادي فيقول : « وتأولوا آيات القرآن وسنن النبي (ع) على موافقة اساسهم »[٢]. ويرى بن الجوزي « انهم ادعوا لظواهر القرآن والاخبار بواطن تجري مجرى اللب من القشر ، وانها توهم الاغبياء صوراً وتفهم الفطناء رموزاً واشارات الى حقائق خفية ، وان من تقاعد عن العرض على الخفايا والبواطن متعثر ، ومن ارتقى الى علم الباطن انحط عنه التكليف واستراح من اعبائه ... قالوا والجهال بذلك هم المراوون »[٣] واخيراً يذكر النوبختي انهم « زعموا ان جميع الاشياء التي فرضها الله تعالى على عباده وسنها نبيه (ص) وأمر بها لها ظاهر وباطن . وان جميع ما استعبد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة امثال مضروبة وتحتها معان هي بطونها وعليها العمل وفيها النجاة »[٤].

وهكذا كانت النصوص المقدسة لا تفقه بمعناها المفهوم (الظاهر) وانما كان يفهم منها أنها رموز الى معان خفية (باطنية) . وان المعنى الظاهر للعامة والجهال ، ومن تمسك به لاقى صنوف العذاب والعناء ، ومن ادرك الباطن لقي السعادة في الدارين وعاش عيشة راضية. ولذلك فيجب تأويل النصوص ومعرفة دخيلتها لكي تفهم الشرائع فهماً صحيحاً . ويرى مؤرخو الفرق ان الغرض من التأكيد على الباطن هو ابطال الشرائع والانسلاخ من الدين[٥]. ونحن نرى ان غايتهم الأساسية سياسة اجتماعية ، وان تطبيق طريقة

(١) الديلمي ٢٢ . (٢) البغدادي ٢٦٩ . (٣) ابن الجوزي ٥ : ١١٤
(٤) النوبختي : ٧٥ (٥) ابن الجوزي ٥ : ١١٤ ، الديلمي ٢١ ، البغدادي ٢٧٠ .

التأويل كان خير وسيلة لاستخدام الكتب المقدسة لجميع الأديان لتحقيق غرضهم في جمع مختلف الطوائف تحت لوائهم للقيام بالثورة المنشودة.

ولكن الباطن لا يعرفه « إلا قليل من الخواص »[١] فهذا النفر القليل يستقي معلوماته عن الباطن من مصدر مقدس واحد « يرجع اليه في جميع العلوم ولا يلتفت الى العقل اصلا » وذلك هو الامام. ف « للشرائع باطن لا يعرفه الا الامام » الذي يساوي النبي في العصمة والاطلاع على حقيقة كل شيء ». [٢] فالشريعة اذن ، معرفة الامام والاستنارة بعلمه الباطن. ولذلك اتفق الاسماعيلية على انه لابد في كل عصر من امام معصوم يرجع اليه » [٣] ليهدي الناس الى سواء السبيل ويجب ان تتذكر ان الامام لا ينزل عليه وحي ، بل يتلقى علمه عن النبي (ص) لانه خليفته [٤].

ويظهر ان الاسماعيلية اكتفوا أول أمرهم بالقول بامامة اسماعيل وابنه محمد ، ولكن نظرتهم تطورت وأصبحت شاملة يتضح فيها اطلاعهم على الاديان المختلفة ورغبتهم في جمع انصارها تحت رايتهم ، فقد قسموا تاريخ البشرية الى حلقات نبوة عددها سبع. إذ قالوا ان « العقل الكلي » يتجسد بين حين وآخر في شخص نبي (الناطق) وكل نبي يخلفه ستة ائمة (الامام = الصامت) ، اولهم يدعى الاساس وهو الملازم الحميم للناطق ومستودع علمه. وكل نبي (أي عند كل تجسد جديد) يعلم الناس

---

(١) الديلمي ١٧ . (٢) الديلمي ص ٦ . (٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر .

الحقائق الروحية اللازمة لهدايتهم بشكل اكمل كما يقتضي تطور الفهم البشري . وآخر حلقة نبوة هي دورة محمد بن اسماعيل (القائم) وفيها ظهر لأول مرة علم الباطن أو حقيقة نواميس الانبياء . فمحمد بن اسماعيل هو خاتم النبيين (١) .

جاء في كتاب اسماعيلي سري « وكان محمد بن اسماعيل متمم الدور الأول المنتهية اليه غاية الشرائع المختومة به المشتمل على مراتب حدودها ، المحيط بعلومهم، وهو القائم بالقوة صاحب الكشف الأول » وانه « ناسخ شريعة صاحب الدور السادس (اي محمد (ص) ببيان معانيها .. واظهار باطنها المبطن فيها » . وقال الخليفة الفاطمي المعز لدين الله عن محمد بن اسماعيل انه «سابع الرسل من آدم . وختم به عالم الطبائع، وعطل بقيامه ظاهر شريعة محمد » . ويشرح سيدنا ادريس ذلك قائلاً « عطل بقيامه ظاهر شريعة محمد لما كان لمعانيها مبيناً ولاسرارها كاشفاً ومجلياً » (٢).

---

(١) انظر النوبختي ص ٧٤ ، وبراون ج ١ص ٤٠٩ . والدورة السادسة : النبي (الناطق) محمد . الاساس — علي، يخلفه الحسن ، الحسين ، علي زين العابدين ، محمد الباقر ، جعفر الصادق ، واسماعيل .

الدورة السابعة : الناطق — محمد بن اسماعيل . والأئمة - عبدالله بن محمد، احمد بن محمد ، الحسين بن احمد ، علي بن الحسين (القائم) ، المنصور ، المعز، العزيز .

اما الدورات السابقة فهي دورات (١) آدم (٢) نوح (٣) ابراهيم (٤) موسى (٥) عيسى انظر المقريزي ج٢ ص ٢٣٠ — ٢٣١ ، وبروان ج ١ص ٤٠٩ - ٤١٠ عن النويري و Lewis p. 72-3.

(٢) زهر المعاني لسيدنا ادريس (+ ٨٧٢هـ) في ايفانوف ص٥٣، ص٥٤، ص٥٧.

والائمة لا يكونون ظاهرين جميعاً بل يستتر قسم منهم بتأثير الظروف . ولهذا نجد سلسلة من الأئمة المستورين بين محمد بن اسماعيل وبين ظهور الفاطميين.[١] واذا كان الامام مستوراً فلابد ان تكون حجته ودعاته ظاهرين « ليبشروا بدعوته . »[٢]

ويرى لويس ان هذا الاختفاء مع وجود فكرة الابوة والبنوة الروحية عند الاسماعيلية كان مدعاة لتكون سلسلتين من الائمة في تلك الفترة (بين بن اسماعيل وعبيدالله المهدي) لائمة المستودعين والائمة المستقرين فالامام المستقر هو الامام الحقيقي وله حق نقل الامامة لاولاده . اما الامام المستودع فهو ابن الامام الروحي وحجته وعنده اسرار الامام ، ولكنه لا يحق له نقل الامامه لاولاده . في وقت الخطر يجوز للامام (المستقر) ان يفوض لحجته القاب الامامة ووظائفها بينما يبقى هو مستوراً . والغاية من هذا التفويض توجيه الحركة ومعرفة حقيقة الرأي العام دون ان يتعرض المستقر للخطر[٣]. وعلى ضوء هذه النظرية يرى لويس ان بعض القداحين (من نسل ميمون القداح) قاموا بوظيفة أئمة مستودعين في اوقات الخطر.[٤] كما ان ذكرويه واولاده قاموا بالدور نفسه[٥].

ولا بأس في ايراد استنتاجه الأخير وهو ان سعيداً عبيد الله المهدي آخر ائمة فترة الخطر وأول الخلفاء الفاطميين كان قداحيا وانه

(١) الشهرستاني ج ٢ ص ٥ (٢) نفس المصدر ج ١ ص ٢٨ (٣) Lewis p. 50 (٤) نفس المصدر (٥) نفس المصدر ص ٧٣ – ٤

عند وفاته لم يخلفه ابنه بل الأمام المستقر الذي اشتغل سعيد له ، وهو ابو القاسم محمد القائم (من نسل محمد بن اسماعيل)[١] .

وهنا يجابهنا رد ايفانوف على نظرية لويس ، فهو يؤكد أن المهدي فاطمي وينفي صحة نظرية لويس بانيا رده على ثلاثة اسس :

(١) ينتقد لويس على استناده في بناء نظريته الى خطأة في نص نسخة « غاية المواليد » التي اعتمد عليها ، ودون ان يبين الخطأ يذهب الى الشك في دقة غاية المواليد فيدعي ان ما فيه هو محاولة للتوفيق بين اسطورة القداح وصحة نسب الفاطميين[٢] .

(٢) يلوم لويس على الاعتماد على روايات الدروز الخرافية لتأييد نظريته ، ويراها غير جديرة بالقبول .

(٣) يبين ان فكرة الامام المستقر والمستودع ترجع الى وقت متأخر حين صار انتقال الامامة من الأب الى الابن بصورة ميكانيكية أمراً مقبولا .

ويدعي ان هذا التقسيم الى امام مستقر ومستودع لم تكن اليه حاجة إذ يمكن الاستنتاج غالبا من الكتب الاسماعيلية الاولى بأن المبدأ المتبع هو ان الصغير لا يمكن ان يكون أماماً[٣] .

---

(٦) نفس المصدر ص ٥١ . يستند لويس في نظريته هذه الى كتاب اسماعيلي مهم وهو غاية المواليد تأليف سيدنا (هكذا) الخطاب . وقد نشر النص الذي اعتمد عليه في ذيل كتابه (ص ١٠٩) كما نشره ايفانوف من مخطوطات اخرى في كتابه Rise of the Fatimid: (ص ٣٦-٧٠ من النصوص العربية) ونظراً لاهمية النص ، المستقلة واضمين نص لويس بجانب ايفانون (ص ١٤٠-١٤١ من هذا الكتاب .

(٢) Ivanov, op.cit. p. 153 (٣) Ibid pp. 45-9

وأخيراً يقول ان كتب الاسماعيلية المذهبية والسرية تجمع وتؤكد انه لا يمكن ان تنتقل الامامة الى أي شخص ليس من عترة فاطمة (١).

ولا يمكننا الوقوف ساكتين أمام هذا التضارب . ومع اننا بلينا بقلة المراجع (ومن يكلف نفسه عناء البحث في بغداد يقدر ذلك) الا ان بيان الرأي لازم .

نص لويس

« وذلك ما روي عن الامام جعفر الصادق (ص) في تسليمه الامر الى ولده اسماعيل (ص) وغيبة اسماعيل وولده محمد بن اسماعيل في حد الطفولة ولم تكن الامامة ترجع القهقري منه كما لم ترجع من غيره . فاودع حجته المنصوبة بين يديه ميمون القداح مقامه لولده واقامه ستراً عليه وقدمه بين يديه ، واستكفله اياه الى بلوغه اشده . ولما بلغ اشده تسلم وديعته ، ثم جرى الامر في عقبه

نص ايفانوف

وذلك ما روي عن الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) المصدق الامين في تسليمه الامر الى ولده اسماعيل بن جعفر وغيبة اسماعيل وولده محمد بن اسماعيل في حد الطفولية ، ولم تكن الامامة ترجع القهقري منه كما لم ترجع من غيره . فاودع حجته المنصوبة بين يديه مقامه لولده واقامه ستراً عليه وقدمه بين يديه واستكفله اياه الى بلوغه اشده (س) . فلما بلغ اشده تسلم وديعته ،

(١) Ibid p. 15-9

تتمة نص لويس

خلفاً عن سلف حتى انتهى الأمر به الى علي بن الحسين بن احمد بن محمد بن اسماعيل . . . بن علي ابن ابي طالب . وكان على يديه طلوع الشمس وذلك انه لما ظن النور باسقاً باليمن وبلاد المغرب سار ولي الله في ارضه علي بن الحسين يريد بلاد المغرب حتى كان في بعض طريقه من الشام واظهر الغيبة واستخلف حجته سعيد الخير الملقب بالمهدي (ع) فثبت قواعد الدعوة ... ولما حضرت المهدي النقلة سلم الوديعة الى مستقرها وتسلمها محمد بن علي القائم بأمر الله وجرت في عقبه حتى انتهت الامامة الى مستقرها ومعدنها ، وأطمأنت بموضعها وموطنها .

تتمة نص ايفانوف

ثم جرى الامر في عقبه خلفاً عن سلف حتى انتهى الامر به الى علي ابن الحسين بن احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل . . . .

وذلك انه لما ظهر النور باليمن وبلاد المغرب ، سار ولي الله في ارضه علي بن الحسين (ص) يريد بلاد المغرب حتى كان في بعض طريقه فاظهر الغيبة واستخلف حجته سعيد الملقب بالمهدي (س) فثبت قواعد الدعوة . . . فلما حضرت المهدي النقلة سلم الوديعة الى مستقرها وتسلمها محمد بن علي القائم بامر الله تعالى وجرت الامامه في عقبه (س) حتى انتهت الامامة الى مستقرها ومعدنها واطمأنت بموضعها .

فانا اوافق ايفانوف على ان المصادر الدرزية لا يمكن الوثوق بها وانها مملوءة بالمتناقضات فيما يخص علاقة القداحين بالفاطميين كما ان فيها آراء لم تكن موجودة في الدعوة الاسماعيلية الأصلية.[1] ولكني مع ذلك لا اطمئن الى مناقشته.

فهو يشير الى خطأ في نص غاية المواليد الذي اعتمد عليه لويس. ولكن مقارنة هذا النص بالنص الذي نشره ايفانوف (انظر ص ١٤٠-١٤١ من هذا الكتاب) تدل على ان المعنى واحد. ثم يناقش ايفانوف كتاب غاية المواليد منطقيا بعد ان يقول انه لا يوجد ما ينفيه او يؤيده[2] فيبدأ بنفي نسبته الى سيدنا (هكذا) الخطاب (+٥٣٣هـ) دون ان يبين سبباً تاريخياً[3] بل يذهب ابعد من ذلك فيحاول نسبته الى سيدنا (هكذا) ادريس (٨٧٢هـ/١١٦٨م) دون تبيان سبب ليدعي ان الكتاب كتب في زمن متأخر وبذلك يقلل من قيمته في معرفة اول الدعوة ولانه يعرف ان سيدنا ادريس في كتابه «زهر المعاني» أيد ما جاء في غاية المواليد وعندئذ يعتبر الروايتين من وضع شخص واحد. وواضح ان هذه فرضيات لا يمكن قبولها دون سند. هذا بالاضافة الى وجود بعض الاختلاف في التفاصيل بين الروايتين[4].

ولذلك فنحن نرى في زهر المعاني تأييداً لفكرة المستقر والمستودع. فادريس يصرح بان الامام الحسين اقام المهدي اماماً «ستراً على ولي الله ولده القائم من بعده» و يعتبر المهدي «حامل أمانة الله ووديعته

(١) انظر Ivanov, op. cit p. 146-155 (٢) Ibid p. 57 (٣) Ibid p. 56 (٤) قارن النصوص الاسماعيلية في كتاب ايفانوف ص ٣٦-٣٧ وص ٦٥-٦٧

ومسلمها الى القائم بأمر الله ولده المنقطب اليه بتعليمه وافادته » [1] ويقول لما توطدت قوانين الدعوة الهادية .. بالمهدية .. سلم الامام المهدي بالله الى ولده القائم رتبته وأدى اليه وديعته وأمانته » [2] .

أما قول ايفانوف بأن فكرة المستقر والمستودع لم تظهر إلا في وقت متأخر لعدم وجود الحاجة اليها ، ففيه نظر ، فلدينا الآن كتاب اسماعيلي مصري (من النصف الاول للقرن السادس) [3] يتحدث عن الامام المستقر والمستودع كشيئ معروف . كما ان الحاجة في فترة الخطر - فترة الائمة المستورين - كانت ماسة الى تفويض اسم الامامة الى شخص ليمكن تدبير قوة الدعوة وتنظيمها دون ان يعرض الامام العلوي نفسه للخطر .

أما ادعاؤه بان كتب الاسماعيلية تجمع على عدم جواز انتقال الامامة لغير فاطمي فغير صحيح ، فنجد في كتاب اسماعيلي « ان المستقرين من الائمة صلوات الله عليهم وأحداً بعد واحد ومولوداً عقب والد من صاحب الجثة الابداعية (يعني آدم) الى انقضاء الدنيا ، لا انقطاع لذلك ابد الدهر . والمستودعون يكونون من الذرية ومن غير الذرية على قدر ما توجبه الازمنة وتقتضيه سياسة صاحب وقت كل مستودع من

(١) ايفانوف نصوص ص ٦٧ (٢) نفس المصدر ص ٧١ (٣) مؤلف الكتاب مجهول ولكنه كتب في خلافة الطيب ٥٢٤-٥٤٤ هـ انظر « اربعة كتب اسماعيلية » باعتناء شتروتمان — غوتنغن ١٩٤٣ ص ١١٥ .

حدود أئمة الزمان (ص) . » [١] . وهكذا نرى ان مناقشة ايفانوف لا تخلو من الضعف .

ومن هذا تظهر خطورة نظريات الاسماعيلية في الامامة ودورها الهام في تطور الحركة ونجاحها واتجاهها السياسي .

ولعل الاسماعيلية ينفردون عمن تقدمهم بتبلور فكرة الامام المستور وبالتنظيم الدقيق لدعوتهم . ولكن علينا ان نتذكر ان جذور الحركة مغمورة في الغلو ، وانها ظهرت في عصر انتشار الفلسفة اليونانية . فالأثر الفارسي قوي فيها حتى ان الاستاذ براون يعيره الاهمية الكبرى [٢] .

اما المؤرخون المسلمون فيؤكدون اهمية دور « الثنوية والمجوس » في الحركة ويعتبرونهم عنصراً رئيسياً في نشوئها [٣] . فالبغدادي يقول « وذكر اصحاب التواريخ ان الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس وكانوا مائلين الى دين اسلافهم » . [٤] ويقول أيضاً « لا نجد على ظهر الارض مجوسيا إلا وهو مواد لهم (الباطنية) منتظر لظهورهم على الديار ، يظنون ان الملك يعود اليهم بذلك » [٥] ويتحدث ابن النديم عن زيدان او (دندان) وهو اهوازي بذل المال بسخاء

(١) اربعة كتب اسماعيلية ، باعتناء شتروتمان . غوتنغن ١٩٤٣ ص ١١٥

(٢) براون ج ١ ص ٣١١ وص ٤٠٧ . (٣) انظر المقريزي ج ٤ ص ١٩ — ٢٠ ابن الجوزي ج ٥ ص ١١٠ ، الديلمي ص ٥ الدوري .. العصر العباسي الاول ص ٨٣ — ٨٥ . (٤) البغدادي ص ٢٦٩ . (٥) نفس المصدر ص ٢٧٠

لنشر الدعوة الاسماعيلية [١] فيقول انه كان « متفلسفاً حاذقاً بعلم النجوم شعوبياً شديد الغيظ من دولة الاسلام . كان يزعم انه وجد في الحكم النجومي انتقال دولة الاسلام الى دولة الفرس ودينهم الذي هو المجوسية» [٢]

ويحاول مؤرخوا الفرق اظهار المذهب الاسماعيلي كمذهب ثنوي . فيقول البغدادي: « وذكر زعماء الباطنية في كتبهم ان الاله خلق النفس فالاله هو الأول والنفس هو الثاني وهما مدبرا هذا العالم وسموهما الاول الثاني ، وربما سموهما العقل والنفس .. وقولهم ان الاول والثاني يدبران العالم هو بعينه قول المجوس باضافة الحوادث الى صانعين : احدهما قديم والآخر محدث . إلا ان الباطنية عبرت عن الصانعين الاول والثاني وعبر المجوس عنهما بيزدان واهرمن » [٣] .

وقد انقسم الباحثون تجاه هذه المسألة ، فالبعض يقبل نظرة مورخي الفرق [٤] والبعض يرفضها

فماسفيون يعتقد ان رعب السنة لسرعة انتشار المبادىء القرمطية وتوسعها في اكثر مراكز الاسلام جعل مؤرخي الفرق يرون فيها حركة معادية للاسلام ، ناشئة عن دين اجنبي — المزدائية ، المزدكية (خرمية) ، المانوية — وعن عداء عنصري كحركة ايرانية ضد العرب [٥] .

---

(١) انظر Lewis. p. 69 - 71 (٢) ابن النديم ص٢٧٦ (٣) البغدادي ص ٢٦٩ (٤) مثل دي ساسي ، ودي غويه وكيارد (٥) vol II p. 770 . Massignon, E. I.

ويرى ايفانوف ان الحركة الاسماعيلية هي نتيجة تطور منطقي مستقيم لمبادي الاسلام الاولي [١]. وانها تمثل تذمر الناس ضد العباسيين والكره الشديد لعائلتهم [٢] وانها كانت ضد فكرة العنصرية، بل انها تدعو الى جمع الشعوب تحت راية واحدة هي راية الاسلام [٣].

ولكننا ان لاحظنا تطرفاً في تهم مؤرخي الفرق للحركة الاسماعيلية فليس معنى ذلك انها خالية من الصحة. فما لاشك فيه ان هناك صلة وثيقة بين آراء الاسماعيلية والآراء التي تتمثل في الحركات الدينية في في ايران كالراوندية والخرمية والبابكية [٤]. ففكرة التأويل مانوية في الأصل [٥]. وفكرة البنوة الروحية معروفة عند الكيسانية [٦]. والآراء في الحلول والرجعة والتناسخ معروفة لدى جميع الغلاة [٧] وفكرة ايداع الامامة الى شخص، معروفة عند بعض فرق الغلاة قبل الاسماعيلية [٨]. ثم ان الحركة الاسماعيليه استفادت كثيراً من برنامج الخرمية الاجتماعي مع بعض التعديلات التي اقتضتها الخبرة المكتسبة وتبدل الظروف، وانها تكون حلقة هامة في نمو المبادىء المزدكية التي تطورت بظهور الاسلام

---

(١) Ivanov, opsk. cit. p. XVII (٢) Ibid p. 132 (٣) Ibid p. XVII (٤) الدوري – العصر العباسي الاول ص ٣٦ – ٧ وص ٨٤ – ٥ (٥) Browne, vol. I. P. 139 ويرى كل من ايفانوف وماسنيون انها اسلامية دون ان يوضحا ذلك. انظر E. I. VOL. II. و Ivanov. P. XVII. (٦) اخبار بني العباس (خط) و Lewis p. 28-9 (٧) الشهرستاني ج٢ ص١٠ – ١١، ويرى براون انها اراء كامنة في التربة الايرانية وانها تظهر كلما انبعث ج ١ ص ١١٣ (٨) Lewis P. 50.

واكتسبت ثوباً اسلامياً، فظهرت في الخرمية وفي البابكية، وثم في الاسماعيلية. وقد ادرك المؤرخون المسلمون ذلك حتى قالوا، ان المزدكية والخرمية والبابكية والاسماعيلية حركة واحدة.[1] ويذكر ابن الجوزي ان من اسمائهم المزدكية «وان ذلك لانتسابهم الى مزدك صاحب الثنوية، ولانه بمذهبهم في السابق والتالي (او العقل والنفس) واستباحة الاموال والفروج».[2]

ويؤكد المؤرخون على تأثرهم بالفلسفة اليونانية. فيقول الشهرستاني: «ثم ان الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا كتبهم على ذلك المنهاج»[3] ويقول الديلمي «ومن وجدوه (الاسماعيلية) فيلسوفاً فهو منهم».[4] ويظهر هذا جلياً في رسائل اخوان الصفا الذين كانوا كما يظهر اسماعيلية حاولوا قلب المجتمع عن طريق نشر الثقافة والفلسفة بشكل مبسط بين الجمهور».[5]

ويرى ماسنيون ان الحركة الاسماعيلية تتميز من الناحية الثقافية بانها جعلت اللغة العربية مطاوعة لبعض انتاج الاجانب الفكري وخاصة الانتاج الهيليني. ويعتقد انهم كالمعتزلة يمثلون اليقضة الاولى للفكر الاسلامي

---

(١) ابن الجوزي ج ٥ ص ١١ الديلمي ص ٥، (٢) نظام الملك: سياست نامة (٣) الشهرستاني ص ١٤٧ من الطبعة الاوربية (٤) الديلمي ص ١٦ وانظر ابن الجوزي ج ٥ ص ١١٠ والديلمي ص ٥ (٥) انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة «اخوان الصفا» ورسائل اخوان الصفا ج ١ ص ٧ – ٨ والهمداني: اخوان الصفا ص ١٦، ص ٢٣، ص ٢٦، نيكلسون – تاريخ الادب العربي ص ٣٧١ وايفانوف ص ٢٥٠–٢، ص ٦٠، ص ٦١، ص ٦٧

على اثر اتصاله بالعلوم اليونانية .[١]

— ٤ —

ولعل اروع ما في الحركة الاسماعيلية تنظيمها واساليب دعايتها العجيبة التي تدل على ادراك عميق لنفسيات شعوب الشرق الادنى وعلى فهم دقيق لمصادر التذمر عندهم . فقد كانوا يعتنون باختيار دعاتهم كل الاعتناء ويزودونهم بارشادات مهمة تتفق وروح البيئة التي يدعون فيها .

يقول براون « الداعي شخصية فارسية تماماً بأوصافها واساليبها ، لم تتغير منذ زمن ابي مسلم حتى اليوم (في البابية) »[٢]. وكان الداعي يتظاهر عادة بمهنة معروفة — تجارة ، طبابة ، كحالة — وكانت اولى غاياته ان يأخذ بألباب من حوله ويحملهم على الاعتقاد الراسخ بتقواه وصلاحه. وللوصول الى ذلك كان يكثر من الصلاة والصوم واعطاء الصدقات حتى يكون لنفسه شهرة بالصلاح ويجمع حوله حلقة من المعجبين به . وكان يهتم كثيراً بمعرفة عقائد سامعيه فيخاطبهم باللهجة المناسبة . ولذا كانت تلك اللهجة تختلف بأختلاف مذهب المدعو او دينه.[٣] فمثلا يظهر التشيع امام الشيعة ، ويقول بانتظار المسيح امام اليهود ، والمسيح هو محمد بن اسماعيل ، ويعظم الثالوث امام المسيحيين ، والكواكب امام الصابئة ،

(١) Massignon, E. I. vol. II, p. 767 ; p. 771. (٢) براون ج ١ ص ٤١٠ (٣) الديلمي « و يتكلمون مع الناس على قدر عقولهم ودرجاتهم ... و يدخلون على كل فرقة من فرق الامة المسلمة وغيرها من جهتهم » ص ١٥ « ويميلون الى كل قوم بسبب يوافقهم » ابن الجوزي ٥ : ٤١ .

والنار والنور امام المجوس ، ويقول بقدم العالم وبابطال النواميس امام الفلاسفة ، ويستخف العبادة امام اهل المجون [١] ويؤكد ان الفطنة في اتباع اللذ. وبهذه الوسيلة يخلق جواً من الالفة بينه وبين المدعوين .

ولما كان الناس مختلفين في ذكائهم وفي استعدادهم لقبول المبادئ الاسماعيلية فانهم اتبعوا طريقة التنشيء ، بان جعلوا الدعوة على درجات يمر بها المدعو حسب قابليته واستعداده . وكانت درجات التنشيء سبعا ويظهر انها كانت كذلك عند قرامطة العراق . فابن النديم يشير الى أحد كتب الاسماعيلية الاولى وهو كتاب « البلاغات السبعة » ويوضح درجات الدخول في الدعوة فيقول « ولهم البلاغات السبعة وهي : كتاب البلاغ الاول للعامة ، كتاب البلاغ الثاني لفوق هؤلاء قليلا ، كتاب البلاغ الثالث لمن دخل المذهب سنة ، كتاب البلاغ الرابع لمن دخل في المذهب سنتين ، كتاب البلاغ الخامس لمن دخـــل في المذهب ثلاث سنين ، كتاب البلاغ السادس لمن دخل في المذهب اربع سنين ، كتاب البلاغ السابع وفيه نتيجة المذهب والكشف الاكبر » [٢] . ومن هـــذا يتبين وجود حد زمني للانتقال من درجة الى درجة في المذهب .

ثم جعلت المراتب تسعا على ما يظهر [٣] . وفيما يلي نورد موجزا لتلك الدرجات

(١) الديلمي ص ١٥ – ١٦ ، ابن الجوزي ج ٥ ص ١١٤ – ١١٥

(٢) الفهرست ص ٢٦٨ (٣) المصدر الرئيسي هو النويري، نهاية الارب، وهو خطي ولكن De Sacy ترجمه في مقدمة كتابه La Religion des Druzes ثم انظر البغدادي ص ١٨٢ وما بعدها ، والمقريزي ج ٢ ص ٢٢٧ وما بعدها ، والديلمي ص ٢٥ وما بعدها .

(١) يبدأ الداعي بحذر وتأن في عرض مبادئه، محاولا اثارة حب الاستطلاع في نفوس سامعيه، وبث روح التساؤل فيهم وان يحملهم على الاعتقاد بحكمته ورجاحة عقله. ومع ذلك فهو مستعد في اية لحظة لان يتراجع متى لاحظ فيهم بوادر الشك والهياج. فيسأل الداعي من يدعوه عن بعض « المشكلات وتأويل الآيات ومعاني الامور الشرعية وعن شيء من الطبيعيات ومن الامور الغامضة». ثم يتحدث عن الدين من حيث هو علم مستور ويؤكد المعاني الخفية لأوامره، ويبين ان التمسك بظواهر الاوامر الدينية يؤدي الى الضلال كما يبين « ان الآفة التي نزلت بالامة وشتتت الكلمة واورثت الاهواء المضلة (هي) ذهاب الناس عن ائمة نصبوا لهم واقيموا حافظين لشرائعهم يؤدونها على حقيقتها ويحفظون معانيها». [١] فاذا اظهر المدعو رغبة في التعليم، بدأ الداعي ببعض الشرح، ثم يقف في وسطه، مبينا ان اسرارا آلهية كتلك لا يمكن بيانها الا لمن اقسم بالولاء للامام (امام الزمان) ممثل الله المختار على الارض والمستودع الوحيد لعلم الباطن الذي يعلمه لمن اظهر نفسه جديراً بذلك. وغاية الداعي هي الحصول بالدرجة الاولى على هذا الولاء مؤكداً بقسم غليظ، ومعبراً عنه بدفع ضريبة للامام. وفي القسم عهد بالا يفشي بالمدعو سر الدعوة، والا يساعد اياً كان من اعدائها ضدها، والا يحاول التآمر عليها وان يكون ناصحا للاسماعيلية. [٢]

---

(١) المقريزي ج ٢ ص ٢٢٧ (٢) انظر المقريزي ٢ : ٢٢٧ - ٢٢٨ ترى امثلة من اسئلة الدعاة. وانظر ص ٢٣٤ منه والديلمي ٢٧ - ٢٩ لترى نص القسم.

(٢) يفهم المدعو ان رضا الله لا يكون بمجرد اتباع أوامر الاسلام ، بل يستلزم معرفة معناها الباطن عن « ائمة نصبهم للناس واقامهم لحفظ شريعته » .

(٣) يعلم المدعو ان الائمة سبعة ، و يفهم شيئاً عن معنى رقم (سبعة) في العوالم الروحية والمادية . وهكذا يفصل بصورة أكيدة عن مذهب الامامية (الاثنى عشرية فيما بعد) ويقرر عنده « بان محمد بن اسماعيل عنده علم المستورات و بواطن المعلومات التي لا يمكن ان توجد عند أحد غيره . وان عنده أيضاً علم التأويل ... وعنده سر الله تعالى في وجه تدبيره المكتوم ... وتأويل التأويلات ، وان دعاته هم الوارثون لذلك كله من بين سائر طوائف الشيعة »(١) كما يفهم ان بقية الائمة هم اشخاص اعتياديون .

(٤) يعلم المدعو الادوار النبوية السبعة ، وطبيعة الناطق والأساس ، والأئمة الستة الباقين (الصامتين) الذين يخلفونه ، وان كل ناطق ينسخ شريعة سلفه ، وان محمداً ليس آخر الانبياء ، كما ان القرآن ليس آخر ما انزله الله ، بل ان محمد بن اسماعيل هو الناطق السابع والأخير ، القائم صاحب الزمان « الذين انتهى اليه علم الاولين وقام بعلم بواطن الامور الامور وكشفها واليه المرجع في تفسيرها دون غيره ، وعلى جميع الكافة .

---

(١) المقريزي ٢ : ٢٣٠ .

اتباعه... لان الهداية في موافقته واتباع الضلال والحيرة في العدول عنه»[١]

(٥) يتعلم المدعو بصورة واسعة معنى الارقام (٧، ١٢) وتطبيق التأويل. ويتعلم معنى الرقم (١٢) والاعتراف بالحجج الاثني عشر الذين يسيرون دعوة كل امام.

وهؤلاء الحجج موزعون على جزر الارض الاثنى عشرة. ويرى ايفانوف ان الجزر تعني القطع وتفسيرها هنا شعوب الارض الاثني عشر وهم: العرب، الترك، البربر، الحبش، الخزر، الصين، الديلم (ايران)، الهند (شرق افغانستان)، السند (عامة الهند)، الصقالبة. وهذا التقسيم يستند احياناً الى اساس جغرافي واحياناً الى اساس اثنوغرافي[٢]

(٦) يعلم المدعو «تفسير معاني شرائع الاسلام: من الصلاة، والزكاة، والحج، والطهارة، وغير ذلك من الفرائض بامور مخالفة للظاهر» ويقتنع بان مراعاتها ليست بالمهمة بل يمكن نبذها ظهريا، لانها وضعت من قبل مشرعين حكماء لضبط العامة. ثم يحثه الداعي على النظر في كتب الفلاسفة ويزين له «الاقتداء بالادلة العقلية والتعويل عليها».

(٧) لا يصل هذه الدرجة الا الدعاة الذين يستطيعون فهم طبيعة المذهب الحقيقية وغايته. وهنا يطلع المدعو على المبدأ الثنوي في «السابق» (المفيد) و «التالي» (او المستفيد واللاحق) الذي يقصد به هدم عقيدة المدعو بمبدأ التوحيد.

---

١) المقريزي ج ٢ ص ٢٣١، ٢) Ivanov, opt. cit. p. 21.note

(٨) هنا يشرح مبدأه السابق» و«التالي» بشكل يجعل المدعو في زمرة الثنوية . ويعلم المدعو « ان معجزة النبي الصادق الناطق ليست غير اشياء ينتظم بها سياسة الجمهور وتشمل الكافة مصلحتها بترتيب من الحكمة تحوي معاني فلسفيه تنبيء عن حقيقة آنية السماء والارض وما يشتمل العالم عليه باسره من الجواهر والاعراض فتارة رموز يعلقها العالمون وتارة بافصاح يعرفه كل احد . فينتظم بذلك للنبي شريعة يعرفها الناس»[١] ويفهم المدعو بتأويل معنى القيامة والحشر والثواب والعقاب .

(٩) وفي هذه المرحلة يزول كل اثر للعقائد ، ويصبح الشخص فيلسوفاً له الحرية بان يتبع اي مذهب وحده ، او مزيجاً من المذاهب (فلسفية ودينية) يناسب ميوله . ويروي النويري ان الكثير يتبع مذهب ماني او ابن ديصان او المذهب المجوسي (المزدكي؟) واحياناً مذهب افلاطون وسقراط ، وفي اغلب الأحيان يقتبس بعض الآراء من كل هذه المذاهب ويربطها معاً .[٢]

وتعرف هذه الدرجات بالاسماء التالية :

(١) الزرق والتفرس اي معرفة نفسية المدعو ومدى استعداده لقبول الدعوة (٢) التأنيس (٣) التشكيك اي جر المدعو الى الشك للنظم في

---

(١) المقريزي ج ٢ ص ٢٣٢ (٢) Browne Vol. I. P. 410.

ويقول المقريزي في آخر فصله عن الدعوة « وهذا حاصل علم الداعي ولهم في ذلك مصنفات كثيرة منها اختصرت ما تقدم ذكره » ج ٢ ص ٢٣٣ .

عقائده . (٤) التعليق اي اخذ القسم (٥) الربط (٦) التدليس (٧) التأسيس (٨) الخلع (٩) السلخ او المسخ .(١)

وهكذا يتضح لنا ان جمهور مؤرخي السنة اتهموا الاسماعيلية بانهم كانوا يريدون سلخ الناس عن المذاهب والاديان وخاصة عن الدين الاسلامي ليتركوا لهم الخيار فى اتباع اى مذهب ، وخاصة المذاهب الفلسفية والمجوسية بروح يصحبها التسامح الديني المطلق . وقد صرح ابن النديم بعدم اطمئنانه الى معلوماته بعد ان استقاها من ابن رزام ،(٢) بينما اعترف ابن الجوزي بأنه اخذ معلوماته عن الاسماعيلية « من اقوام تدينوا بدينهم ثم بانت لهم قبائحهم فتركوا مذهبهم » .(٣) وهذا مايدعو الى الشك في الكثير مما يروي عن الاسماعيلية .

يرى ماسنيون ان الغرض من التنشئ هو ان يبين بان ظاهر كل المذاهب والاديان يخفي وراءه الباطن نفسه ، وان التنشئ ينتهي بتعليم الفلسفة النظرية والتفكير الفلسفي . وهو يعتقد بان الاسماعيلية هيئوا الاذهان لفهم الفلسفة اليونانية ونزلوا الفلاسفة القدماء (افلاطون وفيثاغورس مثلا) منزلة الانبياء ، واثاروا جماعتهم لقراءة بعض الكتب الفارسية ككتب جاماسب) ، ونظروا لاصحابها كانبياء .(٤)

---

(١) الديلمي ص ٢٥ ، البغدادي ص ٢٨٠ وما بعدها

(٢) الفهرست ص ٢٦٤ وص Casanova, opt. cit., P. 10 off. ٢٦٨

(٣) المنتظم ج ٥ ص ١١٧ (٤) E. I., Vol. II P. 770-771

اما ايفانوف فيستنتج من دراسته الكتب الاسماعيلية (ولاشك في انه يتحمس في الدفاع عن هذا المذهب) بان المذهب الاسماعيلي اثاره وغذاه شعور ديني عميق وانه ادق المذاهب توحيداً، وان غايته المثلى هي الانتصار الاخير للدين الاسلامي ، والتوحيد النهائي للبشر في ظل امام واحد من آل الرسول ، فهو وحده القادر على هداية الانسانية المعذبة الى حياة هادئة صحيحة ، وهو يملأ الارض عدلا ورخاء بعد ان ملئت ظلماً وشقاء . (١)

اما انا فأرى ان للمذهب الاسماعيلي كان يستهدف قبل كل شيء احداث ثورة اجتماعية ، ويرى في الدين الاسلامي اساساً للنظام القائم ، فحاول بطريقة التأويل والتفشي توحيد المتذمرين من كل العناصر والاديان في جو من التعاون والحرية الفكرية لتقويض المجتمع واقامة آخر لا استغلال فيه ولا تحكم دين اوعنصر .

والان — وبعد هذا العرض المجمل الشامل لحركة الاسماعيلية ننتقل الى البحث عن حركة اخرى لها صلة وثيقة بالحركة الاسماعيلية العامة ، تلك هي حركة القرامطة في العراق وبادية الشام ويجب ان نعترف بأن هذه الصلة مضطربة ، كما ان المعلومات عن القرامطة معقدة وذلك بنتيجة الارتباك في اطلاق هذا الاسم على فرق دينية مختلفة (٢)

---

(١) Ivanov, op t. cit., P. XVI - XVII

(٢) Ivanov, opt. cit P. 45

١ـ يتفق جمهور المؤرخين على ان حركة القرامطة في العراق وسورية كانت جزء من الدعوة الاسماعيلية .

ولدينا روايتان في مبدأ الدعوة فى العراق :

فالرواية الاولى فحواها : انه بعد وفاة عبد الله بن ميمون القداح ارسل ابنه وخلفه احمد، الداعي حسين الاهوازى فجاء سواد الكوفة يقصد منطقة (قس بهرام)، [1] فلقي فى طريقه حمدان بن الاشعث الملقب بقرمط ودعاه الى مذهبه ، فاستجاب حمدان بعد ان استوثق منه الداعي بقوله « ان تجعل لي والامام على نفسك عهد الله وميثاقه الا تخرج سر الامام الذي القيه اليك ، ولا تفشي سري ايضاً » . [2] ثم دعا حمدان صاحبه للاقامة في داره ودعوة اهل قريته . فرضي وقام بالامر فتبعه اهل القرية ومكث هو بينهم يعيش من شغله في الحياكة . وكانوا يجلونه كثيراً لانه يصوم النهار ويقوم الليل . ومما زاد فى احترامه ان احد اغنياء الكوفة استأجره لحراسة تمره فأدى واجبه بكل امانة . وكان حمدان موضع ثقة الاهوازي ولذلك كشف له عن خططه دون تحفظ . ولما حضرته الوفاة عهد الى حمدان بزعامة الدعوة . [3]

اما الرواية الثانية فمؤداها ان اهوازيا قدم سواد الكوفة (منطقة النهرين) ، وكان يظهر التنسك والتقشف ويدعو الناس الى امام من اهل

---

(١) اومنطقة النهرين ولعلها منطقة واحدة . (٢) ابن الجوزي ٥ : ١١٣
(٣) De Sacy vol, I.p. Clxxi المقريزي ٢ : ٣٢٤.

البيت . واشتهر بالأمانة ولا سيما بعد ان استأجره بعض التجار لحراسة تمرهم . ثم اعتل و بقي مطروحا على الطريق حتى مرضه « رجل يحمل على اثوار له ، احمر العينين شديد حمرتهما. وكان اهل القرية يسمونه كرميته .. وهو بالنبطية احمر العينين » .[1] ولما أبل دعا اهل القرية الى مذهبه فاجابوه . وكان يأخذ من كل رجل دخل مذهبه ديناراً للامام . وعندما لاحظ انتشار دعوته اختار لها اثنى عشر نقيباً من اصحابه، وفرض على اتباعه خمسين صلاة كل يوم وليلة فكان ذلك مما يعوقهم عن العمل. ولما لاحظ رجل يسمى الهيصم تقصير فلاحيه في عملهم وعرف مصدر ذلك قبض على الاهوازي وسجنه ليقتله في اليوم التالي إلا ان جاريه الهيصم اطلقته سراً فاعتقد الناس انه اختفى . و بعد مدة ظهر في جهة اخرى وقال للناس انه لا يستطيع أحد ايذاءه ولكنه قرر الرحيل الى الشام خوفا على نفسه ، واستخلف حمدان محله .[2]

ومهما يكن من شيء فالذي يمكن استخلاصه من هاتين الروايتين هو ان احمد بن عبدالله القداح أرسل داعية الى منطقة الكوفة فنجح في بث الدعوة فيها . وكان اهم من استجاب له حمدان الملقب بقرمط . فعهد اليه الداعي برئاسة الدعوة (عند وفاته او عند عودته الى الشام) . ويرى De Goeje ان الحسين الاهوازي هو ابن عبدالله بن ميمون القداح

---

(١) الطبري ١١ : ٣٣٨ (٢) الطبري ١١ : ٣٣٨
De Sacy. vol I. p. Clxxvi ، ابن الجوزي ٥ : ١١٢

وانه رجع الى سلميه بعد تنظيم الدعوة في العراق. كما يرى ان بدء الدعوة كان حوالي سنة ٢٦١ هـ [١]. لكننا نميل الى الاعتقاد بان الاهوازي هو أحد اتباع عبدالله بن ميمون المخلصين ارسله أحمد بن عبدالله الى العراق [٢].

— ٢ —

ويفهم من المؤرخين ان اصل تسمية القرامطة مأخوذ من «قرمط» لقب حمدان ولا يهمنا اختلاف الكتاب في تفسير معنى اللقب [٣].

ولكن ايفانوف لا يرضى بنسبة الحركة الى حمدان قرمط ويحتج على اهمال المؤرخين فكرة النمو والتدرج بين الجماهير، ومحاولة نسبة الحركات الى اشخاص. [٤] ثم يقول ان «كرامته» او «كرموته» - وهي كلمة عراقية جنوبية لم تستعمل في العربية في أية جهة اخرى — تعني الفلاح أو القروي. ثم عربت بعدئذ الى «قرمط» وهي كلمة عربية لها معان مختلفة وان هذا التعريب حصل في اسم زعيم محلي وهو حمدان قرمط فاعتبرت كل الجماعة اتباعه وسميت باسمه، ولو ان الكثير من افرادها قد لا تكون لهم صلة به [٥]. وهذا تعليل له وجاهته.

---

(١) De Goeje P. 31 ; De Sacy, Vol I. P. Clxviii

(٢) المقريزي ٢ : ٣٣٤ الفهرست ٢٦٥ (٣) انظر ابن الجوزي ٥ ص ١١٢، De Goeje p. 197 Sq. ، الطبري ج ١١ ص ٣٣٨، راجع ابن خلكان، الصحاح، شفاء الغليل للخفاجي (٤) Ivanov P. 69 (٥) P. 76 E. I., Vol. II P. 767

ويظن كسنوفا Casanova ان القرامطة هم في الأصل من الكيسانية ثم اتحدوا بالاسماعيلية فيما بعد. (١)

أما ايفانوف فيقول بان الروايات الواردة عنهم تشير الى اجتماع غريب لعناصر دينية متضادة في تكوين المذهب القرمطي. فمثلا نرى ترك مراسيم العبادة الاسلامية (رفض الظاهر) بجنب التدين الظاهر في فرض خمسين صلاة يوميا على كل فرد (٢)، وكذا وجود مجموعة كبيرة من الائمة الذين اعترفوا بهم من اسماعيلية وكيسانية، كما ان بعض العقائد المنسوبة اليهم تتصل بالكيسانية أو بالخطابية وحتى بآراء الخوارج (٣). وهذا لا يستبعد إذا قدرنا المزيج المزج الداخلي للعقائد وهو محتمل في عقائد الجماهير في السواد وخاصة وقدكان بينها في اوقات مختلفة اتباع لتلك الفرق (٤).

وعلى كل فلم يكن للقرامطة كيان اواسم حتى يضمهم حمدان قرمط (٥).

— ٣

أما حمدان فلعله كان نبطيا من قرية في سواد الكوفة و « كان يميل الى الزهد » (٦). و يظهر انه كان « اكارا بقارا » (٧)، ويصفه ابن النديم

---

(١) casanova, oit, cit, P. 3. وهو متأثر بنص كتاب يورده الطبري ج ١١ ص ٣٣٩ و ينسبه الى القرامطة (٢ انظر الطبري ج ١١ ص ٣٣٨ (٣) نفس المصدر ج ١١ ص ٣٣٩ ٤ Ivanov p. 69-70 (٥ انظر الطبري تحت سنة ٢٧٨ ج ١١ ص ٣٣٧ (٦) ابن الجوزي ٥ : ١١٣ . الطبري ١١ : ٣٣٨ ٧) ابن النديم ٢٦٥ . الطبري ١١ : ٣٣٨ . اي انه كان اكارا يحمل على البقر .

بانه كان داهياً .[١] ويعتقد De Sacy بانه رجل طموح خصب القريحة اظهر حماساً عظيماً للدعوة [٢] . ولا شك في انه قام بدور خطير في حركة القرامطة . ويجب ان لا يغرب عن بالنا ان الظروف كانت عوناً له وفي صالحه . فقد كان لحركة الزنج وما اورثته من تخريب وفوضى في جنوبي العراق أثر حاسم في تسهيل نشر الدعوة في مختلف جهاته . وقد حاول حمدان التحالف مع صاحب الزنج ، فقابله وفاوضه ، ولكنه اخفق في ذلك .[٣] وبعد القضاء على حركة الزنج لم تفكر الحكومة في اتخاذ تدابير جدية لقمع حركة القرامطة الناشئة . فيذكر الطبري انه بعد أن فشا أمر القرامطة بسواد الكوفة وكثروا ، اطلع العامل أحمد بن محمد الطائي (ولي سنة ٢٦٩ ﻫ) على أمرهم ففرض على كل منهم ضريبة شخصية قدرها دينار وحاول بعض الكوفيين تنبيه الحكومة الى خطرهم ، ولكن لم يعاروا التفاتة .[٤].

اتخذ حمدان مقره في كلواذى على مقربة من بغداد ، ليكون على صلة بالدعوة في ايران وبرئيسه القداحي (الذي عينه الامام) في عسكر مكرم ، وليرقب مجرى الاحوال في بغداد عن كثب ولعله كان يطمح الى بث الدعوة في العاصمة نفسها وربما نجح في ذلك لحد ما [٥]. ويجعل ابن النديم بدء فعاليته سنة ٢٦١ ﻫ وقد نجح حمدان فعلاً في نشر دعوته في

---

(١) ابن النديم ٢٦٥ . (٢) De Sacy vol. I. p. Clxxiv
(٣) الطبري ١ : ٣٣٨ - ٣٣٩ ٤ نفس المصدر ٥ ابن النديم ١٦٥ .

السواد مستغلا الظروف السيئة التي كانت تتعاوره وغفلة الحكومة. فكان يأخذ من كل تابع – بعد ان يقسم يمين الاخلاص للامام – ديناراً. ويفرض عليه يومياً خمسين صلاة [١]. ثم عين اثني عشر نقيبا لتنظيم الدعوة وبثها [٢]. وهذا التنظيم مما يدل على مدى انتشار الحركة ودرجة تأثرها باساليب الدعاية العباسية. وقد انضم اليه علاوة على السواديين بعض العرب، واتخذ بعضهم دعاة لبث الدعوة بين كثير من القبائل بنجاح. وهذا مما زاد قوة حزب حمدان [٣]. وكان اكبر رجال حمدان وساعده الأيمن نسيبه عبدان الذي كان اليه الاشراف المباشر على الدعاة كما يظهر. ومن بين دعاة الأخير المشهور بن ذكرويه الذي ادرك عبدان مزاياه، فولاه منطقة واسعة من السواد، كما عين ابا سعيد الجنابي لجنوب ايران [٤]. وكان لعبدان عدد كبير من الدعاة يذهب كل منهم مرة في الشهر على الأقل لزيارة منطقته. ويظهر ان عبدان كان فقيه الحركة القرمطية في هذا الدور ومؤلف عدة كتب من كتبها الهامة [٥].

اظهر حمدان مقدرة فائقة في التنظيم، فوضع بعض التدابير التي تكشف لنا عن اهمية العامل الاقتصادي الاجتماعي في الحركة وتلقي ضوء على سر انتشارها. وقد اشار النويري الى ذلك بشيء من التفصيل فذكر سلسلة من الضرائب فرضها حمدان بالتدريج. إذ بدأ بأخذ ضريبة

---

(١) الطبري ١١ : ٢٣٩٩ (٢) De Goeje P. 27 (٣) De Goeje P. 31. (٤) De Sacy P. CLXXXV (٥) يذكر ابن النديم منها ثمانية ص ٢٦٥

بسيطة من جميع الاتباع باسم (الفطر) وقدرها درهم على الرجل او المرأة أو الطفل [١]. وبعد مدة فرض ضريبة الهجرة وهي دينار واحد على كل بالغ [٢]. ولعلها كانت لغرض انشاء دار الهجرة . وكان الاتباع ملزمين بدفعها بالتضامن يساعد الغني منهم الفقير . ثم فرض ضريبة البلغة وقدرها سبعة دنانير [٣]. يدفعها كل من اراد ان يشارك في « عشاء المحبة » (Agapi).وهي اكلة لذيذة قال لهم حمدان انها طعام أهل الجنة أرسله اليه الامام . واخبرهم ان هذه اعظم درجة يدركها الانسان في العقيدة وان اهل البلغة هم المقربون . وبعد ذلك طلب من الاتباع خمس اموالهم [٤]، وقام باحصاء دقيق لاموال اتباعه وامتعتهم حتى ان المرأة كانت تدفع خمس غزلها . واخيراً فرض عليهم نظام (الالفة) الذي اراه أول مثل للاشتراكية طبق في الاسلام [٥]. ثم نصح اتباعه بشراء الاسلحة استعداداً للثورة كما يظهر وقد تمت هذه التدابير سنة ٢٧٦هـ

وبعد ان تأكد حمدان من سيطرته على اتباعه حلل لهم ترك الفرائض الدينية وقتل اعدائهم واخبرهم بان الدين معرفة الأمام وطاعته فقط . ثم جمع الدعاة وقرروا اختيار محل ليكون « دار هجرة ينحازون اليها ويجتمعون بها » فاختاروا قرية قرب الكوفة تدعى (مهاباد) ونقلوا اليها الاحجار واحاطوها بسور قوي وانشأوا فيها بناية واسعة ،

---

(١) وهي الصدقة التي تدفع عند انتهاء شهر رمضان (٢) استنادا الى القرآن س ١٩ آية ٥٤ (٣) استنادا الى القرآن س ٢٧ آية ٦٥ (٤) استنادا الى القرآن س ٨ آية ٤٢ (٥) استند في الالفة الى س ٣ آية ٩٨ وس ٨ اية ٦٤ وسنشرح في القسم الاخير

فلجأ اليها عدد كبير من الرجال والنساء من مختلف المناطق وكان ذلك سنة ٢٧٧ هـ (١) .

٤ —

وفي الوقت نفسه سارت الدعوة بنشاط خارج العراق فبدأت في اليمن سنة ٢٦٦ هـ / ٨٧٩ م على يد ابن حوشب الذي أرسله احمد بن عبدالله من العراق . وفي سنة ٢٧٠ هـ أصبحت علنية . وفي سنة ٢٩٣ هـ عرفت بغداد انهم غلبوا على « سائر مدن اليمن » (٢) .

وأرسل عبدان ابا سعيد الحسن بن بهرام الجنابي الى جنوبي ايران ، فاظهر مقدرة كبيرة ولاقت تعاليمه الاولى نجاحاً كبيراً . فبشر بان الله غضب على العرب لانهم قتلوا الحسين ، وانه يحب شعب الاكاسرة الذين هم وحدهم ايدوا حقوق الأمام وقال بان تعاليم محمد فيها كثير من الخطأ . ونجح ابو سعيد في تطبيق مبادئه الاشتراكية واشرف بنفسه على ادارة اموال جماعته (٣) ، ولكن الشرطة اكتشفت فعالياته وصادرت امواله ، فهرب واختفى . ثم دعاه حمدان الى مقابلته في كلواذى واراد استغلال قابلياته في منطقة اخرى . فزوده الدراهم والتعاليم وأرسله الى البحرين حيث لاقى نجاحه الأكبر كما سنرى (٤) .

---

(١) ... De Sacy (المقدمة) Goeje P. 27-31 ... انظر

(٢) بندلي جوزي ص ١٢٥ ، طبري ١١ : ٣٩٤ De Sacy P.255 off (المقدمة) Goeje P ... الحادي ص ٢٢ وما بعدها Ivanov. P

(٣) كان ابو سعيد تاجر طحين ويلاحظ في تعاليمه انها صدى لآمال الفرس وميولهم .

(٤) De Goeje P. 33 34

٥ —

وفي هذا الحين شعر قرامطة العراق بقوتهم وبدؤا بحركاتهم العسكرية. فيذكر الطبري انهم تحركوا اول مرة سنة ٢٧٨ ﻫ ولكن يظهر ان بغداد شعرت آنئذ بخطورتهم لانه لا توجد اشارة الى ثورة فعلية في تلك السنة.(١) وفي سنة ٢٨٤ ﻫ يرد اول ذكر لثورة قرمطية صغيرة. ومما يجلب الانتباه انه كان لهم اتباع مهمون في العاصمة ذاتها(٢).

ثم رفعوا علم الثورة في جنبلا (بين واسطة والكوفة) في ذي الحجة سنة ٢٨٧ ﻫ « وقتلوا من المسلمين جمعاً فيهم النساء والصبيان، واحرقوا المنازل »(٣). وعندئذ انجد المعتضد عامله بدر الذي هاجمهم على غرة منهم « فقتل منهم . . . مقتلة عظيمة ثم تركهم خوفا على السواد ان يخرب إذ كانوا فلاحيه وعماله »(٤). وفي اوائل سنة ٢٨٩ ﻫ ثاروا مرة اخرى في العراق « وانتشروا في سواد الكوفة » فدحرهم الخليفة، وأسر أحد رؤسائهم الذي يعرف بأبي الفوارس فقتله(٥). ويذكر المسعودي ان ابا الفوارس وعد بالرجوع بعد اربعين يوما، وان العامة كانت تتجمهر لتشهد ذلك حتى فرقتهم الشرطة اخيراً(٦) وفي هذه السنة نسمع أول مرة شيئاً عن القرامطة اتباع ذكرويه في الشام.

٦ —

وهنا تعترضنا مشكلة مهمة وهي تخلي حمدان قرمط وعبدان عن

(١) الطبري ١١ : ٣٣٨ (٢) الطبري ١١ : ٣٦٠ (٣) الطبري ١١ : ٣٦٩ .
(٤) الطبري ١١ : ٣٧٠ . (٥) الطبري ١١ : ٣٧٢ ، ابن الاثير ٧ : ١٦٩ يذكر محاكمته . (٦) المسعودي ٤ : ٢٠٢

الدعوة وخروجهم على رئيسهم الاكبر. ويفسر النويري ذلك بان حمدان الذي كان على صلة بر ئيسه في سلمية لاحظ تعابير غير مألوفة في رسائله، تدل على تبدل مهم. فساوره الشك في الامر، وارسل عبدان ليتحرى الوضع فعرف عبدان ان احمد بن عبدالله قد توفي فخلفه ابنه حسين [1]، ولما اجتمع عبدان بالحسين بن احمد سأله عن الامام المدعو له وعن حجة ذلك الامام. فاجاب الحسين مستفسراً باستغراب « ومن هو الامام اذن ؟ » فقال عبدان انه محمد بن اسماعيل بن جعفر صاحب الزمان الذي دعا له احمد بن عبدالله بن ميمون وكان حجته فاستنكر القداحي ذلك وقال ان الامام كان والده وانه حل محله الآن. وعندئذ ادرك عبدان حقيقة القداحين وانهم انما خدعوا الناس وارادوا اجتذابهم نحوصفوفهم بان اتخذوا اسم محمد بن اسماعيل ذريعة.

ثم اطلع عبدان نسيبه على ما عرف من امر الامام فاشار عليه بجمع الدعاة، وبين لهم الواقع. ثم امرهم بايقاف الدعوة، فنفذ امره واوقفت الدعوة في المناطق التابعة له وقطع الدعاة صلتهم بسلميه. ولكنه لم يستطع ايقافهم في الاماكن الاخرى التي تسربت اليها الدعوة. ويبين النويري ان حمدان ترك كلواذى واختفى من مسرح التأريخ وان احد ابناء عبد الله ابن ميمون ومقره الطالقان، مر بسواد الكوفة وحاول ان يجد حمدان فلم يستطع وقابل عبدان ليرجعه الى الدعوة فاخفق، فتآمر مع ذكرويه وقتل

---

١ يظهر ان الحسين بن احمد سمي نفسه الوصي او صاحب الامر اي انه اتخذ القاب الامام.

عبدان وكانت هذه الحوادث في سنة ٢٨٦ ـ ٢٨٧ ﻫ / ٨٩٩ـ٩٠٠م .[١]

ويرى (دي خويه) ان انفصال حمدان وعبدان كان نتيجة لاختلاف عبيد الله المهدي وداعيته ابي عبد الله الشيعي . اذ شك هذا الداعي في ان المهدى هو الامام واخذ يتآمر ضده . فقتله المهدي (آخر سنة ٢٩٨ﻫ) وكتب الى اتباعه في المشرق ان عبد الله الشيعي ضل فطهره بالسيف . ويعتقد ان حمدان وعبدان ادركا من هذه الحادثة ان المهدي ليس الا رئيس الدعاة سعيد عبيد الله الذي هرب من سلمية ، واذا فالامام المستور ما هو الا اسطورة خدعابها ، فانفصلا عن الدعوة وتلا ذلك اختفاء حمدان الغريب ومقتل عبدان . ويرى (دى خويه) ان مقتل عبدان وربما حمدان كذلك كان من تدبير عبيد الله المهدي .[٢] . ولكن هذا التعليل يجعل انفصال حمدان سنة ٢٩٨ ﻫ في حين ان المصادر تبين ان دور حمدان انقضى نهائياً قبل سنة ٢٨٧ ﻫ وان حركات القرامطة في العراق والشام بين سنة ٢٨٩ ـ ٢٩٤ ﻫ كانت بزعامة آل ذكرويه . هذا بالاضافة الى ان قتل الشيعي لا يمكن من استنتاج ما استنتجه (دي خويه) .

ولايفانوف فرضية يفترضها وهي انه عند وفاة الحسين بن احمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل (٢٦٨ ﻫ / ٨٨١ـ ٢ م) خلفه اخوه محمد بن احمد، اكبر افراد العائلة الاسماعيلية . وبعد وفاته (حوالي ٢٨٣ﻫ/ ٨٨٦م) خلفه في الامامة اكبر ابناء اخيه وهو ابو محمد أخو المهدي . ولكن هذا

(١) De Sacy, Introd. pq. 193-200

(٢) De Goeje q. 66-68

كان معلولا وغير نشيط لحل محله كما يظهر اخوه الاصغر الطموح عبيد الله المهدي فولد ذلك تذمرا في بعض الجهات وادى الى انفصال حمدان قرمط واختفائه ولعله توفي لانه كان مسناً . وينسب مقتل عبدان الى يحيى بن ذكرويه الذي كان طموحاً فاصطدم بعبدان وقتله بحجة عدم ولائه للامام.[1] وفي هذا التفسير نقاط مشكوك فيها . منها انه ينفي وجود الامامة المستودعة ويفترض ان المهدي علوي ، ويفترض ان الاسماعيلية تقبل انتقال الامامة من اخ الى اخيه - وهذه نقاط فيها نظر .

ولي رأي متواضع اذكره بحذر . وهو ان انفصال حمدان واتباعه عن الدعوة راجع الى تباين في المبادي . فالنوبختي يبين ان القرامطة - جماعة حمدان - كانوا من المباركية ، ثم اختلفوا عنهم بأن قالوا اول الامر بأن الامام السابع هو محمد بن اسماعيل ، وهو الامام القائم المهدي وهو رسول ،[2] وكونوا لهم طريقة خاصة بهم ، «زعموا ان محمد بن اسماعيل حي لم يمت وانه في بلاد الروم وانه القائم المهدي . ومعنى القائم عندهم انه يبعث بالرسالة ويبشر بشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد[3] واذاً فالقرامطة كانوا ينتظرون عودة محمد بن اسماعيل ليبشر بالشريعة الاخيرة وبكلمة اخرى انهم لايرون في اعمال الدعوة الا تمهيداً لرجوعه واذاً فلا معنى للامام المستور عندهم . ويؤيد هذا الرأي مايقوله النويري عند ما يذكر ان عبدان قال للقداحي ان الدعوة لمحمد بن اسماعيل وان القداحي

(١) Ivanov, opt. cit. p. 59-60 (٢) النوبختي ص ٧٢ .

(٣) نفس المصدر .

هو حجته فقط . واذاً فهذا الاختلاف بين جماعة حمدان وغيرهم هو سبب انفصالهم .

— ٧

وعلى اثر انفصال حمدان ، خمدت فعاليات القرامطة في العراق ولكنهم ابدوا نشاطاً في الشام بزعامة ذكرويه بن مهرويه الدنداني . ويبين النويري ان ذكرويه هو احد دعاة عبدان (ويقول الطبري « انه كان داعية قرمط » [١]) . وكان ذكرويه رجلا قديراً له النفوذ الاعلى في منطقته بالسواد وبعد ان انفصل حمدان حاول أحد ابناء القداح ارجاعه وعبدان الى الصواب فاخفق وعندئذ اسندت رئاسة الدعوة الى ذكرويه ولكن ذكرويه اوضح ان وجود عبدان ونفوذه على القرامطة يحول دون قيامه بالواجب ، ولذلك اتفقا على الفتك به ، فتم لهما ذلك . ولما اطلع اتباع عبدان على دخيلة الامر اضطربوا واخذوا يبحثون عن ذكرويه لقتله فاختفى [٢] . ثم يبين النويري ان ذكرويه عندما ادرك ان عامة اهل السواد الذين هم خارج حدود منطقته كانوا على الضد منه ، فكر في نشر دعوته بين القبائل في بادية الشام [٣] ولكن الطبري [٤] ينسب هذا الاتجاه الى حزم المعتضد وتتابع جيوشه لسحق قرامطة العراق ، مما سد المجال امام ذكرويه في السواد .

ويقول الطبري ان ذكرويه اراد « استغواء من قرب من الكوفة

(١) ج ١١ ص ٣٧٧ (٢) يضع النويري ذلك سنة ١٨٦

(٣) De Sacy, Introd.. p. 198-200 انظر ايضاً Ivanov p. 76

(٤) ج ١١ ص ٣٧٨

من اعراب اسد وطي وتميم وغيرهم من قبائل الاعراب « فارسل اولاده اليهم وادعوا انهم من نسل محمد بن اسماعيل ، وانهم لاجئون اليهم خوفا من السلطان « ثم دبوا فيهم بالدعاء الى رأي القرامطة فلم يقبل ذلك احد منهم اعني من الكلبيين الا الفخذ المعروفة ببني العليص بن ضمضم بن عدى بن جواب خاصة »[١]

اما كتاب « استتار الامام » — وهو مؤلف اسماعيلي — فله رواية اخرى يفهم منها :

أ . ان ابا الحسين بن الاسود رئيس دعاة المهدي[٢] هو الذي نشر الدعوة بين القبائل في بادية الشام .

ب . وان عبدان — على ما يظهر — بقي على صلة بسلمية ولو انه كان على خلاف معها .[٣] ويظهر ان رئاسة الدعوة في السواد صارت لذكرويه بن مهدويه (ابي محمد زكريا بن المهدي الكوفي) ولكنه توفى عاجلا وخلف ثلاثة ابناء : ابا القاسم وهو الاكبر ، وابا العباس الحسين ، وابا الفضل محمد وهو الاصغر . فحل يحيي محل والده . ولكن طموحه سرعان ما ادى به الى الاصطدام بعبدان ، فقتله بحجة عدم الولاء للامام . فادى ذلك الى استياء جماعة عبدان ودعا الى انشقاق رئيسي بين قرامطة العراق . ولكي يسترضي الامام المهدي جماعة عبدان عزل يحيي ، وعندئذ

(١) الطبري ١١ ص ٣٧٧ — ٨ . (٢) كان مركزه في حماة على بعد عشرين ميلا من سلمية Ivanov. p. 77 (٣) Ibid, p. 59

شعر الاخوة بحيف ، ففاوضوا المهدي لحل المشكل ودامت المفاوضات حوالي سنة فلم تجد نفعاً . وعندئذ ســار وا الى سلمية للتفاهم مع المهدي فلم يجـدوه هنــاك لانه كان قد ذهب الى الرملة بعيد سنة ٢٨٦هـ-٨٩٩ م واختفى هناك . وكان سبب هربه الى الرملة اكتشاف فعالياته من قبل العبـاسيين ، وارسال الخليفة قوة للقبض عليه ، ولكنه اخبر على اجنحة الطيو ر بعزم الخليفة فهرب .

ور بما كان لذهــاب يحيى واخوته الى الشام غرض آخر ، وهو التفاهم على خطة القيام ضد العباسيين .

وعلى كل فبعد مدة وجيزة ذهب يحيى الى بنى العليص الذين انضموا الى الدعوة وتسموا بالفاطميين ، واشتغل اخوه الحسين (صاحب الشامة) اداة وصل بينه وبين المهدي في مخبئه ، بينما رجع الأصغر وهو محمد الى الـكوفة لينوب عنه في المر كز [١] .

ولـكتاب الاستتار أهميته الخاصة ، فهو مصدر اسماعيلي قديم ولعل صاحبه كان اعرف بخفايا الحركة من الطبري .

لبي البدو يحيى بحماس وساروا على الفرات وهاجموا فرقة عباسية بقيادة سبك الديلمي مولى المعتضد (آخر سنة ٢٨٩ اكتوبر ـ نوفمبر ٩٠٢ م) غربي الفرات قرب الرقة فهزموهــا وقتلوا قائدهــا ثم هاجموا الرصافة واحرقوا مسجدها [٢] .

---

(١) انظر ايفانوف ص ٦٠ — ٨٠ (٢) الطبري ج ١١ ص ٣٧٨ .

ثم ساروا الى الشام ، فلما وصلت الاخبار الى طغج (عامل هارون ابن خمارويه على الشام ومؤسس الامارة الاخشيدية فيما بعد) سار ضدهم بحملة تأديبية صغيرة ، والظاهر ان معلوماته عنهم كانت غير جيدة فظنهم عصابة من البدو فهزموه هزيمة منكرة ، وهرب الى دمشق . فهاجم القرامطة دمشق وضيقوا عليها الحصار حتى اشترك العامة في الدفاع عن مدينتهم . واخيراً جاءت النجدة من مصر ، ودارت معركة حامية بين يحيى الشيخ وجيوش الطولونيين امام دمشق في جمادي الآخرة ٢٩٠ هـ - مايس ٩٠٣ وانتهت بهزيمة القرامطة وبمقتل يحيى الشيخ . وهكذا كان دور هذا الزعيم قصيراً [(١)].

وكان يحيى قد ادعى انه من نسل محمد بن اسماعيل (ابو عبدالله ابن محمد بن اسماعيل ، او على قول آخر محمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل) وان له آيات « وذكر انه كان اذا اشار بيده الى ناحية من النواحي التي فيها محاربوه ، انهزم اهل تلك الناحية فاستغوى بذلك الاعراب » [(٢)] وادعى « ان ناقته التي يركبها مأمورة وانهم اذا اتبعوها في مسيرها ظفروا » [(٣)] .

ثم خلفه اخوه الحسين المشهور بصاحب الشامة لوجود شامة في

---

(١) نفس المصدر ج ١١ ص ٣٧٨ — ٣٨٠ (٢) نفس المصدر ج ١١ ص ٣٨٠
(٣) نفس المصدر ج ١١ ص ٣٧٨ . كان يحيى يقاتل على ناقة فسمي صاحب الناقة . وكان كما يقول الطبري ١١ : ٢٨٠ « يركب جملا برحاله ، ويلبس ثيابا واسعة ويعتم بعمة اعرابية ويتلثم » .

وجهه « ذكر انهما آيته »(١) وادعى انه احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل « ودعا الى مثل مادعا اليه اخوه ». فاجابه اكثر اهل البراري وغيرهم من سائر الناس واشتدت شوكته(٢). وقدحفظ لنا الطبري رسالتين من رسائله يظهر منها انه ادعى الامامة وانتحل لنفسه جميع امتيازات الامام(٣). ويفهم من الطبري انه « تسمى المهدي »،(٤) الا ان الخطبة تليت في حمص سنة ٢٩٠ هـ تدل على انه كان يعتبر نفسه ممثل المهدي وممهد الامر له. فقد جاء فيها « اللهم اهدنا بالخليفة الوارث المنتظر المهدي صاحب الوقت أمير المؤمنين. اللهم املأ الأرض به عدلا وقسطا ودمر اعداءه. اللهم دمر اعداءه »(٥).

واظهر الحسين نشاطا كثيراً ومقدرة عظيمة. وكان المكتفي (٢٨٩ – ٢٩٥ هـ) قد أمر في رمضان ٢٩٠/ تموز ٩٣٠ باعداد حملة ضد القرامطة وذلك بنتيجة تذمر الناس من فضائع القرامطة. وبلغ عدد افرادها حوالي عشرة آلاف بقيادة ابي الاغر، ففاجأها القرامطة في

---

(١) الطبري ج ١١ : ص ٣٧٨ . (٢) نفس المصدر ١١ : ص ٣٨٠-٣٨١
(٣) الطبري ج ١١ : ص ٣٨٤ — ٣٨٥ De Goeje p. 48-49
(٤) ابن الاثير ج ٧ ص ١٧٢ ، الطبري ج ١١ ص ٣٨١ . (٥) نص الخطبة عن ثابت بن سنان، انظر لويس ص ١٠٩ . ويقول لويس انها تليت باسم يحيى الشيخ ولعله استقى ذلك من ثابت. ولكن هذا غير صحيح لان حمص فتحت على يد الحسين كما يذكر الطبري وابن الاثير . ويتبين لي أيضاً ان كلا من هذين المؤرخين يقول بأن الحسين تسمى بالمهدي اعتماداً على هذه الخطبة . انظر الطبري ج ١١ : ص ٣٨١ ، ابن الاثير ٧ ص ١٧٢ . انظر ايضاً مجلة الآداب بالجامعة المصرية ايلول ١٩٣٦ ص ٩١ .

وادي بطنان قرب حلب ومحوها [١] .

ثم سار الحسين الى دمشق ولكنه لم يدخلها لأن اهلها صالحوه « على خراج دفعوه اليه » ثم تغلب على حمص وحماة ومعرة النعمان والنهب والقتل يصحبانه في كل مكان . ثم نكب سلمية (مقر القداحين حتى آنئذ) بصورة خاصة فذبح عامة السكان حتى صبيان الكتاتيب [٢] ويظهر انه اراد قتل عبيد الله المهدي وكل من عرفه . [٣] وضج أهل الشام من فضائعه واستنجدوا بالخليفة المكتفي ، فجد هذا الى مقاتلته ، وأرسل الجيوش بقيادة قائد يقظ وهو محمد بن سليمان الكاتب . فسارت هذه القوة تجاه سلمية وقابلت القرامطة على بعد اثني عشر ميلا من حماة . وقدم صاحب الشامة قواته وبقى وراءها مع خزائنه . وفي ٧ محرم ٢٩١ هـ / ٣٠ نوفمبر ٩٠٣ هزم القرامطة في المعركة . ولما سمع صاحب الشامة هرب مع المدثر ابن عمه ، والمطوق صاحبه ، وغلام له الى الصحراء وأخذ دليلا وسار يريد الكوفة ولكن الجوع والتعب على ما يظهر انهكاهم . فقبض عليهم في دالية ابن طوق على الفرات وهم يحاولون الحصول على المؤنة وجيء بهم الى بغداد مع الاسرى الآخرين ، فقتلوا بعدما اذيقوا العذاب الأليم [٤] .

ثم جمع ثالث الاخوة ، قوة من القرامطة وقام ببعض الغارات في جنوبي الشام ، فقاست منه طبرية خاصة الأمرين ، ثم انسحب الى

---

(١) Ivanov p. 82-83 . (٢) الطبري ١١ : ص ٣٨١ . انظر استتار الامام مجلة كلية الاداب المذكورة ص ١٠٠ (٣) De Goeje P. 50 استتار الامام ص ١٠٠ . (٤) الطبري ١١ : ص ٣٨٣ — ٣٨٦ — ٣٨٩

الصحراء [١] ويظهر ان المهدي ترك الرملة في طريقه الى شمال افريقية بعد القبض على صاحب الشامة [٢] .

نستطيع ان نعزو اخفاق حركة ابناء ذكرويه الى عوامل متعددة منها انها لم يكن لها الوقت الكافي للتنظيم ، ولعل الحركة بدأت قبل اكتمالها [٣] ثم ان انصارها كانوا من البدو بالدرجة الاولى ولم يكن هناك تعاون وثيق بين هؤلاء البدو واهل القرى. ثم ان قيادتها لم تكن ذات كفاية ومقدرة ولم تكن لها خطط منظمة ، حتى انحطت فعالياتها الى غزوات نهب وسلب . كما ان توتر العلاقة بين المهدي وابناء ذكرويه [٤] وسياسة المهدي السلبية كانت عاملا في تضعضع الحركة. فالمهدي كان يتجنب الخطر من بعد فهرب من سلمية حال تلبد الافق بالغيوم. ويعتقد ايفانوف ان ابتعاده عن حركات ابناء ذكرويه ناتج عن انه لا يمكنه اظهار البدو السفاكين مبشرين بظهور المنقذ . ويرى ان قتل صاحب الشامة لاقارب المهدي في سلمية انتقام منه لأن آل ذكرويه اعتقدوا بانه خانهم . ولا ننسى ان البدو لم يكونوا جيشاً نظامياً ، وقد تهدمت معنويتهم بعد الاخفاق الأول [٥] .

وعلى كل ، فالمعلومات عن دور أبناء ذكرويه قليلة ومرتبكة جداً . ومما زاد في ارتباكها طموح ابناء ذكرويه وانتسابهم لمحمد بن اسماعيل

(١) نفس المصدر ١١ : ص ٣٨٦ (٢) Ivanov,opt. cit. p.87

(٣) استتار الامام ص ١٩ وما بعدها .(٤) نفس المصدر ص ٩٧ــ ١٠٠

(٥) Ivauov, opt.cit. , p.87-93.

وتكدو علاقتهم مع المهدي .

وان قبلنا نظرية لويس في الأصل القداحي لعبيد الله المهدي ، امكن القول بان ابناء ذكرويه حاولوا أخذ محله ونصبوا انفسهم ائمة مستودعين للامام الفاطمي، ووجدوا في المهدي خصما لهم ، فحاولوا القبض عليه ومحو أثره .

(٨) ولننظر الى قصة الطبري والنويري عن سير القصة ومنها نفهم ما يأتي :—

كان ذكرويه يشرف على سير الحوادث من مخبئه ، فخاف ان تحطم الهزائم معنوية اتباعه فكتب اليهم « واعلمهم ان مما اوحي اليه ان المعروف بالشيخ واخاه يقتلان ، وان أمامه الذي يوحي اليه يظهر بعدهما ويظفر ».[1] كما انه ارسل داعيته ابا غانم الى بادية الشام سنة ٢٩٣ هـ فجمع حوله الاتباع وتمكن من نهب عدة مدن متطرفة (كبصرى واذرعات وطبرية وهيت) . ودعا نفسه بالناصر فجهز الخليفة جيشا لتأديبه . ولكن الانقسام بين اتباعه اودى بحياته اذ قتله أحد بني كلب متقربا الى الخليفة[2] . وعلى أثر هذه الحادثة دب الشقاق والتخاذل بين قرامطة الشام[3] فارسل ذكرويه داعية له « من اكرة اهل السواد» يدعي القاسم ابن احمد اخبرهم بغضب ذكرويه « وانهم قد ارتدوا عن

---

(١) الطبري ج ١١ : ص ٣٩٠ (٢) نفس المصدر ١١ ص ٣٩٤–٣٩٥
(٣) انظر استتار الامام ص ٩١ .

الدين وان وقت ظهورهم قد حضر وقد بايع له بالكوفة اربعون الف رجل وفي سوادها اربعمائة الف رجل» .(١) وطلب اليهم ان يسيروا الى الكوفة ليلحقوا بذكرويه فجاءوا سنة ٢٩٣ ﻫ وعندئذ خرج ذكرويه من مخبئه وجاء اليهم . فقال لهم القاسم « هذا صاحبكم وسيدكم ووليكم الذي تنتظرونه ».(٢) ثم انضم الى ذكرويه اتباعه في السواد وكانوا «من عربي ومولى و بنطي »(٣) وكان القرامطة يجلون ذكرويه ويسمونه « ولي الله »(٤) وهو من جهته لم يسمح إلا للقلائل برؤيته(٥) .

وبعد ان نظم ذكرويه قواته هاجم فرقة عباسية قرب الكوفة سنة ٢٩٣ﻫ وفي سنة ٢٩٤ ﻫ هاجم قوافل الحجاج ونهبها وقتل الكثيرين من اهلها(٦) . فارسل المكتفي قائده وصيف بن صوارتكين فانتصر على القرامطة في معركة حاسمة وأسر ذكرويه وهو جريح ، فتوفي في الطريق الى بغداد من جراحه سنة ٢٩٤ ﻫ وحمل رأسه اليها(٧) .

ولكن كتاب « استتار الامام » يبين ان ذكرويه قتل قبل الهجوم على سورية(٨) ويرى ايفانوف ان مؤرخي السنة نسبوا هذه

---

(١) الطبري ج ١١ : ص ٣٩٥ . ولعل هذه المبالغات من القاسم كانت وسيلة لتقوية معنويتهم . ونلاحظ هنا ان الطبري يعترف صراحة بأن آل ذكرويه كانوا يدعون للمهدي المنتظر . (٢) De Sacy, introd . p.20 عن النوري (٣) الطبري ج ١١ : ص ٣٩٧ (٤) نفس المصدر والصحيفة (٥) De Goeje p.57 (٦) يقال انه قتل عشرين الفا (٧) الطبري ج ١١ : ص ٣٩٨ (٨) استتار الامام ص ٩٦ .

الحركة الى ذكرويه ليزيدوا في مجد النصر ، ويرى ان هذا القائد الأخير هو قرمطي آخر [١] .

وكان انتصار صوارتكين ضربة حاسمة لهذا الفرع من القرامطة ولكنها لم تستأصلهم بل بقيت منهم شراذم متفرقة [٢] متكتمة في بعض الجهات حتى سنة ٣١٦ هـ حينما عاث قرامطة البحرين بسواد الكوفة فتشجعوا واعلنوا الثورة . فاجتمع منهم « بسواد واسط اكثر من عشرة آلاف رجل وكان رئيسهم حريث بن مسعود » . وتجمعت طائفة اخرى بعين التمر ونواحيها « في جمع كثير » بقيادة عيسى بن موسى « وكانوا يدعون الى المهدى » . ووفق عيسى الى احتلال قسم من سواد الكوفة ، بينما بنى حريث في الموفقية داراً « سماها دار الهجرة » . ثم عاثوا في جنوبي العراق وعند ذلك سير المقتدر بعض فرق الجيش للقضاء عليهم وكان لها الفوز المبين عليهم ، « وأخذت اعلامهم بيضا مكتوبا عليها : ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » فكانت هذه الضربة الأخيرة لقرامطة العراق « واضمحل أمر من بالسواد منهم » [٣] .

وختاما نقول : ان حركة قرامطة العراق والشام باءت بالاخفاق للخلاف بين زعمائها القداحين ، وللتنازع بين الشيوخ الثائرين ، وللمقاومة العنيفة التي لاقوها من الخلفاء العباسيين وخاصة الخليفة المعظم المعتضد .

---

(١) Ivanov, opt. cit., p. 97. (٢) الطبري ١١ : ٣٩٨
(المقدمة) De Sacy p. 209 210, De Goeje p.56-7 (٣) ابن الاثير ٨ : ٥٨ .

المعنى الاجتماعي الاقتصادي لحركة القرامطة:

تأثرت الحركة القرمطية في العراق بظروف بيئتها الاجتماعية الاقتصادية. فقد كان منظمها الاكبر حمدان قرمط قرويا، عارفا بالمساوىء التي كان يشكو منها اهل السواد. ولفهم روح الحركة يجب ملاحظة أمرين:

(١) الجماعات التي انظمت اليها. (٢) المبادىء التي بشرت بها.

انتشرت الدعوة القرمطية بين الفلاحين الذين كانوا يئنون من ضغط الجباة، وجشع الملاكين، ومما زاد وضعهم سوءاً ثورة الزنج التي نشرت الدمار في سواد البصرة. يؤيد هذا ما يرويه الطبري من ان الطائي الذي اخمد ثورة سنة ٢٨٩ هـ توقف عن التنكيل بالقرامطة «خوفاً على السواد ان يخرب إذ كانوا فلاحيه وعماله».[1] وكذلك انتشرت بين اهل الحرف وعوام المدن الذين كان مستوى معيشتهم واطئا، وكانوا جهلة لا يفهمون الشريعة، ويرون ان أوامرها اشياء يمكن تركها متى تطلبت المصلحة ذلك. وهذا الجهل جعلهم طعمة سهلة للدعوة القرمطية الماهرة.[2]

ونجحت الدعوة القرمطية كذلك مع قبائل العراق الجنوبي وبادية الشام

---

(١) الطبري ١١ : ٣٧٠ (٢) الغزالي — فضائح الباطنية ص ٥٣، ابن الجوزي ٥ : ١١٧، البغدادي ص ١٤١.

الذين كان فقرهم مضرب المثل [١] .

هذه هي أهم الجماعات التي انتشرت بينها الدعوة مع انها كانت عامة . ولا يمكن القول بانها كانت لارجاع مملكة الفرس [٢] لانها ضمت الى صفوفها الفقراء العرب والنبط بينما وقفت الارستقراطية الفارسية على الضد منها [٣] .

اما من حيث المبادىء ، فقد هاجم القرامطة الامراء والعلماء وقالوا ان ساعة الخلاص من استعبادهم قريبة . [٤] وظهروا للناس ابطالا للسلم والرفاه اللذين وعد بهما العباسيون من قبل ولم يحققوهما . [٥] وأكدوا أهمية الناحية المادية . يقول الديلمي « ومنهم (القرامطة) رجل اصابه فقر ومسكنه فيطمعونه في سد الخلة وجبر الفاقة » [٦] . ويفهم من النويري ان الحسين الاهوازي قال لحمدان قرمط عندما سأله هـذا عن مهمته ما معناه « أمرت ان اروي هذه القرية واغني اهلها ، وان انقذهم ، واضع بيدهم ثروة اسيادهم » [٧] .

---

(١) البغدادي ١٤٢ ، ابو القاسم ص ٩٤ De Sacy p. 170 (المقدمة) (٢) البغدادي ١٤١—١٤٢ (٣) الطبري ١١ : ٣٩٧ ، Lewis-Islamic G.Wilds, E.H.R. 1937, p. 22; p. 100-102 (٤) Barthold, m. c. p. 72-77 الغزالي ص ١٠ (٥) De Geoje p. 24 (٦) الديلمي ص ٢٠ (٧) De Sacy p. 168 (المقدمة) ويروى ابن الجوزي الجواب كما يلي : « امرت ان ادعو اهلها (القرية) من الجهل الى العلم ، ومن الضلال الى الهدى ، ومن الشقاوة الى السعادة واستنقذهم من ورطات الذلة والفقر واملكهم مالا يستغنون بـه من التعب والنكد (ابن الجوزي ٥ : ١١٣) .

وقد ذهب القرامطة الى ان الدين سبب استعباد الجماهير وان نبي المسلمين «حرم عليهم الطيبات» وخوفهم باشياء لا تعقل مثل «البعث من القبور، والحساب والجنة والنار» وكانت نتيجة ذلك ان «ان استعبدهم بذلك عاجلا وجعلهم له في حياته ولذريته بعد وفاته خولا واستباح بذلك اموالهم بقوله : لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى.[1] فكان أمره معهم نقدا وأمرهم معه نسيئة». قالوا «وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها، وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والحج والجهاد ..»[2] ولم تقتصر نظرتهم هذه على الدين الاسلامي بل شملت بقية الاديان. فقالوا «ان المسمين بالانبياء كنوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة كانوا اصحاب نواميس ومخاريق احبوا الزعامة على العامة فخدعوهم بنيرنجات واستعبدوهم بشرائعهم»[3].

والخلاصة ان القرامطة قالوا بان الانبياء والحكام كانوا سبب استعباد الجماهير وشقائهم ماديا، وانهم يريدون ارجاع المساواة الاجتماعية وانشاء الرفاه المادي. وقد حاول حمدان تطبيق ذلك بانشاء مجتمع اشتراكي لاتباعه في السواد. ففي سنة ٢٧٦ هـ فرض على اتباعه نظام «الالفة» وبموجبه يجمع اموال القرية في محل واحد ليشترك الجميع في التمتع بها ويختار

---

(١) سورة الشورى : ٢٣ (٢) البغدادي ٢٨١ — ٢٨٢
(٣) البغدادي ٢٨٨ .

الداعي من اهل القرية رجلا ثقة ليتسلم كل ما يملكه اهل القرية من مال ومتاع وحلى ودواب . وهو من ناحيته يكسو العريان ، ويسد حاجات الناس الاخرى حتى لايبقى فقير بينهم .وكان كل فرد يشتغل بجد واخلاص ليحتل المركز الذي يليق بخدماته لخير المجموع . فالنساء يأتين بما يحصلن عليه من الغزل ، وحتى الاطفال يسلمون الجعل الذي يحصلون عليه من نظارة الحقول ، وليس للشخص أي ملك عدا سيفه وسلاحه . وقد قال حمدان لاتباعه انهم في غنى عن المال لأن الارض لهم (١) .

ومن هذا يتبين ان حمدان اعتقد انه لا يستطيع ازالة التذمر الاجتماعي الاقتصادي الا بانشاء المساواة المالية . ولهذا كان من الضروري قطع دابر الفقر . وخير وسيلة لذلك هي اشتراكية المال . وقد قوبلت تدابيره بكل حماس ولا سيما انه جعل مايعطاه للفرد يتناسب وحاجته، بينما جعل مركزه الاجتماعي يتناسب وقابلياته لخدمة المجموع. ولهذا فلانعجب اذا علمنا ان نظام الملك اعتبر الحركة القرمطية استمراراً لحركة مزدك الاشتراكية في العصر الساساني، تلك الحركة التي كان أساسها « توزيع المال حسب الحاجة » (٢) .

ولكننا لا ندري كم استمر نظام حمدان . ولعله انحل بانفصاله عن الدعوة الاسماعيلية . إلا ان آرائه الاشتراكية استمرت في البحرين

---

(١) De Sacy p. 189, Lewis p. 97-98 « المقدمة »

(٢) Lewis p. 96-100 ؛ عنان : الحاكم بأمر الله ص ١٩٠ - ١٩١

حيث انشأ الحسن الجنابي (أحد دعاته كما يظهر) دولة شبه اشتراكية [١]. كما ان روح تعاليم حمدان لم تختف باختفائه . فعندما ثار القرامطة سنة ٣١٦ هـ كانت لهم اعلام بيض مكتوب عليها « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين » [٢]. وهكذا كانوا دائماً يحلمون بقلب النظام الاجتماعي وبانتقال الثروة اليهم يوم الفوز المبين.

ونقول ان نزعة القرامطة المادية ورغبتهم في قلب النظام الاجتماعي كانت واضحة عند اخوان الصفا الذين حاولوا قلب المجتمع وانشاء العدل الاجتماعي عن طريق نشر المعارف بين الجماهير والتأكيد على شرف العمل واهمية اصحاب الحرف [٣].

ملحوظة : هذا الموضوع ملخص عن

Duri-studies on the Economic life of Mesopo tamia in the 10 th century. pp. 81-88.

— ٢

ويرى ماسنيون ان الحركة القرمطية (او الاسماعيلية) هي التي اوجدت النقابات الاسلامية واعطتها ميزاتها الخاصة التي حافظت عليها الى الان . إذ يقول ان النقابات الاسلامية كانت قبل كل شيء سلاحا

---

(١) لقد تعرضت لذلك في المقدمة ولا ارى ضرورة البحث عن قرامطة البحرين ، فقد عالج ذلك De Goeje في كتابه Memoire sur les Carmathes du Bahrain, Leide 1886

(٢) القرآن الكريم سورة ٢٨ آية ٥ .

(٣) Duri p. 88-91 .

شهره الدعاة القرامطة في كفاحهم لجمع طبقة العمال في العالم الاسلامي ولتكوين قوة منهم تستطيع قلب نظام الخلافة وكل ما تمثل. وللتوصل الى استغلال اصحاب الحرف اوجدوا النقابات وسيطروا عليها ، وهكذا أصبح لها خاصتان : اولا كونها نقابات للحرف ، وثانيا كونها مؤسسات قرمطية (١) .

وقد فحص لويس الدلائل المؤيدة لهذه النظريه فلاحظ عدة : منها اهتمام الاسماعيلية العظيم باصحاب الحرف وبالاصناف ، وان اخوان الصفا خصصوا رسالة في موسوعتهم للعمل واهله ولنبله الذاتي . ثم ان النقابات كانت مضطهدة في ظل الحكم السني ومقيدة بقيود كثيرة (كما يعتقد) وخاضعة لمراقبة دقيقة ـ في حين انها كانت مرفهة عند الفاطميين وتتمتع بامتيازات كثيرة . وهناك أثر الاسماعيلية ، حتى بعد اختفاء دعوتها ، في تطور النقابات ، ويستشهد لويس برأي كوبريلي بان الاصناف في الاناضول كانت تحتفظ بنظام متدرج في التنشيء يشبه بدقة النظام الاسماعيلي ، كما ان دراسة اصناف مختلفة في انحاء مختلفة من العالم الاسلامي اظهرت آثاراً مماثلة . واخيراً لاحظ وجود افراد من مذاهب واديان مختلفة بين اعضاء النقابات ، اذ يقبل اليهودي والمسيحي والمسلم بالشروط نفسها حتى ان بعضها يغلب فيها غير المسلمين كنقابات الاطباء والصاغة .

١) انظر Massignon-Paisson d'al-Halladj. vol. I. p. 339 ; p. 410

ثم استنتج لويس ان الحركة القرمطية قامت بدور هام في تطور النقابات الاسلامية وتركت اثراً عميقاً خالداً في حياتها الدخليه ثم اعترف بعدم وجود برهان واضح يبين ان الحركة القرمطية اوجدت النقابات ولكنه يرجح ان الحركة القرمطية بعثت روحا جديدة وتشكيلات جديدة في حركة موجودة من قبل (يقصد حركة النقابات) [١].

وليس هذا محل تفصيل نشأة النقابات الاسلامية ولكني ابين ان الذين بحثوا في الموضوع [٢] لم يستطيعوا معرفة اصول النقابات ، بل عرفوا تلك المؤسسات بعد ظهور فعالياتها على مسرح التأريخ بعد القرن الخامس الهجري بصورة خاصة . وقد أدى بي بحثي الخاص [٣] الى نتائج اذكر بعضها بايجاز : ـ

تكون التكتل بين اهل الحرف نتيجة لسوء وضعهم الاقتصادي وانحطاط منزلتهم الاجتماعية منذ القرن الثاني للهجرة . وظهرت بوادره في حركات العيارين والشطار الذين تسلسلت منهم حركة الفتوة المشهورة . [٤] ثم ان انتقال المجتمع العباسي من طور زراعي الى طور تجاري بالاضافة الى وضع اهل الحرف في احياء منفصلة خاصة بهم كما في بغداد وسامراء

---

(١) لويس — النقابات الاسلامية (معرب خطي) (٢) خاصة ماسنيون ولويس و Taeschner (٣) Duri-studies p. 81-91

(٤) ولا بد لي ان ابين ان عدم فهم المؤرخين لنبل مبادئ العيارين والشطار وتنظيماتهم الداخلية ، وملاحظتهم مظاهر اعمالهم فقط ، جعلتهم يقسون في الحكم عليهم .

ساعد على زيادة التكتل وعلى تعقيد التنظيم الداخلي عندهم . ولدينا دلائل قاطعة على تكون النقابات قبل ظهور الحركة الاسماعيلية [١] .

واذن فقد ظهرت النقابات الاسلامية نتيجة للوضع الاجتماعي والاقتصادي في المجتمع الاسلامي ، ولم تكن موروثة من العالم اليوناني الروماني كما يظن لويس [٢] وكانت تلك الاوضاع نفسها مسؤولة لحد كبير عن ظهور الحركة الاسماعيلية فيما بعد . وكان من الطبيعي ان يسعى دعاة الاسماعيلية والقرامطة لاستغلال اهل الحرف وعوام المدن للاستعانة بهم في الكفاح ضد العباسيين ، فنظموا ذلك التذمر مهم وقاموا بدورهم في تنظيمات اصحاب الحرف وفي اسسها النظرية . ولا بد من بيان ان اصحاب الحرف لم يكونوا دائماً مضطهدين في الدول السنية ، وان الرقابة على الصناعات حتى القرن الخامس الهجري لم تكن الا فنية هدفها منع الغش في المنتوج وفي المعاملات [٣] . وان حصل اضطهاد فيما بعد فان

---

(١) انظر التنوخي — الفرج بعد الشدة ج١ ص ١١٢ — ١١٤ ؛ المسعودي عن العيارين والشطار ودورهم في النزاع بين الامين والمأمون ؛ القشيري — الرسالة ص ١٢١ — ١٢٤ ؛ تلبيس ابليس لابن الجوزي ص ٣٩٤

(٢) لويس — النقابات

(٣) انظر الماوردي (٤٥٠ هـ) عن الحسبة ، وانظر رسائل الصابي .

ذلك كان بعد تأثر اصناف الحرف بالحركة الاسماعيلية [١].

والخلاصة أن النقابات ظهرت قبل الحركة الاسماعيلية . ولما ظهرت هذه حاولت ضم تلك الى صفوفها واثرت فيها بدعايتها وقامت بدور عظم في تطور مبادئها وتنظيماتها .

---

(١) انظر عن النقابات والاصناف .
Encyclopedia of Islam - art. SINF ; SHADD KARMATIANS; Encyclopedia of Social Sciences - art. GUILDS (Muslim)

عصر المقتدر

مقدمة

كان الخليفة المعتمد رجلا ضعيفاً كثير الانغماس في الترف واللهو ، وكان الموفق اخوه الذي اشركه في الحكم معه — قائداً قديراً وسياسياً محنكاً استطاع ان يقبض على زمام الامور وان يجعل اخاه ظلا له اما موسى بن بغا سيد الحرس فلم يعترض على تسلط الموفق بل قام بخدمته بولاء واخلاص .

نجح الموفق في القضاء على حركة الزنج الخطرة ، وانقذ الخلافة منْ خطر الصفارين حين حال دون تقدم يعقوب عند دير العاقول ، واظهر حزماً وبراعة في الادارة . ولكنه اخفق مع ابن طولون الذي ولي مصر بالنيابة سنة ٢٥٢ هـ والذي سرعان ما نجح في تقوية مركزه حتى صار يخشى انفصاله ، فحاول الموفق اخضاعه عسكرياً فخاب . وفي سنة ٢٦٤هـ ضم ابن طولون سوريا الى مصر ولما شعر هذا بتذمر المعتمد من هيمنة اخيه دعاه اليه الى دمشق ، فادى ذلك الى التصادم النهائي بينه وبين الموفق وانسلخت سورية ومصر نهائياً عن جسم الخلافة حتى سنة ٢٧٩ هـ ، حين قدم خمارويه بن احمد ولاءه للمعتضد .

وفي سنة ٢٧٨/٨٩٢ م توفي الموفق ، فانتقل المعتمد الى بغداد ، كما

انتقل السلطان الفعلي الى ابي العباس احمد المعتضد بن الموفق الذي نجح في تنحية ابن عمه عن العهد ثم بويع له بالخلافة عند وفاة عمه .

يوصف المعتضد بالشجاعة ، ومع انه لم يكن موفقاً دائماً في حروبه ، الا انه ورث قوة والده واشتهر بالنشاط والسرعة في اعماله ومع انه كان سريع الغضب الا انه كان شديد العدالة . وكان رقيق العاطفة ، الا انه كان قاسياً في الحق . هذا الى انه كان دقيقاً في محاسبة عماله وذلك شيء يحمد عليه في تلك الظروف المضطربة ، فقد بدأ حكمه وبيت المال خاو ، ومات وفي بيت المال الخاص عشرة ملايين دينار . ويقول المسعودي انه كان مولعاً بالنساء مغرماً بالبناء .

وقد اتم المعتضد ما بدأ به والده في تقوية كيان الدولة العباسية ، فقضى على الثورات الداخلية ، بان ضرب الاعراب والاكراد اللذين كانوا يعيشون في شمالي العراق ووسطه ، وقضى على ثورة الخوارج في الجزيرة ، وانزل بقرامطة العراق ضربات قوية حتى اخمدت حركتهم . واتبع مع الامراء المنفصلين سياسة اللين والمساومة ولم يغفل عن الفرص السانحة لاخضاعهم . فاستغل الخصومة القائمة بين آل ابي دلف الذين كانوا أشباه مستقلين في منطقة الجبال ، فضم تلك المنطقة ثانية الى الخلافة وشجع الخصومة بين الصفارين والسامانيين ، وبذلك تخلص من الصفارين ، وجعل علاقته بالسامانيين ودية . ونجح في تحسين صلاته بالطولونيين ، حتى استطاع في سنة ٢٨٥ هـ ان يضم الى جسم الخلافة غربي الجزيرة

الذي كان تابعا لسورية ، كما خضع له خمارويه نفسه واخذ يدفع له جزية سنوية .

واهتم المعتضد باصلاح الوضع المالي في العراق ، فاعتنى بتحسين نظام الري وبحفر القنوات ، وساعد الزراع بتقديم البذور والمعونة اليهم ، وحاول تحسين طرق الجباية وقام باصلاح مهم وهو تأخير موعد الجباية من نيسان الى حزيران ليتفق ذلك وموعد نضج الزرع واهتم بحماية الزراع من عبث الموظفين والجباة .

وبذل جهداً كبيراً لوضع الخزينة على اساس رصين، بان ضمن السواد للطائي مقابل كمية من المال تكفي نفقاته اليومية واهتم بتنظيم الضرائب حتى بلغ وارده حداً لم يصل اليه من قبل احد. ونظم الضرائب في المناطق التي أخضعها حديثاً ولا سيما في الجبال والجزيرة . وفي عهده انشىء ديوان الدار ليشرف على الدواوين المختلفة التي تنظر في الامور المالية وتنظيم اعمالها .

وكان للوئام بين القوة الادارية والجيش اثر يذكر في استرجاع الخلافة عزها فكان بدر قائد المعتضد مخلص لسيده ولا يتدخل في السياسة .

جاء المكتفي سنة ٢٨٩ ه الا انه لم يكن قاسياً قسوة والده فاجتذب قلوب الناس بهدم السجون التي انشأها المعتضد ولكنه من الناحية الاخرى لم يكن له حزم والده .فوقع تحت تأثير وزرائه والمقربين اليه خاصة مولاه فاتك، وورث عن والده حبه للبناء فقد بنى المعتضد قصر الثريا والفردوس ووضع اسس قصر التاج فاكمله المكتفي وبنى مسجداً في ساحة البلاط كما

انه ورث عن والده حبه لجمع المال ، فاضاف الى خزينة الدولة في خلافته القصيرة ما يزيد على اربعة ملايين دينار الى ماجمعه ابوه .

وتراءى للناس ان الخلافة استعادت مجدها واسترجعت عزها ، فقد قضى المكتفي على ثورات القرامطة في بادية الشام وسورية واخضع سورية للخلافة ، كما انه استغل الفوضى في مصر ، وتقدم الجيش هناك فنجح في القضاء على الطولونيين واسترجاع مصر سنة ٢٩٤ هـ ولكن صحة المكتفي لم تكن حسنة منذ طفولته فتوفي سنة ٢٩٥ هـ ولاحت سحابة سوداء في سماء الخلافة .

ومن المفيد القاء نظرة على الادارة العامة لنفهم التطورات التي حصلت في عصر المتقرر . كان الحكم في العصر العباسي اوتوقراطيا والخليفة مصدر السلطات إلا انه كان (نظريا على الأقل) مقيداً بالشرع . والشريعة تسير كل فعالية دينية او دنيوية مستقية اصولها من القرآن والسنة والاجماع ويفسرها الفقهاء القضاة ولهم ان يسترشدوا بالسوابق او يقيسوا عليها (القياس) . ولكن استقلالهم كان مقيدا بكونهم موظفين احيانا .

وكان الخليفة يمارس سلطته بواسطة الوزير ، وتختلف سلطة الوزير حسب قوة الخليفة وضعفه وحسب موقف الحرس التركي منه . وعلى كل فسلطة الوزير مفوضة اليه من الخليفة واذا ما استبد فالعاقبة وخيمة . ويساعد الوزير في الادارة العامة عدد من الدواوين يرأس الواحد منها

كاتب يعاونه في ذلك عدد من الكتاب الاصاغر . والوزير نفسه عادة من الكتاب كما ان الكتاب يرتقون الى مناصبهم من مناصب الكتاب الاصاغر .

ومن الدواوين المهمة في هذا العصر ديوان الخراج (للواردات) وديوان النفقات (الخرج) يشرف على كل منهما زمام ، وديوان الرسائل ، وديوان التوقيع ، وديوان الجند ، وديوان النظر في المظالم ، وديوان البريد ، وقد توسع ديوان الخراج حتى صرنا نسمع بعدة دواوين في بغداد تقوم باعماله ، وهي ديوان السواد ، وديوان المشرق وديوان المغرب في عصر المقتدر .

وكانت التعيينات للولايات من صلاحية الوزير . ولكل ولاية امير ، وعامل (على الخراج) وقاض وقائد وصاحب شرطة وصاحب بريد . وقد تكون تلك الوظائف بيد شخص واحد واحياناً بيد اشخاص متعددين . وكان الوزير يهتم بالدرجة الاولى بالمالية ، ويعنى قبل كل شيء بقضيه جباية الضرائب وانفاقها . وكانت الضرائب تجبي اول الامر من قبل موظفين خاصين ، ثم تلاشت هذه الطريقة بالتدريج وخلفتها طريقة الضمان وبموجبها يتعهد شخص ما بدفع مبلغ معين للخزينة سنويا مقابل السماح له بجباية ما يستطيع من اهل ولايته . واذا لم تكن الولاية مهمة بحيث يعين لها امير فالضامن اهم موظفيها وبذلك يتسنى له جمع كميات كبيرة من الهدايا والمرافق .

في هذا الدور نقصت الموارد بتأثير الحروب والفتن ، وانفصال بعض الولايات وازدياد الترف والنفقات ، وقلة الامانة والتدقيق والمحاسبة، وفساد نظام الري . ومن ثم فلا غرابة ان احدثت ضرائب جديدة غير شرعية بالاضافة الى الزيادة والفساد في الضرائب القديمة .

ولا بد ان نبين ان العادة في هذا الوقت كانت بأن يختار الوزير للوظائف اصدقاءه ومقربيه ، ولذا فكل طامح الى الوزارة وكل وزير كانت تحيط به عصبة من المؤيدين له تأمل ان تتسلم الوظائف عند استيزاره وتحاول قدر الامكان ان تخلص نفسها من الاضطهاد والمصادرة اللذين كانا تصيبان الوزير المعزول وعصبته . وفي العادة ان يصادر كل موظف معزول يقبض عليه ، على مقدار من المال اذ يؤخذ خطة بذلك ويودع في السجن حتى يدفع قسما من ذلك المال على الاقل . وكان كل طامح الى الوزارة يتعهد للخليفة بانه سيحاول استحصال مقدار من المال من العصبة المنبوذة . وكان ذلك مورداً يحسب له حسابه في اوقات الازمات .

واخيراً نقول ان المنافسة بين الكتاب في هذا الدور وظهور كتاب عباقرة من بين آل الفرات وآل الجراح اديا الى تكون حزبين متنافسين من الكتاب وهما آل الفرات وآل الجراح . وفي وسط هذا التنافس توفي المكتفي . وافتتح عصر المقتدر الذي كان حاسمًا لا لأهمية الخليفة بل لضعفه وللظروف المحيطة بالخلافة وللنتائج التي ترتبت

عليها (١) .

١ —

جاء المقتدر ليحكم مملكة عادت اليها هيبة الخلافة ، واسترجعت فيها البيروقراطية الادارية اهميتها وفعالياتها ، وتوقف الجيش عن التلاعب بسياستها العامه ، وحصل نوع من الوئام والتوازن بين مختلف العناصر . الا ان حكمه شهد رجوع الانقسام والتصادم بين العناصر المتنفذة ، وتضعضع سلطان الخلافة حتى انتهى بخضوعها لحكم اجنبي .

وهناك ظروف متعددة قامت بدورها في تصديع كيان العباسيين . منها ضعف المقتدر نفسه ووقوعه تحت تأثير الحرم ، وانقسام البيروقراطية على نفسها ، وعودة الجيش الى التدخل في السياسة ، وفعاليات القرامطة .

ولذا كان عصر المقتدر جديراً بالبحث بدقة وتفصيل لانه المرحلة الأخيرة في انهيار اسس الخلافة العباسية (٢) .

---

(١) بعض المراجع :

Bowen-The Life and Times of Ali b. 'Isa"

الطبري . المسعودي . ابن تغريبردي . المنتظم لابن الجوزي . الصابي ـ الوزراء . البيروني — الآثار الباقية . التنوخي — الفرج بعد الشدة .

(٢) بحث الاستاذ Bower هذا الموضوع في كتابه

Harold Bowen-The Life and Times of "Ali" b. Isa "the Good Vizier" Cambridge 1928.

معتمداً على المخطوطات والمطبوعات التي لا يتيسر الحصول على قسم كبير منها ولذا استفدنا منه في هذا الفصل ، مع الرجوع الى المصادر الموجودة لدينا وقد خرجنا على الطريقة المؤلفة في سرد الحوادث حسب تسلسلها التاريخي وفضلنا ان نأخذ القوى والتيارات المختلفة ونراعي اثر كل منها من حيث هي وحده خلال هذا العصر ليتسنى فهم روحه .

ولئلا يجد القارىء صعوبة في تتبع البحث قدمنا قائمة باسماء وزراء المقتدر وفترات حكمهم .

ابن الفرات (وزارته الاولى) ربيع الاول ٢٩٦ ـ ٤ من ذي الحجة ٢٩٩

الخاقاني (ابو علي محمد بن عبدالله) ١٠ محرم ٣٠١

علي بن عيسى (وزارته الاولى) ٨ من ذي الحجة ٣٠٤

ابن الفرات (وزارته الثانية) ٢٥ جمادى الاولى ٣٠٦

حامد بن العباس (مع علي بن عيسى) ٢ جمادي الآخرة ٣٠٦ ـ ٢٠ ربيع الأخر ٣١١

ابن الفرات (وزارته الثالثة) ربيع الاول ٣١٢

ابو القاسم عبدالله بن محمد بن عبيد الله الخاقاني رمضان ٣١٣

الخصيبي ١١ من ذي القعدة ٣١٤

علي ابن عيسى (وزارته الثانية) ٥ صفر ٣١٥ ـ ١٥ ربيع الاول ٣١٦

ابن مقله ١٥ جمادى الاولى ٣١٨

سليمان بن الحسن بن مخلد ٢٤ رجب ٣١٩

الكلوذاني ٣٠ رمضان ٣١٩

الحسين بن القاسم ربيع الآخر ٢٢٠

الفضل بن جعفر ٢٦ شوال ٣٣٠

— ٢

رجعت الوزارة الى اهميتها في تسيير سياسة الدولة . وصار للكتاب أثر هام في الادارة . واشهر الكتاب في اواخر ايام المكتفي علي بن

عيسى بن داود بن الجراح وعمه محمد بن الجراح ، وابن عبدون ، وعلي بن الفرات .

وكان الكتاب منقسمين (لاسباب شخصية ولاختلاف في الآراء السياسية) الى كتلتين : جماعة آل الفرات وعلى رأسها علي بن الفرات وجماعة آل الجراح وعلى رأسها محمد بن داود . اما وزير المكتفي العباس ابن الحسن فكان متردداً اول الأمر .

وظهر التضارب جليا بين الكتلتين بسبب مشكلة العهد . فقد كان المكتفي يحب حفظ الخلافة في ابناء ابيه واكبرهم المقتدر الا ان الوزير لم يكن يستحسن تولية المقتدر لصغر سنه . فحاول مرتين قبيل وفاة المكتفي ان يرشح للخلافة شخصياً من غير ابناء المعتضد [1] . فاثار بذلك شكوك الخليفة ودفعه الى ان يدعو القضاة ويبين بحضورهم انه يرشح اخاه المقتدر للخلافة [2] .

ثم مرض المكتفي مرضه الأخير دون عهد صريح فحصلت مشكلة العهد للوزير الذي أخذ يستشير رؤساء الكتاب في الأمر فوجدهم مختلفين في الرأي . فمحمد بن داود وابن عبدون كانا يرشحان عبدالله بن المعتز اذ (بالاضافة الى المنافع الشخصية) كانا يعهدانه رجلا قديراً مجربا ، ويتوسمان فيه النجاح في السياسة والحرب . اما ابن الفرات فلم يرق له

---

(١) وفعلا حاول ذلك مرتين ، وكان اول المرشحين ابن المعتمد والثاني ابن المتوكل فخفق (٢) مسكويه ج ١ ص ٤ عريب (اوربا) ص ٢١ ، ابن الجوزي المنتظم ج ٥ ص ٦٨ .

تولية خليفة قوي ، ولذلك اقترح ترشيح جعفر بن المعتضد (المقتدر فيما بعد) لانه صغير يبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة ، وهمه ان يعفي من دروسه فاذا كبر يكون الوزير قد حبب نفسه لديه بحيث لا يستغني عنه . ثم بين للوزير سوء معاملتهم لابن المعتز ، وان أقل ما يتوقعونه منه متى صار خليفة هو الاهمال [1] .

وفي ليلة وفاة المكتفي جمع العباس بن الحسن الكتاب ليتفقوا على من يولونه الخلافة فأصر كل على رأيه وأيد علي بن عيسى ترشيح ابن المعتز لكبر سنه وتجربته . الا ان العباس مال الى رأي ابن الفرات مع انه استحسن رأى آل الجراح من قبل [2] . ولكنه ابدى مخاوفه من ثورة الناس لصغر سن المقتدر فاجاب ابن الفرات بانه يمكن التخاص من كل متذمر بتوزيع ارزاق اضافية للجند مقدما [3] . وهكذا بويع المقتدر.

ولكن جماعة آل الجراح لم ترض بذلك وقررت بيعة ابن المعتز الذي قبل الفكرة على ألا تسفك الدماء . واعتقد المتآمرون ان اهل بغداد يؤيدونهم كما ان الوزير ازعج رجال الحاشية بكبريائه واسخط اهالي بغداد لعدم سماع مظالمهم . واستطاعوا استمالة بعض الموظفين والقواد وثاروا بعد اربعة شهور وقتلوا الوزير وحاصروا الخليفة في قصره واعلنوا بيعة ابن المعتز وخلع المقتدر . وكان هذا مستعداً للتنازل ، الا ان حرسه

---

(١) الصابي الوزراء ص ١١٤ ـ ٥ ؛ مسكويه ج ١ ص ٢ ـ ٣ .
الصابي ص ١١٦ ـ ٧ ؛ عريب ص ٢٥   الصابي ص ١١٦ .

وعلى رأسهم مؤنس ثبتوه وقووا عزيمته وصمدوا للثائرين وفاجئوهم ومزقوا جمعهم وقتلوا ابن المعتز [١] .

— ٢ —

وكان المقتدر مترفا انفق في سنين قليلة ماجمعه ابوه واخوه ، وبذر كنوز الدولة ، من جواهر وحلى كخاتم هارون الرشيد الذي اشترى بثلاثمائة الف دينار ، والدرة اليتيمة التي تزن ثلاثة مثاقيل والتي قدمها لاحدى حظاياه [٢] . وكان مدة حكمه الطويل يشكو قلة المال . وكان كثير الانهماك في الشرب حتى صار ذلك من العادات في البلاط [٣] . ومع ذلك فلم يكن يخلو من بعض المزايا الحسنة ، اذ كان كثير الصوم والصلاة (في ساعات صحوه) ويرى علي بن عيسى انه كان عاقلا [٤] .

ولعل تربيته وصغر سنه اوقعاه تحت تأثير الحرم ، وبالدرجة الاولى امه شغب (التي صارت تعرف بالسيدة) ثم قهرماناتها وخاصة ام موسى الهاشمية . اما السيدة فكانت اغريقية الأصل وكانت حظية للمعتضد ، ثم أصبحت في خلافة ابنها اهم شخصية في البلاط . وكان المقتدر يعاملها بمنتهى الاحترام حتى كانت طلباتها تنفذ حتما . وكان تأثيرها بصورة عامة مضراً ، اذ انها افسدت ابنها بتشجيعه على الانهماك في الملاذ وعلى التبذير . ولعلها كانت حمقاء وليست خبيثة إذ انها كانت متدينة

---

(١) عريب ص ٢٨ — ٩ ؛ مسكويه ج ١ ص ٧ — ٨ ؛ الصابي ص ٢٣ ؛ بن ص ٩٣ (٢) Bowen p. 98 التنبيه؛ ص ٣٢٨ ؛ الفخري ص ٢٣٤
(٣) نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٤٤ (٤) Bowen p. 98

انفقت قسما كبيراً من ثروتها في الاعمال الخيرية [١] .

ومن المفيد ان نذكر بعض الامثلة على تدخل الحرم . ففي وزارة ابن الفرات الاولى كانت السيدة تؤكد لابنها فضل الوزير ونصرته له وتطلب منه ان يثق به ، بينما كانت تطلب من الوزير ان يعامل المقتدر كما يعامل ابنه. وقام الحرم بدور مهم في استيزار الخاقاني ، اذ قدم هذا الى ام ولد ثانية للمعتضد مائة الف دينار وطلب منها ان تتوسط لدى الخليفة والسيده لاستيزاره وخدع الحرم بورعه الكاذب حتى نجح في الحصول على امنيته [٢] . وكان من اسباب سقوط علي بن عيسى في وزارته الاولى ان ام موسى القهرمانة قدمت اليه (وهو في مجلس هام للنظر في أمر القرامطة الذين صاروا يهددون بغداد) قائمة بنفقات بسيطة تطلبها السيدة . فوضع القائمة جانبا فغضبت القهرمانة ولم تقبل عذره ، وازعجته فصاح بها ، وبذلك اكتسب عداءها. وزاد الطين بلة انها جاءت الى داره قبيل العيد بطلبات ، فاخبرت بانه نائم لا يمكن ازعاجه ، فلم تغتفر ذلك وصارت تسعى عليه [٣] . ولما أخذ ابن الفرات يسعى لوزارته الثانية كان أهم وعوده انه يتعهد بدفع حوالي ثلاثمائة دينار يوميا في اثناء وزارته للسيدة [٤] . وبلغ من نفوذ ام موسى القهرمانة انها اتهمت سنة ٣١٠ هـ بانها تسعى لنقل

(١) شرحه ص ١٠٢ التنبيه ص ٣٢٨ (٢) بوين ص ١٠٤ ـ ٥ . (٣) شرحه ١٤٨ (٤) مسكويه ج ١ ص ٤٢ ـ ٤٤ هلال ص ٣٠ ـ ١

الخلافة لأحد احفاد المتوكل [١] . وكان من أهم اسباب استيزار الخصيبي انه كان كاتب السيدة ، وان ثمل القهرمانة ذات النفوذ العظيم [٢] ، كانت تؤيده [٣] .

— ٤

ولنرجع الآن الى التيار الرئيس ، وهو دور الوزراء والكتاب لنرى كيف صدعوا كيان الدولة بدسائسهم وكيف حطموا الماكنة الادارية بانقسامهم وتخاصمهم . فمع ان عزلهم وتوليتهم كان بيد الخليفة فانهم غطوا على شخصيته الضعيفة وقاموا بدور أساسي حتى حطمتهم اخيراً قوة الجيش وعداوته لهم .

ولما انتهت فتنة ابن المعتز استوزر المقتدر ابا الحسن علي بن الفرات الكاتب الوحيد الذي لم يشترك فيها فاظهر اعتدالا في سياسته اذ اكتفى بنفي ابن عبدون الى الاهواز حيث قتل لاتهامه بمؤامرة ضد الخليفة. ونفى ابن عيسى الى واسط ثم ارسله الى مكة حسب رغبته . اما محمد بن داود فقتل مع ان ابن الفرات كان يفضل خلاصه . واراد ابن الفرات استرضاء اعدائه ، فاحرق قائمة وجد فيها اسماء المتآمرين [٤] .

---

(١) مسكويه ج١ ص ٨٣ـ٤ (٢) مما يدل على مدى نفوذها انها كانت «تجلس للنظر في مظالم الخاصة والعامة ويحضرها الوزير والكتاب والقضاة واهل العلم» انظر التنبيه والاشراف ص٣٢٨ ـ ٣٢٩ . (٣) Bowen p. 247 - 248 (٤) الصابي ص ١١٩ ـ ١٢٠ مسكويه ج ١ ص ١٤ ؛ الفخري ٢٤٠ .

ثم حاول ابن الفرات ان يستفيد من مركزه ، وسعى لجمع المال على حساب الدولة والخليفة مع ان دخله قبل الوزارة بلغ مليون دينار سنويا وكان يملك من العين والورق والدور والاثاث ما يساوي عشرة ملايين دينار [١] ومنح اقاربه واصحابه احسن الوظائف في الدواوين .[٢]

ثم نحي ابن الفرات عن منصب الوزارة لعداء مؤنس له ، ولحصول ازمة مالية ولد سائس الخاقاني الذي اوهم الخليفة ان ابن الفرات يسعى لخلعه ، فقبض عليه ونهبت دوره وولي الخاقاني[٣] .

كان الخاقاني خبيثا وغير قدير فأخفقت ادارته اخفاقا ذريعا ، واشرك ابنه عبدالله معه ولكنه كان سكيراً ولم تكن له المقدرة على الادارة ، وكان نتيجة ذلك ان اهمل الاثنان قراءة الرسائل وتركا الاجابة عنها الى الكتاب فتكدست الاشغال وتوقفت ماكنة الادارة . هذا بالاضافة الى كون الخاقاني وابنه غير امينين فعبيد الله كان يبيع الوظائف او يعطي طالب الوظيفة وظيفة مشغولة لقاء مبلغ من المال ومن ظريف ما يحكى في هذا الباب ان هذا الوزير أرسل سبعة عمال في يوم واحد الى منطقة واحدة . كما انه اخفق في النواحي المالية حتى اضطر للاستدانة من الخزينة الخاصة [٤] .

وخلفه علي بن عيسى فوجد الادارة مرتبكة والخزينة في حالة يرثى لها . فأخذ يشتغل بجد من الفجر حتى صلاة العشاء يوميا . وسار على

---

(١) الصابي ص٧٩ ، ص ١١٦ — ٧ ، ص ١٤٠ ؛ مسكويه ج١ ص١٣ ، عريب ص ٣٧ . (٢) عريب ص٣٤ ؛ الصابي ص ١٧٨ . (٣) Bowen p. 105 - 107 .
٤ شرحه ص ١١٢—٣ .

الطريقة المألوفة في تعيين الاقارب والاصدقاء الا انه اكتفى بالقديرين منهم [١] . ومع ذلك فقد استخدم بعض انصار ابن الفرات مثل هشام ابن عبدالله في ديوان الدار [٢] والفضل بن جعفر (ابن اخت ابن الفرات) في نيابة ديوان المشرق [٣] .

ثم سقط علي بن عيسى لعداء الحاشية التي أضرتها تدابيره المالية ، ولعداء ام موسى القهرمانة ولد سائس ابن الفرات ضده [٤] .

وجاء ابن الفرات ثانية . ولكن تبذيره وزيادته للرواتب والمخصصات وثورة ابن ابي الساج عامل ارمينية واذربيجان اوقعته في ازمة مالية ، كما انه اوجد في البلاط عصبة تناصبه العداء من الذين استرجع منهم ضياعه (التي صودرت عند عزله كما كانت العادة) . وانضم اليها ابن مقلة الذي اعتقد بان الوزير لم يكافئه على اخلاصه له ، ودس الى المقتدر ان الوزير اخفى عنه بعض الاموال . وعندئذ قدم المقتدر الى علي بن عيسى قائمة باسماء الذوات المرشحين للوزارة ، فمال علي الى حامد بن العباس ضامن منطقة واسط الذي كان مثريا وفاضلا [٥] . وكان حامد من اصل وضيع فكان سقاء وكان بائع تمر [٦] . ولكنه جمع ثروة هائلة وضمن بعض المقاطعات من الحكومة [٧] .

---

(١) عريب ص ٤٢ . (٢) وكان آنئذ كديوان مركزي بالنسبة للدواوين الاخرى . (٣) الصابي ص ٧٩ ، ص ٢٠٨ ، ص ٢٧٩ . (٤) انظر مسكويه ج ١ ص ٤٢–٤ ، الصابي ص ٣٠–١ ، ص ٢٨٥–٦ ، مسكويه ص ٤٠ عريب ص ٦١ . (٥) بوين ص ١٥٧–٩ . (٦) ياقوت معجم الادباء ج ٥ ص ٣٢٥ . (٧) عريب ص ٧٢ .

وفي هذا الحين انتصر ابن ابي الساج على جيش مؤنس ، واتهم ابن الفرات بممالأة ابن ابي الساج الثائر ومن ثم اراد تبرئة نفسه فارسل قائداً ضد ابن أبي الساج واقترح ارسال الحسين بن حمدان . ولـكن نصراً الحاجب وشى الى المقتدر بان معنى ذلك ثورة الحسين واتفاقه مع ابن ابي الساج بتشجيع ابن الفرات . فرعب الخليفة وقرر استبزار حامد وامر بسجن ابن الفرات واتباعه(١) .

وجاء حامد بأبهة عظيمة من واسط الى بغداد ، ولم يمض يوم على وصوله حتى ظهر جهله بآداب البلاط وبشؤون الدولة . فغضب المقتدر ، ولام حاشيته ، فاقترحوا عليه تعيين علي بن عيسى مساعداً لحامد ، فرضي وطلب من علي ان يكون كاتباً او نائباً لحامد (في الظاهر ، والوزير على الحقيقة ، كما قال نصر الحاجب) وبعد تردد رضي علي (٢) .

وفعلا تركزت السلطة بيد علي حتى انه صار لا يستشير رئيسه في شيء من امور الدولة ، ولم يبق لحامد سوى سواد الوزارة والظهور في الحفلات الرسمية (٣) . فكرّه حامد ذلك الوضع وفكر بخطة تعيد له النفوذ بان طلب ضمان ضرائب السواد والاهواز واصفهان بزيادة اربعمائة الف دينار سنويا على الضمان الاعتيادي ولـكن علياً عارض في ذلك وحذر الخليفة

---

(١) مسكويه ج ١ ص ٩٦ــ٨ الصابي ص ٣٢ــ٣ ؛ عريب ص ٧٢ــ٣ ، بوين ص ١٦١ . (٢) الصابي ص ٣٤٧ــ٨ عريب ص ٧٣ــ٤ مروج الذهب ج ٤ ص ٣٣٣ــ٤ بوين ص ١٦٤ . (٣) الفخري ص ٢٤٣ ؛ مسكويه ج ١ ص ٥٩ اثبرج ٨ ص ٣٥ .

من ظلم حامد وانه بذلك الضمان سيخرب البلاد ، وانه يتعارض مع سياسته التي تقضي بفرض ضرائب معتدلة لتشجيع العمارة ولارجاع الرفاه. ولكن المقتدر لرغبته في جمع المال لم يفهم سياسة علي واجاب طلب حامد.

بعد هذا الحادث اصبحت الحرب علنية بين الاثنين . وحاول علي مضايقة رئيسه بان طلب دفع دراهم الضمان دون تأخير ، حتى اضطر حامد للذهاب الى الاهواز للاشراف على الامور بنفسه ، ثم ارسل من هناك مائتي الف دينار اخرى للخليفة مدعياً انه لا يريد الا فائدة الدولة ، وانه ما ضمن تلك المقاطعات الا ليظهر كفايته المالية وليرى عجز علي بن عيسى . فسر الخليفة بذلك واحرج علياً [1] . وعندئذ امر المقتدر بترك الجباية لحامد وخول لعلي مراقبة النفقات فقط .

ولم تمض مدة طويلة حتى ظهرت صحة احتجاجات علي . اذا اراد حامد ان يعوض نفسه عن الاضافة التي دفعها ، فسبب رفع اسعار الحبوب في بغداد بان منع استيرادها من المقاطعات فاضر الغلاء الحاصل في سعر الخبز باهالي بغداد وادى بهم الى الشغب . فدعا الخليفة حامداً ليهدئ الحال . فاخفق اخماد الحركة بالقوة ، وهجم الثائرون على قصره وعلى دار نصر القشوري (رئيس الشرطة) واستمرت الاضطرابات ثلاثة ايام حتى ان الجند تأثروا بروح الشعب وبدءوا يولولون من غلاء الخبز . فانتبه المقتدر للخطر وامر بفتح مخازن الحبوب العائدة لحامد وللسيدة ولبعض

(١) Bowen p. 174 - 177

الامراء وبيع الحبوب التي فيها بسعر رخيص وكذلك فرض على التجار البيع بذلك السعر المخفض، ولكن المشكل لم يحل لقلة الحبوب واتضح وجوب نقض ضمان حامد، فامر المقتدر بذلك. وتراجع حامد الى واسط بعد هذا الاخفاق واسرع بارسال الحبوب الى بغداد. فاتعظ المقتدر بما حصل فامر بمنع الضمان لرجال السياسة والجيش.[1]

وكان عزل علي (وحامد) ناتجاً بالدرجة الاولى عن انقاصه للرواتب توسلا للاقتصاد، وقاومه الهاشميون خاصة، وكان ابن الفرات يدس ضده.

وخلع علي ابن الفرات وعلي ابنه المحسن، فتتبع المحسن الجماعة المعزولة بكل قسوة وعذب علياً بن عيسى وغرمه ونفاه الى واسط ليتجنب خطره في بغداد. كما ان والده اتبع سياسة الارهاب مدعياً ان اعتداله مع اعدائه في السابق ادى بهم الى محاولة تدميره.[2] وقبض الوالد على ابن الحواري وعلى حامد وحصل منهما باللين على كميات كبيرة من الاموال، فاغتاظ ابنه المحسن وطلب تسليمهما اليه لياخذ ما اخفوه من مال، كما انه اقترح على الخليفة ان يشترك مع والده في الوزارة فتم لهما اراد برغم غضب واحتجاج والده. وعذب المحسن هذين الرجلين ثم نفاهما وكان سبب قتلهما في الطريق. ونكل ايضاً بعدد كبير من الكتاب من جماعة علي بن عيسى. واخفى الوالد عن تصرفاته لان الاموال الحاصلة من المصادرات كانت

---

(١) عريب ص ٨٤؛ ص ٨٥؛ مسكويه ج ١ ص ٧٢–٥ حمزة الاصفهاني ص ١٣٠، (٢) الصابي ص ١٠٥.

كبيرة [١] ثم صادر ابن الفرات ضياع علي بن عيسى ونفاه الى مكة بعد ان كان في واسط لانه خاف ان يتآمر ضده [٢]. ثم اخفق ابن الفرات للسخط العام من قسوة حصبته ، ولانه اثار عداء نصر القشوري ، واغضب مؤنساً فعزل وسجن [٣] .

وخلفه ابو القاسم عبيدالله بن ابي علي الخاقاني، وكان المقتدر لا يميل اليه ويقول : « ابوه خرب الدنيا وهو شر من ابيه » ولكنه عين بتأثير (ثمل) القهرمانة ونصر القشوري ، ومؤنس . ولما سمع ابن الفرات بتعيينه قال : « السلطان نكب وما نكبت انا » [٤] . ومع ذلك فعريب يبين ان ابا القاسم اعتدل وصار مثلا للاستقامة [٥] .

اسرع الوزير الجديد بمحاكمة ابن الفرات والمحسن لمصادرتهما . فعامل الاب باللطف اولا ثم بالعنف ، وعامل المحسن بقسوة متناهية حتى جعله يوقع ورقة يدفع بموجبها ثلاثة ملايين دينار . الا ان المحسن ابتلع الورقة وادعى انه يستطيع دفع مليون دينار فقط . ومال المقتدر الى استعمال اللطف ثانية ، ولكن الوزير خاف على نفسه ، واشار على مؤنس ونصر باستخدام الجيش لمنع ذلك . فشغب الجند ثم تطرفوا بان طلبوا شنق الاثنين

(١) يقول الاصفهاني ص ١٣٠ انه اخذ من حامد وحده ٠٠٠ر٠٠٧ر٢ دينار .

(٢) بوين ص ٢٢٦ـ٧ ، عريب ١١٣ ، الصابي ١٣٠ـ١ ، ٣٠٧ـ٨ مسكويه ج ١ ص ١١٣ . (٣) Bowen p. 237 - 23. (٤) مسكويه ١ : ١٢٧ ، ١٢٩ . (٥) عريب ١٢٠ .

(٣١٢ هـ ٩٣٤)[١] . وهكذا كان حسد الوزراء بعضهم بعضاً عاملا هاما في تدمير قوتهم وفي افساح المجال لفوضى الجيش .

واظهر ابو القاسم قلة كفاية ، وزاد في الطين بله مرضه بعد قليل ، وتضعضع مركزه على اثر الازمة المالية . وزاد في ضعفه تآمر نصر الحاجب عليه . فاخذ الخصيبي كاتب السيدة يسعى للوزارة يؤيده نصر الحاجب وثمل القهرمانة (اهم شخصيتين في البلاط بعد مؤنس) وساعده على ذلك علاقته المتينة بالسيدة فعين وزيراً في رمضان ٣١٣ هـ .

كان الخصيبي مهملا للاشغال ، منهمكا في اللهو ، ثملا في اغلب الاوقات . فتراكمت الاشغال بصورة فظيعة . وصادف اشتداد الازمة المالية ، وازدياد شغب الجيش فادى ذلك الى اسقاطه . واخذ باقتراح مؤنس في تعيين علي بن عيسى ليصلح الوضع .

جاء علي (٥ صفر ٣١٥ هـ - ١١ نيسان ٩٢٧) فوجد الحالة مضطربة جداً . فرأى من الضروري اشغال الدواوين في الليل احيانا ، ونشط في تصفية القضايا المالية[٢] . واستخدم كتابا قديرين حقـــاً . فاعطى الكلواذاني[٣] ديوان السواد ، وعين ابن مقله في ديوان الضياع الخاصة والمستحدثة وسليمان بن الحسن بن مخلد في ديوان بيت المال ، وعبدالرحمن ابن عيسى (شقيقه) في ديوان الحرم وابا زنبور في ديوان الضياع المصادرة من ابن الفرات ، والفضل بن جعفر في ديوان المشرق . وقد قدر لخمسة

---

(١) Bowen p. 239 - 242 . «٢» شرح ٢٥٧ - ٢٥٨ «٣» وكان الكلواذاني الكاتب الوحيد الذي اظهر مقدرة فائقة في وزارة سلفه .

من هؤلاء الكتاب ان يتولوا الوزارة فيما بعد . وكان علي نفسه يقرأ التقارير ليل نهار [1] . وكان مؤنس خير صديق لعلي ، الا ان هذا استقال لأن المقتدر اربك تدابيره المالية حين اضطر لمنح الجيش ارزاقا اضافية . ومنذ سقوطه (١٥ ربيع الاول ٣١٦ هـ — ٨ مايس ٩٢٥ م) حتى مقتل المقتدر بقيت الازمة المالية واستبداد الجيش البليتين اللتين هدتا ما بقي من هيبة الخلافة ونفوذها .

٥ —

كان وجود مؤنس ، والازمة المالية ، العاملين الرئيسيين في تدخل الجيش في السياسة . فمؤنس الذي قضى على فتنة ابن المعتز اصبح صاحب الحول والطول في البلاط ، واخذ يتدخل في تعيين الوزراء وعزلهم كما أحظا . وكان الجيش كثيراً ما يشغب مطالباً برواتب متأخرة ، او بارزاق اضافية ، وكان ذلك يزداد بازدياد ازمة الخزينة . ولكن متانة الادارة نسبياً ووجود وزراء اقوياء كابن الفرات في النصف الاول من خلافة المقتدر قلل من خطر الجيش آنئذ .

ولعل اول اصطدام علني بين الجيش والاداره كان في وزارة ابن الفرات الثالثة . فقد كان مؤنس يبغض ابن الفرات ويكن له كل سوء ، وصار المحور الذي تحاك فيه الدسائس والمؤامرات . وسعى ابن الفرات

«١» مسكويه ١ : ١٤٠ ، ١٥١ — ١٥٢ ، عريب ١٣٠ — ١٣٢ ، الصابي ٣١٢ — ٣١٣ ابن الاثير ٨ : ٥١ . Bowen P. 258-25

في ابعاده عن بغداد واقترح على الخليفة ارساله الى الرقة بحجة ان بقاءه في العاصمة يجعله خطراً على السياسة العامة ، واكد على الخليفة وجوب منع الجيش من التسلط على الشؤون العامة . ثم بين للخليفة ان ارسال مؤنس الى الرقة يسهل جمع ضرائب الولايات الغربية ، كما انه يمكن دفع رواتب الجيش منها ، وبذلك تتخلص الخزينة من نفقات ثقيلة . فقنع الخليفة واضطر مؤنس ان يخضع لرغبته (١) . ولكن مؤنساً استدعى الى العاصمة عند سقوط الوزير .

وكانت لمؤنس يد في تعيين ابي القاسم الخاقاني (٢) . ومن هذا الوقت تضاءلت هيبة الوزراء لاسيما بعد مقتل ابن الفرات . اذ لم تبق شخصية تجابه مؤنساً ، وصار هذا يتصرف في الامور كما يشاء ، وصار رؤساء الجيش يتطاولون على الخليفة ويهددونه في تنفيذ اغراضهم باثارة الفتنة في الجيش . ولنا على ذلك امثلة كثيرة . فالخصيبي انذر بسوء تصرف الجيش في اول يوم من تسنمه كرسي الوزارة ، فقد استقبله الجند بوابل من السهام يطلبون ارزاقهم (٣) وكان استيزار علي المرة الثانية بالحاح من مؤنس . الا ان الخيالة شغبوا مدة اسبوع مطالبين بالأرزاق ، ونهبوا الدور والحوانيت وبعض قصور الخليفة كالثريا . ولم يهدءوا الا بعد تسديد مطالبهم (٤) .

«١» مسكويه ١ : ١١٥ — ١١٦ الذيلي ٣ : ٤٢ — ٤٣ ، ٤٥ — ٤٦ ، «٢» Bowen p. 229 «٣» Bowen p. 237-239 عريب ٢٤٨ ، ٢٤٩ «٤» ١ : ١٠٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ .

وبعد ان صد الجيش تقدم القرامطة تجاه بغداد سنة ٣١٦ هـ طلب الزيادة في الرواتب مكافأة على هذا النصر . فاضطر الخليفة الموافقة على زيادة دينار لكل جندي . فقضى بذلك على جهود علي بن عيسى في الاقتصاد واضطره الى الاستقالة .

وزاد الوضع سوءاً وحراجة حين ساءت العلاقة بين الخليفة ومؤنس . وسبب ذلك ان المقتدر أراد ارسال مؤنس لصد البيزنطيين الذين فتحوا سميساط وهدموا المساجد . فدس الى مؤنس أن الخليفة حفر له حفرة في البلاط ليسقطه فيها عند الوداع . فتوقف مؤنس عن السفر وبرغم تأكيد الخليفة له بكذب الخبر فان العلاقة اشتدت توتراً بينهما [1] .

وفي وزارة ابن مقلة (سنة ٣١٦ هـ) تحرجت العلاقة بين الخليفة ومؤنس مرة اخرى بتأثير دسائس ابي الهيجاء ونازوك [2] إذ دس هذان الى مؤنس أن الخليفة يريد اسناد قيادة الجيش لهارون بن غريب الخال ، فغضب واظهر تنكرا للخليفة . إلا ان هذا هدأه وخفف من روعه . وما هي إلا فترة قصيرة حتى هجم الفرسان المصافية على دار نازوك فظن مؤنس ان ذلك كان بتدبير الخليفة وانسحب بجيشه الى الشماسية . فاضطرب الخليفة وسأل عن مطالب المتذمرين . فاحتجوا عليه بأن اقرباءه يسيطرون عليه

(١) مسكويه ج ١ : ١٥٩ — ١٦٠ ، ١٦١ ، عريب ١٣٢ ، (٢) هارون بن غريب الخال هو ابن خال الخليفة . وقد اخمد ثورة القرامطة في السواد سنة ٣١٦ هـ . ثم عين لولاية الجبال بدل ابي الهيجاء الحمداني . كما ان اصحابه تنازعوا مع اصحاب نازوك القائد . فاتفق ابو الهيجاء ونازوك على الدس ضده .

ويسيرونه ضد مصلحة الدولة . وانه يجب طرد السيدة واختها وكل النساء من البلاط ، وكذلك طلبوا منه ان يقلل من التبذير في البلاط ، وان ينفي هرون الى الحدود السورية . فسلم بمطالبهم ولكن نازوك وابا الهيجاء لم يقتنعا بذلك. وقبل ان يفسحا للخليفة المجال لتنفيذ وعوده بدءا بالشغب بعد يومين . ثم هجما على البلاط صباح اليوم الرابع عشر من محرم ٣١٧ﻫ / ٢٧ شباط ٩٢٩ م فاختفى المقتدر في القصر حتى المساء ، ثم ركب زورقا الى دار مؤنس (ولعل ذلك كان حسب خطة مدبرة) ونهبا القصر .

وجاء المتآمرون باخ المقتدر لأبيه ونصبوه خليفة بلقب القاهر بالله . وبعد تعيين نازوك رئيسا للشرطة وحاجبا، وابقاء ابن مقله وزيراً ، وضع مؤنس حرساً على القصر ورجع الى داره . ولكن عدم ثقة نازوك بالمصافيه (فرقة من الحرس) جعله يستبدل بهم رجاله لحراسة القصر فاتفق المصافيه مع الحجرية (فرقة اخرى من الحرس) وضجوا يطلبون زيادة الرواتب ، فاعطاهم نازوك المال ، ولكنهم لم يرتاحوا ففي اليوم الثالث دخلوا البلاط يطلبون ارزاق سنة اضافية . فارسل القاهر نازوك لتهدئتهم ولكنه كان ثملا فخاف وهرب . إلا ان الجند أدركوه وقتلوه . وهرب كل من في القصر ، واختفى القاهر وضج الجند خارج دار مؤنس بارجاع المقتدر . فاعيد الى الخلافة وجددت له البيعة وعفا عن القاهر [١] .

---

(١) عريب ١٣٩ — ١٤١ ؛ مسكويه ١ ، ١٨٨ — ١٩٩ ؛
Bowen P. 284 - 285

ادرك المقتدر بعد هذا الحادث بانه لايمكن التهاون بطلبات الجيش وحاول جديا جميع المال اللازم لهم . فبدأ يبيع ملابس البلاط وسجاده وجواهره وبعض الضياع السلطانية ، كما استرجع بعض الاقطاعات التي اقطعها من قبل ليحصل على المال ، وانشأ ديوانا خاصا لبيع اراضيه . ولما شعر الجند بان جميع رغباتهم تجاب وجميع طلباتهم تلبى ، اصبح تصرفهم لايطاق . فالمصافية نصبوا انفسهم حماة للخليفة وان شئت فقل سادة عليه ، وخيموا في ساحة القصر ، ورحبوا بالمنخرطين في صفوفهم حتى زاد عددهم كثيراً . ثم ادخلوا زوجاتهم واطفالهم وحتى معارفهم في الديوان . واعاقوا سير العدالة بالتساهل في الجرائم وتأخير الاحكام . ثم طلب رؤساؤهم حق الدخول على الخليفة او الوزير متى ارادوا . والخلاصة فانهم سيطروا على الدولة سيطرة تامة .

اتضح للمقتدر ان الفوضى ستعم اذا استمرت الحالة ، وان ستكون العواقب وخيمة ، وان العلاج الوحيد هو اثارة قسم من الجيش ضد الآخر واثارة الاحقاد والعداوات بين فرقه . فدبرت لذلك الخطط ، وصمم على ضرب الفرسان بالرجالة [1] . وفي أواخر سنة ٣١٧ ﻫ ولا سيما بعد ان روع العالم الاسلامي بفاجعة نهب القرامطة للحجر الاسود جاء المصافية يطلبون رواتبهم فاخبروا ان الرجالة أخذوا المال . فثاروا ونهبوا قصر الوزير ثم اصطدموا بالرجالة فاتفق الحجرية والرجالة على المصافيه وناصرهم الاهالي

(١) مسكويه ١ : ٢١٢ ؛ عريب ١٤٨ ؛ حمزة الاصفهاني ١٣٣ ؛ ابن الاثير ٨ ؛ ٦٤ — ٦٥

أيضاً فتحوا المصافية عن آخرهم، ووضعوا السيف في كثير منهم وأضرموا النار في بيوت كثير من رؤسائهم [١].

وبقي المقتدر، والرعب يملأ قلبه من الجند الذين كان يخشى ان تحدثهم نفوسهم يوما ما بخلعه. وزاد في قلقه واضطرابه توتر علاقته بمؤنس تلك العلاقة التي كانت تزداد سوءاً يوما بعد يوم. لأن مؤنسا كان ينتظر من المقتدر بعد ان ارجعه الى الخلافة، ان يستشيره في كل قضية وكل أمر. وكان يراقب الخليفة على الدوام فكان من الضروري للمقتدر ان يبحث له عن حليف ضد مؤنس فوجد بغيته في ياقوت حاجبه الجديد (الذي كان واليا على فارس) وابنه محمد [٢]. وغدا النزاع بين المقتدر ومؤنس أمراً لا مفر منه. وكان أول نصر للخليفة، نجاحه في تعيين محمد بن ياقوت رئيساً للشرطة بدل ابني رائق اللذين عينهما مؤنس [٣] ثم عزم المقتدر على صرف ابن مقلة الذي أصبح يخدم مؤنسا في كل شيء، وقرر تعيين وزير يخدم مصالحه. فاستغل خروج مؤنس (جمادى الاولى ٣٦٨ هـ) الى عكبرا ودعا الحسين بن القاسم ليقلده الوزارة. فرجع مؤنس مغضبا لهذه الخديعة وطلب الى علي بن عيسى ان يكلم الخليفة في الأمر إلا ان الخليفة أبى ارجاع ابن مقلة لأن ذلك يعتبر اهانة صريحة له. ولكنه (الخليفة) ادرك ان ليس باستطاعته الوقوف ضد مؤنس فرضي بحل

---

١ مسكوية ١، ٢٠٢—٢٠٣، ٢٤٨—٢٤٩. الاصفهاني ١٣٣—١٣٤

(٢) عريب ١٣٣، مسكوية ١، ١٤٦، ١٥٧. (٣) مسكوية ١، ٢٠٢، عريب ١٤٥

وسط . فاقترح علي ابن عيسى ترشيح اخيه عبد الرحمن أو سليمان بن الحسن للوزارة . فمال المقتدر الى سليمان لانه خال الحسين ولانه يكره ابن مقلة . واستوزره على ان تكون رئاسة الدواوين لعلي بن عيسى وبذلك يكون علي فاصلا بين الخليفة ومؤنس فكما ان مؤنسا كان لا يعمل ضد علي فكذلك علي لا يكون آلة بيده . وقنع علي بهذه التسوية .

وعلى الرغم من كل ذلك اخذت حال الخليفة بالتحسن نسبياً . ويتضح الوضع الجديد وضوحا تاما في معاملة ابن مقلة . فعلى اغرمه اجابة لرغبة الخليفة بينما وبخه الوزير لأثارته الفتنة بين الخليفة وقواده . ولكن الغرامة انقصت بطلب من مؤنس وسجن في المحل الذي تخيره مؤنس . وعلى كل فهذه الحلول اوقفت اصطداما لا بد منه [١] .

على ان الامور قد تأزمت والظروف قد ازدادت حرجا في وزارة سليمان بن الحسن واصبح الهياج والفتنة امرين مألوفين فالفرسان الذين قضوا على المصافية شعروا بأهميتهم وهجموا بعد شهر على دار الوزير ، واستمرت الاضطرابات بسبب الرواتب حتى بلغت القمة في صفر ٣١٩هـ/آذار ٩٣١ م بهجوم منظم على القصر . وطلب الثوار لأول مرة عزل ياقوت واقالة ابنه من وظائفهما . (ويظهر ان مؤنسا واتباعه كانت لهم يد في هذا الهجوم). فمحمد بن ياقوت اسندت اليه الحسبة بالاضافة الى رئاسة الشرطة. فزاد حسد اعدائه ورعبهم لان الحسبة يصحبها رئاسة قسم لا بأس به من

---

(١) مسكويه ١: ٢٠٣–٢٠٥ ؛ عريب ١٥٠ ؛ Bowen p. 294

الرجالة . كما ان تولية الحسبة اتخذها اعدائه حجة شرعية للتذمر لانه لا يصح لشخص الجمع بين الوظيفتين في آن واحد ، ولا سيما ان الحسبة كانت تسند عادة الى قاض اوفقية . واخترق الثوار القصر فوعد المقتدر باجابة طلباتهم فتفرقوا ، ثم بدوا بالشغب مرة ثانية بعد مضي يومين واشترك معهم الاهالي ففتحوا السجون ودامت الفتنة عشرة ايام ، حتى اضطر ابن ياقوت الى الهجوم على الاسواق ، وقتل البرىء والمجرم ، وبذا تمكن من ارجاع النظام الى نصابه[1] . وجال في خلد المقتدر ان الفتنة قد خمدت ، ولهذا لم ير مانعا من بقاء ياقوت وابنه في مناصبها .

لم يمض شهران ذاق الخليفة ووزيره فيهما بعض الهدوء والطمأنينة حتى ثار الفرسان (اول جمادى الآخرة ٣١٩ ه/ تموز ٩٣١ م) وتعرضت بغداد لمدة اسبوعين لانواع القسوة والسرقة والنهب . ورفع مؤنس احتجاجاً للخليفة وألح على صرف ياقوت وابنه ، فسلم المقتدر بطلبه على مضض . ثم سمع مؤنس بان ياقوتا وابنه يدبران قتله ، فطلب من الخليفة نفيهما من العاصمة فرفض الخليفة واخبر مؤنسا ان باستطاعته ترك بغداد ان لم يرقه الوضع .[2] فاستشاط مؤنس غضبا ونزل بالشماسية ، وخابت محاولة المقتدر للتفاهم معه . عند ذاك رأى الخليفة ان من الحكمة اخراج ياقوت وابنه من بغداد . وعلى أثر ذلك رجع مؤنس واستولى على الامور واسند الحجابة لابن رائق .

(١) مسكويه ١ : ٢٠٩ ؛ عريب ١٥٦ ؛ حمزة ١٣٥ — ١٣٦

(٢) Bowen p. 297-298

لكن المقتدر لم يرضخ خضوعاً تاماً، واراد أن يظهر ذا حظ من السلطة، فصرف سليمان بن الحسن (رجب ٣١٩ /آب ٩٣١م) واراد استيزار الحسين بن القاسم. ولكن مؤنساً الحّ في تعيين عبيد الله الكلواذاني فعين ومعه علي بن عيسى مشرفاً على الدواوين ولكن مدة الكلواذاني كانت قصيرة. فالأزمة المالية وهجمات القرامطة على الكوفة جعلت الحالة المعاشية صعبة. وزاد وضعه تأزماً هجوم فرقة من الفرسان على داره، فلم يستطع دفع مرتباتهم لعدم وصول الوارد من الولايات. فلزم داره وقدم استقالته (٣٠ رمضان ٣١٩ هـ/٧ تشرين أول ٩٣١ م) فقبلت.[1] ثم قرر المقتدر استيزار الحسين بن القاسم، والغريب ان مؤنسا وافق على تعيينه واغرب من ذلك انه رضى بتنحيه علي بن عيسى عن الاشراف على الدواوين، فلم يترك له سوى ديوان النظر في المظالم. ولكن الحسين لم يرتح لتولية علي لذلك الديوان فطلب عزله وتم له ذلك. ثم شعر بخطر وجوده في بغداد على سلطته فطلب نفيه الى سوريا أو مصر. وعلى الرغم من تدخل مؤنس فان علياً نفي الى (دير قني)[2].

وعلى كل حال، فان مؤنسا شعر بخطأ تعيين الحسين. فقد قوى حزب الخليفة حتى أن الضعفاء من جماعته كأبني رائق انضموا اليه. ثم حاول الحسين ضرب الجيش بعضه ببعض. وأثار الرجالة المتذمرين

---

(١) عريب ١٦٠، ١٦٤؛ الفخري ٢٤٧، مسكويه ١: ٢١٩. (٢) مسكويه ١: ٢١٩، ٢٢٠ — ٢٢١.

ليطلبوا عزل « يلبق » (الذي كان ينوب عن مؤنس المريض آنئذ) فشكا مؤنس الى الخليفة دسائس الوزير راجياً عزله ونفيه الى عمان فرفض طلبه . وكان عزل « يلبق » انذاراً لمؤنس بالخطر . فقرر ان ينتقل بعسكره الى الشماسية ولكنه وجد الحسين قد اكتسب تأييد الرجالة بدفع رواتبهم فحاول التصالح مع الوزير ولكن رسوله اهين ، فقرر الذهاب الى البردان (محرم ٣٢٠ هـ / كانون الثاني ـ شباط ٩٣١ م)[١] .

في الواقع ان نزوح مؤنس كان نصراً للخليفة ووزيره . فشرف الوزير بلقب « عميد الدولة » ونقش اسمه مع اسم الخليفة على النقود ووجد الوزير الفرصة سانحة لمهاجمة انصار مؤنس فاخذ من ابن مقلة عشرين الف دينار . لكن نفوذه لم يدم ، إذ خلت الخزينة من المال ووجد انه لا يستطيع دفع نفقات السنة الحالية إلا بجباية ضرائب السنة القادمة فشغب الجند عليه . كما ان حماس الخليفة له قد اضمحل ، فقبض عليه (في ربيع الآخر سنة ٣٢٠ هـ/مايس ٩٣٢ م) وعين الفضل بن جعفر محله[٢] .

وظهر موقف مؤنس ضعيفاً عند تركه بغداد . ولكن الصدف وبراعته في القيادة وحنكته قوت مركزه . فقد سافر شمالا ولكنه كان يعرف ان العمال ، في طريقه ، قد القيت اليهم الاوامر بالقبض عليه ان امكن ، كما تخلى الكثيرون من اتباعه عنه ، فاراد الالتجاء الى الحمدانيين في الموصل لصداقته معهم ، ولكنهم مانعوا في مجيئه وطمعوا باسترجاع ثقة الخليفة ، فلم يعبأ بل سار اليهم وهزم جيشهم (٤ صفر ٣٢٠ هـ ـ ١٥ شباط

(١) عريب ١٦٥ — ١٦٧ ؛ مسكويه ١ : ٢٢١ ـ ٢٢٢ . (٢) عريب ١٧٣ ؛ مسكويه ١ : ٢٢٦ — ٢٢٨ .

٩٣٣ م) ودخل الموصل[١] . وبعد هذا الانتصار قوى مركزه ، اذ رجع اليه من تركه سابقاً والتحقت به فرق من جيش الخليفة في الثغور .

ولكن الحالة كانت خطرة في بغداد، ففي ايران كثرت اعتداءات مرداويج الخارج على الخلافة ، كما استمرت الغزوات البيزنطية دون من يصدها ، وكثر اللاجئون من تلك الجهات الى بغداد وسببوا الشغب والهياج فيها حتى هوجم قصر الوزير مرتين ونهب. كما ان القرامطة ومؤنسا قطعوا الاقوات عن بغداد من جهتهم فحصلت فيها مجاعة شديدة ووقع فيها وباء مريع .[٢] ووبخ الخليفة علنا لاهماله مصالح الرعية . وادرك الفضل وحده الظروف . فمال الى استرضاء مؤنس فارسل اليه رسالة تلقاها مؤنس بحذر ، وتقدم عند حلول الخريف الى بغداد . وسرعان ما ظهر ان الفضل أرسل رسالة على مسؤليته الخاصة لأن الخليفة عندما سمع بقدوم مؤنس أرسل جيشا لرده . ولكن جيش الخليفة لم يصمد لمؤنس بل استمر بالتراجع حتى بغداد . وهناك عسكر الجيشان الواحد قبالة الآخر في الشماسية .

وتلا ذلك انقسام الرأي في البلاط. فهرون بن غريب الخال (الذي كان متنفذا آنئذ) مال الى رأي الوزير في الصلح حذرا من نتيجة الحرب . ولكن محمداً بن ياقوت (الذي رجع الى بغداد في غياب مؤنس) وابني رائق الحوا على الحرب . وتردد المقتدر في الأمر لأنه كان يميل الى تحدى

---

(١) Bowen P. 314-31؟ (٢) عريب ١٧٣—١٧٤؛ حمزة ١٣٦-١٣٧

مؤنس . ولكن جيشه — كما اوضح هرون — لا يعتمد عليه . وربما ثار ان لم تدفع اليه الرواتب . وأكد ابن ياقوت ان الجيش اذا اعطي رواتبه تخلى اتباع مؤنس عنه وانضموا الى جيش الخليفة . ولكن ما العمل والخزينة خالية . كما ان السيدة ادعت بأنها صرفت كل ما تملك في حرب القرامطة . ففكر الخليفة بالذهاب الى واسط وجميع الرعايا حوله . وعلى الرغم من ان الخليفة وافق على اقتراح مؤنس أول الأمر وهو ان خير حل هو تسوية الخلاف ، إلا ان العواطف طغت عليه فأمر بالحرب وكانت النتيجة مقتله في ٢٦ شوال ٣٢٠ ﻫ / ٣٠ كانون الأول ٩٣٢م . وبإراقة دم المقتدر طعنت الخلافة في الصميم ولم يلتئم جرحها بعد ذلك[١] .

— ٦

ولنتطرق الآن للوضع المالي لنرى كيف اربكته انانية الوزراء ، لنقدر جهود ذلك الوزير العظيم علي بن عيسى الذي لقب بحق الوزير الصالح .

كان المقتدر متلافيا مبذراً ، بدد كل ما جمعه ابوه وأخوه .[٢] فضلا عما جمع في ايامه ، وكان مجموع ذلك سبعة وثمانين مليون دينار «خرج من ذلك ما ليس يجري مجرى التبذير ... بضعة عشر الف الف دينار ، وبقي بعد ذلك ما بذر وأتلف نيف وسبعون الف الف دينار ».[٣] ومما يجدر

---

(١) عريب ١٧٤ — ١٨٠ ، مسكويه ١ : ٢٣٤ — ٢٣٧ ، الفخري ٣١١ ، المسعودي ٤ : ٢٣٤ ، التنبيه ٣٢٧ (٢) وكان مقدار ذلك ١٤،٠٠٠،٠٠٠ ديناراً ، الصابي ٢٩٢ مسكوية ١ : ٢٣٨ (٣) مسكوية ١ : ٢٣٨ — ٢٤١

بالملاحظة ان هذه المقادير كانت من « بيت مال الخاصة » او بيت مال الخليفة . فكان هناك تمييز بين « بيت المال » او خزينة الدولة وبين بيت مال الخليفة . وكانت موارد الخزينة عظيمة ، مما تغله الضياع السلطانية الوسعة [١] ومن المصادرات التي كانت تشمل الوزير المعزول وعصبته ، والتي اصبحت سنة متبعة ومورداً خصباً ، ومن ضرائب المواريث والواردات العامة احياناً [٢] وكان هذا البيت خير مسند لخزينة الدولة (التي اضر بها سوء طرق الجباية ، وزيادة النفقات وكثرة الثورات وحروب القرامطة ، وانفصال بعض الولايات) في اوقات الازمات بواسطة القروض . ولكن اهميته قلت بالتدريج في خلافة المقتدر لسوء التدبير وكثرة التبذير . وبذلك ازدادت ازمة بيت المال شدة ، وتعسر الاحتفاظ بالتوازن بين الدخل والمصرف ، وعاد الخليفة يشكو دائماً قلة المال .

ولنعرض قصة الازمة المالية وتطورها بايجاز . فابن الفرات في وزارته الاولى كان يخشي نفوذ مؤنس . ولذلك نجده يخصص مرتبات لافراد الاسرة المالكة ليقوى نفوذه في البلاط كما انه الغى الضرائب التي يستثقلها الناس ، ولم يفكر كيف تتحمل الخزينة تلك التدابير [٣] فلا غرو ان افلست الخزينة حتى انه لم يجد المال الكافي لشراء ما يلزم من الماشية يوم النحر . ولما استنجد بالخزينة الخاصة رفض الخليفة

---

١ انظر قائمة على بن عيسى في زيدان ٢، ١١٤ — ١٢٢ (٢) مسكويه ١ : ٢٤٠ — ٢٤١ (٣) مسكويه ١ : ١٣

اعانته.[١] ويجب ان لا ننسى ان الوزير استغل مركزه لجمع المال لنفسه على حساب الدولة والخليفة[٢].

ثم خلفه الخاقاني ، وكان اسوأ من سلفه . إذ افرط في قبول الرشوات ، وقام ببيع الوظائف لجمع المال لنفسه ولا يخفى أثر ذلك في افساد الوضع المالي وتدهور طرق الجباية . هذا بالاضافة الى انه لم يعمل شيئاً لحل ازمة الخزينة ، بل زاد الوضع سوءاً بسبب حرصه على تقوية مركزه . فذهب الى ابعد مما ذهب اليه ابن الفرات في زيادة رواتب الجيش والكتاب وخدم القصر والحاشية[٣].

وجاء علي بن عيسى فلاحظ ان اضطراب الخزينة ادى الى سقوط الوزيرين السابقين وعلى ذلك فيجب ان يقوم باصلاح عاجل لذلك . وادرك ان سبب الازمة كثرة الصرف وقلة الدخل . اما كثرة الصرف فكانت راجعة الى تبذير الوزيرين من قبله ويشاركهما في ذلك الخليفة . واما قلة الدخل فناشئة عن كثرة الاضطرابات والثورات الداخلية خلال القرن الثالث الهجري . كما ان نظام الضمان للضرائب كان فيه مجال كبير للعسف لا سيما في اوقات الحرب والفتن حين تضعف الرقابة على العمال والموظفين . وبالاضافة الى ذلك ان الاضطرابات وعسف الضمان ثبطا عزم الفلاحين واديا الى ترك كثير من الاراضي بورا . فكان على علي بن

---

١) 07 . Bowen P. 10 (٢) الصابي ٧٩،١١٦–١١٧،٢٠٦–٢٠٤، مسكويه ١٣:١
٣ مسكويه ١: ٢٩، عريب ٤١

عيسى معالجة تلك الاوضاع ، والسعي لموازنة الدخل والخرج . فبدأ بفارس حيث أدت الاضطرابات الى هجرة عدد كبير من الفلاحين ، فاضيف الى ضرائب الباقين شيء باسم (التكملة) فارهقهم ذلك . ومن الجهه الاخرى كانت الاشجار المثمرة معفوة من الضرائب منذ زمن المهدي . فالغى التكملة ليخفف عن الفلاحين وسن ضريبة على الاشجار المثمرة ليقوى مورد الخزينة . كما انه الغى بعض الضرائب الجائرة كضرائب الخمور بديار ربيعة ، والمكس (ضرائب التجارة) في مكة ، وضرائب المرور (مكوس على نهر الدجيل (الـكارون) [١] . وحارب الفساد في الادارة ، وقرر اصلاحها فاعلن سياسته في منشور أصدره الى العمال ، بين فيه انه لا يصرف عاملا دون محاكمته . ولكنه انذر العمال على سوء التصرف ، أو السرقة وما شابه ذلك . فقد جاء في المنشور المذكور «وتمكن في نفسك انه لا رخصة عندي ولا هوادة في حق من حقوق أمير المؤمنين اغضي عنه ... ولا تقصير في شيء من امور العمل اصبر لقريب أو بعيد عليه . ولا تكون باظهار أثر جميل في ذلك أشد عناية منك بانصاف الرعية والعدل عليها ورفع صغير المؤن وكبيرها عنها» [٢] وحاول تطهير الادارة من عمال السوء . يقول مسكويه « وقلد (علي) بعد ذلك الدواوين جماعة وعزل جماعة وفعل مثل ذلك بالعمال . ونظر الى من تعود اقتطاع الاموال السلطانية واقامة مروات نفسه منها وقصر في العمارة ، واعتمد

---

(١) Bowen p. 12.4 (٢) مسكوية ١ : ٣٧

غيره فعزل امثال هؤلاء »[1] كما حاول وضع حد للرشوة (المرافق) التي كانت سائدة متفشية والتي كانت تسجل احياناً في حسابات الدواوين[2]. هذا وانه كتب الى العمال ان ينظروا في شكوى المتظلمين من دافعي الضرائب ضد الجباة أو الموظفين الآخرين ليرجع ثقة الناس بعدل الحكومة وجعل جزاء من يحتجن اموال الدولة السجن والعقاب الشديد . فكانت النتيجة ان زاد الارتفاع ... لأن الخير انتشر بالعدل ، وقيل قد رفع الحيف والظلم ، فنشط الناس للازدياد في العمارة [3].

وبلغ من اهتمامه برخاء الرعية ان يصدر الاوامر بأصلاح المساجد والمستشفيات القديمة في انحاء المملكة وبني اخرى جديدة . يقول مسكويه «ثم عمر ... البيمارستانات وادر الارزاق لمن ينظر فيها ، وازاح علل المرضى والقوام»[4]. وكان في بغداد اربعة مستشفيات ، ولكنها لم تكن كافية . فبنى على مستشفى آخر في محلة الحربية انفق عليه من ماله الخاص .[5] وانشاء ديوان البر للنظر في اموال الوقوف والصدقات. وكانت هذه تصرف على الحرمين وفي الجهاد ضد البزنطيين .[6]

وخير تعليق على سياسة على بن عيسى قول مسكويه «فساس ... الدنيا احسن سياسة ، ورسم للعمال الرسوم الجميلة وانصف الرعية وازال السنن الجائرة ودبر امر الوزارة والدواوين وسائر امور المملكة بكفاية تامة

---

(١) مسكويه ١ : ٢٨ ، ٢ (انظر الصابي ١٦٨ — ١٦٩ (٣ مسكويه ١ : ٣٠ ، انظر القصة في كتاب الوزراء ٣٤٥ — ٣٤٦ ٤) شرحه ١ : ٢٨ ٥) Bowen p. 126-7 (٦) شرحه ١٢٩

وعفاف وتصون وديانة ... فبانت بركته على الدنيا وعمر البلاد وتوفر الارتفاع ،واستقام امر السلطان ،وعادت هيبة الملك وصلح امر الرعيه .»[١]

ثم حاول على تقليل النفقات . فالتفت الى الرواتب فوجدها عالية ف« اسقط ... اكثر ما زاده الخاقاني في وزارته في دواوين الجند واقطاعاتهم . وكانت هذه الزيادة قد لحقت القواد وسائر اصناف الجند ولحقت الخدم والحاشية وجميع الكتاب والمتصرفين وكانت كثيرة . فلما اسقطها عاداه أكثر الناس وشنعوا عليه بالضيق والشح وقطع الارزاق ، وانما اضطر الى ذلك لما رأى نفقات السلطان زائدة على دخله زيادة مفرطة تحوج الى هدم بيوت الاموال وصرفها في نفقات يستغني عنها »[٢] .

ولا يجب ان ننسى ان هذا الوزير بذل جهده لتثبيت أسس المالية على أساس متين ، لحل مشكلة اضطرار الدولة الى الجباية قبل موعدها ، لتخليصها من صعوبة الاستدانة عند الحاجة . فانشأ أول مصرف رسمي عرفه الاسلام[٣] بالاتفاق مع جهبذين يهوديين على تسليف الدولة

---

(١) مسكويه ١ : ٢٨—٢٩ . (٢) شرحه ١ : ٢٩ . وكان على تقياً يصرف اكثر دخله الشخصي في اعمال البر . فقد كان دخله قبل الوزارة ٨٠,٠٠٠ دينار ينفق منها ٥٠,٠٠٠ دينار لتلك الاعمال . ومع ان دخله في الوزارة ارتفع الى ٧٠٠,٠٠٠ دينار سنويا فان نفقته العائلية زادت ١٠,٠٠٠ دينار فقط Bowen p. 133 . (٣) انظر مجلة القضاء السنة الثانية العدد الخامس سنة ٩٤٣ تجد تفاصيل ذلك في مقال الجهبذة والصيرفة في العراق في القرن الرابع الهجري بقلم الدكتور الدوري ص ٥٨١ وما بعدها .

ما تحتاجه من المال لقاء (فائض) معين وسلمها جباية الاهواز كضمان كما انه استعمل اعتماد (Credit) هذا المصرف للاقتراض من التجار متى دعت الضرورة . وقد استمر هذا المصرف في اعماله مدة تزيد على عشر سنين [١] .

وهكذا نجح علي لحد مشكور في اصلاح الوضع المالي ، وفي موازنة الدخل والصرف . ولكن سوء سياسة اخلافه وانانيتهم افسد آثار اصلاحاته . فابن الفرات الذي خلفه في الوزارة انشأ ديواناً خاصاً (ديوان المرافق) لأخذ جزء من ثروة الموظفين على أساس ارتشائهم بالاضافة الى ما يحصل من مصادرة علي وانصاره . [٢] ولكنه لم يكن مدبرا وسرعان ماوجد نفسه في وسط ازمة مالية . فقد تعهد قبيل استيزاره بدفع الف دينار للمقتدر وخمسمائة دينار للسيدة والأمراء يومياً . كما انه زاد في الرواتب مرة اخرى . فوجد الخزينة تقصر عن تنفيذ وعوده . وفوق ذلك كان مبذرا في نفقاته . فقد صرف في الاشهر الاولى من وزارته كميات كبيرة من المال لاستقبال السفراء البيزنطيين الذين ارسلهم قسطنطين السابع الى بغداد لعقد الهدنة ولتبادل الاسرى [٣] . كما ان ثورة ابن ابي الساج والى ارمينيا واذربيجان كلفت الدولة نفقات باهضة بالاضافة الى ان الثائر احتجن اموال مقاطعته وواردات الري [٤] . فارتبك

---

(١) انظر نفس المصدر (٢) مسكويه ١ : ٢٤١–٢٤٣ ، الصابي ٣١–٣٣ ، ٨٦ (٣) مسكويه ١ : ٥٣–٥٥ ، عريب ٦٣–٦٥ ، الخطيب البغدادي : ٤٩ «ط . سالمون» (٤) Bowen p. 155-156

الوضع المالي تارة اخرى وشغب الفرسان يطالبون بنفقاتهم . فاضطر ابن الفرات الى الاستعانة بالخزينة الخاصة [١] .

ووقع ثقل الضائقة المالية على علي بن عيسى الذي اشترك مع حامد في الوزارة . فبدأ بعمل تقدير دقيق الوضع المالي ، ونظم جريدته المشهورة (قائمة الوارد) سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م معتمداً في تقدير الدخل على آخر سنة مالية تامة (أي سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٦—٩١٧ م) بينما احصى النفقات على الجارى . فوجد عجزا يزيد على مليوني دينار سنويا وكان تقديره لسنة اعتيادية . ولكن النفقات للسنين الثلاث الاولى من وزارة حامد لم تكن اعتيادية ، إذ صرفت مبالغ كبيرة للقضاء على ثورة ابن ابي الساج بينما كلف هجوم الفاطميين على مصر (٣٠٧هـ/ ٩١٩—٩٢٠ م) وارد مصر وسوريا لسنتين [٢] . فاضطر علي للاقتصاد في النفقة ، وبدأ بتخفيف الرواتب التي زادها ابن الفرات [٣] . فلاقى مقاومة ولا سيما من جانب الهاشميين [٤] . كما انه اتبع سياسته السابقة نفسها بمنع أخذ المرافق على انها كانت تعتبر من مصادر الدخل إذ انه اعتقد ان في الغائها فوائد مادية ومعنوية .

ولنستمع الى مناظرة ابن الفرات لعلي بن عيسى بعد سقوطه ، قال ابن الفرات لعلي : « قد اسقطت من ارزاق اولاد القرابة والحرم

---

(١) شرحه ١٥٣ (٢) مسكويه ١ : ٤٨—٥٠ ؛ ٧٥، ٧٦ ؛ عريب ٧٧، ٧٩، ٨٠ ؛ ٨٤ ؛ ٨٥، ٨٦ ؛ هلال ٢٩٠ (٣) الصابي ٢٩٦ (٤) Bowen P.201 الصابي ٢٩١ .

والحواشي والخدم والفرسان الذين كنت اوفيهم ارزاقهم في ايامي الاولى والثانية مدة خمس سنين دبرت فيها المملكة ، وأخذت من ارتفاع الضياع المالك والاقطاع بعد ما افرد منها للامراء مايكون مبلغه ومما كنت احمله الى أمير المؤمنين في وزارتي الثانية (وهو كل شهر خمسة واربعون الف دينار للمدة المذكورة) الجملة الكبيرة . فاما ان تكون قد احتجنت ذلك لنفسك أو وضعته لتفريطك . فقال له علي بن عيسى . ما استغللته من الضياع ووفرته من ارزاق من يستغني عنه تمت به عجزا أدخل في الخرج حتى اعتدل الحال ، ولم امدد يدي الى بيت مال الخاصة . واما الخمسة والاربعون الف دينار التي كنت تحملها من المرافق فانني لم ار ما رأيته انت قط من اطلاق المرافق للعمال بل حظرتها عليهم علما بانها طريق الى ضياع الحقوق وخراب البلاد ، وظلم الرعية . وانت كنت توصي الحواشي باخراب بيت المال وتحول ما في بيت المال الخاص الى مال العام »(١) . وهكذا رأى علي في منع الرشا والاعتدال في الضرائب وسيلة لعمارة البلاد وزيادة الدخل . كما ان ضمان حامد للاهواز واصفهان وما تبعه من مشاكل اقتصادية أدى الى صدور الأمر بمنع الضمان لرجال السياسة ولضباط الجيش لانهم اقدر من غيرهم على الظلم .(٢) ولم يقم ابن الفرات في وزارته الثالثة بتدبير

---

(١) الصابي ٢٩١ (٢) عريب ٨٤ — ٨٥ ؛ مسكويه ١ : ٧٢ — ٧٥

مالي يذكر [١].

وكان من أثر سوء تدابير الخاقاني في وزارته ارتفاع الاسعار لدرجة كبيرة ولم يستطع الحصول على النفقات للجيش [٢]. وفي وزارته عين علي بن عيسى بتأثير مؤنس عاملا على الخراج في سورية ومصر (سنة ٣١٣ هـ) وكان الوضع المالي سيئا جداً فيهما. فحاول تنظيم الجباية في كل من القطرين. وقد أدت تدابيره في مصر الى بعض التذمر إذ انه فرض الجزية على الرهبان والقساوسة. فاحتجوا الى المقتدر فصدر الأمر باعفائهم [٣].

أما الخصيبي فقد اخفق في ادارته اخفاقاً ذريعا. وانتكى من ذلك انه كان يكثر من تغريم الاغنياء بحجج تافهة ليرضي المقتدر بهدايا يقدمها للخزينة. فلما ضعف هذا المورد سقط [٤].

ثم جاء على بن عيسى في وزارته الثانية فوجد المالية في حالة سيئة. فحاول تحسين الوضع بان جعل التقارير المالية تعمل اسبوعيا بدل ان تكون شهرية والحسابات تعمل يوميا. ثم انقص الرواتب كثيراً، والغى الرواتب غير الضرورية. ووجد الكتاب انفسهم يشتغلون ساعات طويلة لقاء اجور

(١) لم ينصف الوزير الخصيبي حين قال: «كان ابن الفرات نافذاً في عمل الخراج وتدبير البلاد وجباية المال، وافتتاح الاطراف، واليق من على بن عيسى في سياسة الملك. وكان على بن عيسى كثير التدين، شديد التصون، عفيفا عن المال وله مذهب في الترسل لا يلحق فيه احد ولا ابن الفرات». الصابي - الوزراء ٩٥

(٢) Bowen p. 248-24 (٣) شرحه ٢٥٣ (٤) شرحه ٢٤٦ — ٢٤٨

قليلة . فصار علي مكروها يلقى الشتم والسب من البعض علناً ومع كل ذلك لم يعبأ بهم .[١] وطلب من المقتدر ان يهتم بحراسة الخزينة الخاصة بعد ان برهن له ان السرقة قامت بدورها في تفريغها ، حيث اظهر له سبحة جوهر ظن المقتدر انها في الخزينة ، بينما وجدها علي في سوق القسطاط.[٢]

وبعد شهور من وزارته جابهته مشكلة نفقات الجيش . فقد اضطرب الفرسان مدة اسبوع ، ونهبوا الدور والحوانيت وحتى بعض قصور الخليفة كالثريا ولم يهدءوا الا ان وعدهم مؤنس باجابة طلباتهم . فوجد علي ان صاحب ديوان الجيش لم يدفع لهم رواتب عدة شهور ، واحتجن لنفسه كميات كبيرة منها . وعندئذ صرف علي صاحب الديوان وكتابه وصادرهم على كميات كبيرة . واستطاع ان ينفذ وعد مؤنس ، فسمح له ان يختار المقاطعات التي يعتمد على واردها لدفع النفقات . وهذا الحادث حمله على اعادة النظر في مرتبات الجيش وارزاقه [٣] .

وكان سبب استقالته ان الجند طلبوا زيادة مرتباتهم فوافق المقتدر على زيادة دينار واحد لكل جندي[٤] . ولما عين ابن مقله بعده قال علي : « حدث يحب الرياسة ، ويراعي يومه دون غده ... أليس تدبير الخلافة الى قوم مبلغ عقولهم انهم يظنون ان ابن مقله ينهض بما اعجز انا عنه ويستقل بما اتفادى منه ، انا لله وانا اليه راجعون . ذهبت والله الامور » [٥] .

---

(١) شرحو ٢٥٧—٢٥٩ (٢) عريب ١٣٠ (٣) مسكويه ١ : ٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ حمزة الاصفهاني (٤) Bowen p. 271 (٥) الصابي ٣٥٩— ٣٦٠

وفعلا اضطربت الامور بعد استقالة علي ، وأصاب الخزينة عجز مزمن ، وصارت غير قابلة لأى اصلاح بعده . فسليمان بن الحسن وجد في بيع الضياع السلطانية مورده الأول لسد النفقات ، ولكن هذا المورد لم يكف لسد العجز [١] . والكلواذاني وجد وضعه حرجا جداً فديوان السواد وبعض الموارد رفعت من اشرافه ، ومنعه مؤنس من تعقب بعض المدينين للدولة [٢] . والتجأ الى الخزينة الخاصة لاقتراض ٧٠,٠٠٠ دينار ، فاغضب المقتدر بذلك واضطر لتقديم استقالته [٣] .

واخيراً وجد المقتدر في نزاعه الأخير مع مؤنس انه لا يستطيع دفع نفقات الجيش . ولما استعان بوالدته أدعت انها لا تملك شيئاً ، وهكذا انهار أساس الدولة المالي ولقي المقتدر حتفه [٤] .

رعب مؤنس من مقتل الخليفة إذ كان يشعر بان سلطانه مرتبط بسلطان سيده [٥] . وأخـــذ يشعر بان كل من اشترك في تلك الجريمة سيلاقي خاتمة مريعة [٦] .

أصبح مؤنس سيد الموقف وتحتم عليه حفظ النظام واختيار خليفة جديد . فاراد مبايعة ابي العباس بن المقتدر ، لتقواه ، وجودة آرائه ولأن علاقته به كانت حسنة . ولكن جماعته ثنوه عن عزمه ، لانهم ارادوا

---

(١) Bowen P. 295 (٢) مسكويه ١ : ٢١١ (٣) مسكويه ١ : ٢١٧-٢١٨ : ٢١٩ ؛ عريب ١٦٤ ؛ الفخري ٢٤٧ (٤) Bowen P. 315
(٥) ولذلك افسد الخطة التي ادت الى خلعه في المرة الثانية . بوين ٣٢١ .
(٦) مسكويه ١ : ٢٤١ ؛ عريب ١٨٠

التخلص من تدخل الحرم بعد ان لاقوا الأمرين من تدخل السيدة ، جدة ابي العباس . واخيراً وقع الاختيار على القاهر فاجلسه مؤنس على دست الخلافة [١] .

ولكن مؤنسا لم يرتح لهذا الاختيار ، لأن القاهر كان فقيراً جداً ، فلم يستطع قبول شروط مؤنس بمنح دراهم البيعة للجيش كما هي العادة[٢] . كما انه كان يختلف عن المقتدر في كل شيء عدا ادمان الشراب. فكان شديد الطمع بينما كان المقتدر كريما . وكان ثابت الرأي حقوداً ، قاسياً ، غداراً [٣] . وفي سبيل الحصول على الاموال نسي حسنات السيدة ، وعذبها بقسوة لدرجة انها ماتت بعد اسابيع قليلة [٤] . بقي على مؤنس بعد اختيار الخليفة ، انتخاب وزير يرضاه . فمال الى علي بن عيسى ، ولكن (يلبق) صرفه عن ذلك ، لأن سياسة علي في الاقتصاد لا تصلح لمعاملة الجيش . فاسندها الى ابن مقله . وفي هذا الدليل الكافي على ان السلطة قد آلت الى الجيش وأصبح صاحب الحول والطول ، واليه يرجع ابرام كل كبيرة وصغيرة . ولذلك كان الوضع ينذر بالشر .

لم يكن لأبن مقله هم سوى المحافظة على مركزه. فسعى لجمع الاموال لأرضاء الجيش واستمالته ، باتباعه سياسة المصادرة على نطاق واسع لاتفه الحجج لدرجة انه اغضب مؤنسا اكثر من مرة . [٥]

---

(١) مسكويه ١: ٢٣٧ ، ٢٤١ - ٢٤٢ ، عريب ١٨٠ — ١٨١ ، ١٨٢ ، ابن الاثير ج ٨ : ٧٦ (٢) عريب ١٨٢ (٣) مروج الذهب ٤ : ٢٤٠ الفخري - طبعة الجارم ص ٢٤٨ (٤) عريب ١٨٣ . Bowen p. 323 (٥) عريب ١٨٥ مسكوية ١: ٢٤٥ - ٢٤٦

وسرعان ماساءت العلاقة بين الخليفة والمحيطين به . فان أتباع المقتدر ظهروا من جديد ومنهم محمد بن ياقوت الذي لاحظ تسلط مؤنس وانصاره . فحاول التقرب من الخليفة ، وكسب ثقته فوفق الى ذلك ، فاوجس ابن مقلة خيفة من هذا الحادث ، ووشى الى مؤنس بان الخليفة ومحمد يتآمران ضده . فهرب ابن ياقوت وبقي الخليفة شبه سجين في قصره ، يحيطه الحرس لئلا يسمح للخليفة بالأتصال بانصاره . وشددت الرقابة عليه لدرجة ان اواني الطعام كانت تفحص قبل ادخالها .

ضاق القاهر بهذا الوضع ذرعا وحاول التخلص منه . فاستغل الخصومة الداخلية في الجيش . فمؤنس بتقريبه (يلبق) وابنه علي اغضب اثنين من كبار انصاره احدهم طريف السبكري . هذا من جهة ومن الجهة الاخرى كان الساجية غير راضين عن مؤنس لأنه لم يحقق وعده بزيادة رواتبهم . وعلى الرغم من شدة المراقبة على القصر فقد بدأت المؤامرة .

ولكن التحريض بدأ من الجهة الثانية ، اذ اكتشف ابن مقله ان القاهر قرر عزله وتولية محمد بن القاسم (ابي الحسين) محله . وعندئذ ألح على اصحابه بعزل القاهر وتولية ابن المكتفي (محمد) الخلافة . فوافق يلبق وابنه واقسما يمين البيعة سراً . واخيراً وافق مؤنس ودبرت خطة التنفيذ وهي ان يقوم علي بن يلبق بمقابلة الخليفة وسط الليل بحجة ان ان القرامطة هاجموا الكوفة وانه جاء يطلب تفويضاً من الخليفة . وبهذه

الوسيلة يلقي القبض عليه [١]. إلا ان الخليفة اكتشف المؤامرة ودعا الساجية الى القصر سراً . فاختفى علي بن يلبق واختفى ، ثم جيء به بعد ايام قلائل فجلد وسجن بعد ان غرم . ثم قبض على يلبق نفسه واودع السجن مع ابنه وعندئذ ادرك ابن مقلة حراجة الموقف فاختفى هو وكتابه ثم التفت الخليفـة الى مؤنس واراد القبض عليه فارسـل يطلب مقابلته مدعيا بانه (الخليفة) لايستغني عن مشاورته وسداد آرائه . وتردد مؤنس اولا ثم جاء . فلقي ما لقي يلبق وابنه [٢]. وصدرت الارادة بقتل الثلاثة عندما شغب اتباع مؤنس بعد اسابيع يطلبون اطلاقه (شعبان ٣٢١هـ / اب ٩٣٣ م) . وتنفس القاهر الصعداء واراد ان تكون سلطته حقيقية . فاستوزر محمد بن القاسم ، وقتل ابن المكتفي بفظاعة ولقب نفسه « المنتقم من اعداء دين الله » ودفع للجيش رواتبه . وبذا تحقق لديه ان سلطته أصبحت حقيقية [٣] .

ويظهر ان نشوة الفوز على خصومه انسته الاخطـار الباقية . فابن مقلة لا يزال حراً وطريف الذي ساعده على تقوية مركزه عومل ببرودة ثم سجن كما انه اهمل الساجية وعامل رؤساءهم بقسوة لئلا يتحكموا به. [٤] ونحى محمد بن القاسـم عن منصبه واستوزر الخصيبي آخذاً برأي طبيبه عيسى ، (ذو الحجة ٣٢١هـ/ كانون الاول ٩٣٣م) . واتبـع طرقا بلغت

(١) Bowen p. 327 - 328 «٢» مسكويه ١ : ٢٥٩ — ٢٦٤ ، ٢٦٦ ؛ عريب ١٨٦ ؛ ابن الاثير ج ٨ ٧٩ — ٨٢ «٣» مسكويه ١ ؛ ٢٦٤ — ٢٦٥ ، ٢٦٦ ؛ ٢٦٨ «٤» ابن الاثير ج ٨ : ٨٢ .

الغاية في القسوة والفظاعة في مصادرات الناس، مما اثارت حنق البغداديين عليه [١]. وكان لزهده في معيشته أثر حسن وقتي، ولاسيما عندما امر بمنع الخمور ونفي المغنيات. ولكن انقلاب الشعور كان عنيفا عندما عرف انه سكير وان اوامره كانت لتقليل سعر الشراب الذي كان مستهتراً به [٢].

وصار ابن مقله ينتهز الفرص للدس على الخليفة. فلما عرف انه بنى غرفا تحت الارض في قصره (ادعى الخليفة انها بنيت لتكون حمامات للنساء) اشاع بانها مطابق ليسجن بها الخليفة اعداءه. وقويت الاشاعة عندما سجن القاهر بها بعض القرامطة. واستعمل ابن مقلة منجما ليقنع احد رؤساء الساجية (سيما) بان القاهر يريد القبض عليه. ثم ان الحرس الحجرية اعداء الساجية، تذمروا من تصرفات القاهر وتفاوضوا مع اعدائهم واتفقوا معهم، ثم اجمعوا امرهم ٦ جمادي الاولى ٣٢٢هـ ٢٤ نيسان ٩٣٤م واحاطوا بالقصر فجأة. ولما اسرع الوزير والحاجب لتنبيه الخليفة للخطر وجده ثملا. ولم يفق الا بعد فوات الأمر فالقى القبض عليه وسجن [٣].

وهكذا ذهب القاهر ضحية طغيان الجيش وتكالب رؤسائه وجشعهم. وجيء بأبي العباس بن المقتدر — وكان سجينا — فبويع ولقب بالراضي. واجبر القاهر على التنازل عن الخلافة ثم سملت عيناه وبهذا سقط آخر حق من حقوقه.

(١) مسكويه ١ : ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ (٢) مسكويه ١ : ٢٨٤ـ٢٨٥ عريب ١٨٣ـ١٨٥ (٣) Bowen p. 323-32[illegible] .

رغب الراضي في استيزار علي . ولكن هذا اعتذر لضعفه وكبر سنه . فاسندها الى ابن مقله الذي تمكن من اغراء رؤساء الساجية ولا سيما (سيما الشرابي) بكمية من المال وتعهد بدفع نصف مليون دينار عطايا للبيعة [١] .

وفي هذا الوقت استقل البويهيون في فارس ، وظهر البريديون (واشهرهم ابو عبدالله البريدي [٢] وتمكنوا بواسطة صداقتهم لابن مقلة وبخبث اساليبهم من التدرج من جباة عاديين الى حكام يدهم خوزستان يحكمونها حكماً مستقلا . وكانوا مثلا للظلم والارهاق في الجباية [٣] . وفي هذا الوقت صار لابن رائق مركز مهم . فقد كان من مؤيدي القاهر فكافأه بولاية البصرة . وترضاه ابن مقله بعد اخفاقه في الحصول على الحجابة باسناد قيادة الجيش والشرطة بواسط اليه . فصار شخصية يقام لها ويقعد ، كما ان الحسين بن ابي الهيجاء الحمداني تنفذ في منطقة الموصل وديار ربيعة لدرجة انه قتل عمه سعيداً الذي ولاه الخليفة على الموصل املا بالحصول على بعض الدراهم من ديار ربيعة . وتمكن من ارشاء ابن مقله قائد الحملة المرسلة لاخضاعه ، وحصل على تولية من الخليفة وفشل المشروع . [٤]

---

(١) مسكويه ١ : ٢٩٠ ـ ٢٩١ . ٢ سمي كذلك لان جدهم كان صاحب بريد البصرة
(٣) مسكويه ١ : ٢٥٤ ـ ٢٥٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ـ ٣٢١ ، ٣٣٩ ـ ٣٤٨ (٤) مسكويه ١ : ٣٢٣ ـ ٣٢٧ ، ٣٤٧ ـ ٣٤٨

اما ابن مقله فقد وجد نفسه في حالة مالية حرجة ، لسوء الادارة والتدبير ، وحاول الاقتراض من التجار على الحاصل الجديد فلم يفلح لعدم تمكنه من ارضائهم . هذا بالاضافة الى ان حملة الموصل كلفته كثيراً . وزاد الوضع سوءا ابن رائق الذي احتجن وارد البصرة وواسط انتقاما لعدم تعيينه حاجبا ، آملا من وراء ذلك اقالة الوزير فيحل محله .

وفعلا عزل ابن مقله (١٦ جمادي الاولي ٣٢٤ هـ/ ١٢ نيسان ٩٣٦ م) . ولكن عزله كان نتيجة لدسائس ابن ياقوت . ثم وقع اختيار الجيش على علي بن عيسى [١] .

رفض علي الوزارة ، واخيراً اقترح ان يستوزر اخوه عبدالرحمن على ان يساعده هو فقبلت التسوية . ولكن الازمة المالية وصلت حداً بعيداً من السوء فبينما انحصرت سلطة الخليفة في بغداد وحواليها ، لم تنقص النفقات الامبراطورية ، وبانت استحالة موازنة الدخل والخرج واشتدت الأزمة في رجب ٣٢٤ هـ/ حزيران ٩٣٦ م حين اضطر عبد الرحمن لطلب قرض من الخليفة مقداره ١٠٫٠٠٠ دينار فغضب الخليفة وأمر بسجن الاخوين واغرمهما [٢] .

واستوزر الكرخي المشهور بقصره [٣] ولكنه لم يجد مخرجا من

---

(١) مسكويه ١ : ٣٢٠ ، ٣٢٩ - ٣٣١ ، ٣٣٢ - ٦ ، ٣٣٧

(٢) مسكويه ١ : ٣٣٦-٣٣٨ . الصابي - الوزراء ٣٣٢ - ٣٣٤ .

(٣) قيل انه وأتم العرش انقصت حوالي اربعة اشهر لم تستطع الخليفة التحدث مع وزيره .

الازمة ، بل انه لم يستطع الاستفادة من الموارد التي كانت لديه بصورة كافية ، إذ وجدت بعد عزله صكوك لم تصرف . وبقي في الوزارة ثلاثة شهور . ثم استوزر الراضي سليمان بن الحسن . ولكنه ادرك استحالة استمرار الوضع لانفصال الولايات ، واخيراً اضطر الخليفة لقبول اقتراح ابن رائق وهو انه يقوم بتجهيز النفقات العامة ، ودفع رواتب الجيش ان عهدت اليه القيادة والادارة العامة (١) .

لقب ابن رائق امير الامراء ، وصار بيده رئاسة الجيش ، وامتدت سلطته بصورة مباشرة على جباية الضرائب وعلى ادارة الحكومة المركزية وغدا اسمه يذكر مع اسم الخليفة في خطبة الجمعة .

---

(١) اقترح ابن رائق قبيل سقوط ابن مقلة بانه ان عين وزيراً فانه يتعهد بدفع كل النفقات وعلاوة على ذلك يخصص للخليفة مخصصات كافية . فلم يقبل الخليفة آنذاك بالاقتراح ، انظر بوين ٣٢١ – ٣٢٢ ولكن ابن مقلة تخلى الآن عن طلب الوزارة لأنه ادرك تغير الوضع .

البويهيون

الخطـــة :ـ

١) مقدمة جغرافية اثنولوجية

٢) نشأة البويهيين

أ) مبدأ امرهم وتوسع نفوذهم حتى فتح بغداد

ب) اصلهم

٣) سياستهم في العراق

أ) علاقتهم بالخليفة

ب) سياستهم المالية

٤) اسباب تدهورهم

أ) الخصومة بين افراد الاسرة المالكة

ب) الجيش واسباب أخرى

٥) الاثر الاقتصادي والاجتماعي للبويهيين

البويهيون

أدى توسع الديلم في القرن الرابع الى ان يدخل الجغرافيون تحت كلمة « الديلم » مجموعة الاراضي المحيطة ببحر الخزر والتي تحدها خرسان من الشرق والجبال من الجنوب واذربيجان من الغرب. أما بلاد الديلم الأصلية فهي المنطقـــة الكائنة بين طبرستان والجبال وجيلان وبحر الخزر [1]. ويسكن الديلم الاراضي الجبلية على الجهة الشمالية لجبال البرز بين نهر (سفيد رود) ونهر (شالوس) الذي يصب في البحر على مسافة ١٨٠ كيلو مترا الى الشرق من سفيد رود [2]. ولعل الديالمة ينتسبون الى اقوام غير ايرانية كانت تسكن في مناطق بحر قزوين في الزمن القديم وفي العصر العربي كانت لغتهم لهجة ايرانية شمالية تختلف عن الفارسية التي هي لهجة جنوبية وبالأخص لهجة مقاطعة فارس، ولكن اغلبية الديلم كانوا قد اصبحوا ايرانيين بمعنى الكلمة في العصر الاسلامي [3] ويظهر ان الديالمة كانوا ينقسمون اجتماعيا واثنولوجيا الى (الاستانية) « الذين يسكنون الاوعار والحصون والجبال من بلاد لديلم » واللانجية الذين « يسكنون صحارها والسهل من بلادها » [4].

وكان نظام الديلم الاجتماعي يستند الى سلطة رؤسـاء العوائل.

---

(١) المقدسي ٣٥٣، حدود العالم ص ١٣٣ وص ٣٨٤ (٢) Minorky p.
(٣) Mimorsky p. (٤) ابن حسول - تفضيل الاتراك على سائر الاجناد ص ٣٠ - ٣١ استنبول ١٩٤٠

ثم جاء الحسن الاطروش فقضى على هذا النظام الارستقراطي القديم والذي يرتكز على سلطة الكاتخدا (رب البيت) واستبدله بنظام التعاون بين مختلف طبقات الشعب وبذلك افسح المجال للطبقات الواطئة ان تتقدم (١)

اما دين الديالمة فيشوبه الغموض . فقد تخللت بلادهم الزردشتية ، ولعل المسيحية قد دخلتها ايضاً . والمسعودي يصرح بانه يوجد في الديلم اناس على جهل بكل الاديان المعتبرة (٢) .

ولقد لاحظ المسلمون عندهم بعض العادات الغريبة فالمقدسي يبين انهم يحصرون الزواج بينهم داخل القبيلة (٣) .

وكانت منزلة النساء حسنة عندهم . يقول مسكويه : « وكن يجرين مجرى الرجال في قوة الحزم واصالة الرأي والمشاركة في التدبير » (٤) . ويتحدث الكتاب عن شدة حزنهم ومبالغتهم في العويل على الاموات (٥) . ولم يكونوا متحضرين كبقية الايرانيين . « وكانت الفرس تسمي الديلم اكراد طبرستان » (٦) . وكان البغداديون يحقرونهم ويرونهم جهالا خشنين . يقول التنوخي « كان الناس يتمثلون اذا ظلموا فيقولون أي شي خبرنا ، في يد الديلم نحن أم في يد الاتراك ؟ » (٧) ويقول المقدسي عن

---

١) قال البيروني عن الحسن انه « اعاد اشتراك المردة مع الناس في الكدخدائية ص ٢٢٤ » (٢) مروج الذهب اوربا ج ٩ ص ٤ ، ج ٨ ص ٢٧٩ ٣ المقدسي ص ٣٦٨ - وللديلم رسوم عجيبة لا يزوجون الى غيرهم (٤) ج ٣ ص ٣١٣ (٥) Minorsky p.5 ، المقدسي ص ٣٦٩ (٦) حمزة الاصفهاني ص ١٥١ (٧) نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٥٧ ، Bowen 315 ، 66

الديلمان « لا ترى لهم لباقة ولا علم ولا ديانة » [١] . ولكن الديلم اشتهروا بالشجاعة فالمقدسي يقر بانهم اصحاب «دولة ورجلة وهيبة» [٢] .

ويشيد صاحب حدود العالم بشجاعتهم وبقابليتهم الحربية ويبين انهم يستعملون الدروع والسيوف القصيرة في القتال [٣]. واشتهروا بجمال وجوههم وشعورهم [٤] . وكان عامتهم اكرة وفلاحين [٥] .

— ٢

وقد ساعدت وعورة البلاد على صعوبة اخضاعها وكان الساسانيون قد جعلوا قزوين الحصن الاكبر ضد الديالمة كما كانت قلعة شالوس (Tchalus) ذات اهمية كبيرة أيضاً فجعلها المسلمون نقطة ارتكاز ضد الديالمة . ولكن هؤلاء لم يظهروا امارات الخضوع ابداً . فلم تكن للحملات المتعددة التي ارسلت ضدهم نتائج ثابتة . ولم يكن المسلمون يجهلون جغرافية جبال الديلم جهلا تاماً . فيروي ان الحجاج احضر خارطة للديلم واظهرها لرؤساء الديالمة ليبين لهم عبث المقاومة ما دامت اسرار بلادهم معروفة . ولكنهم نظروا اليها بشيء من عدم الاكتراث واجابوا بان الخارطة ناقصة إذ لا يرى فيها الفرسان التي تحرس الجبال [٦] . وقد بقي سكان الديلم وجيلان وثنيين او زردشتية حتى قبيل القرن الثالث للهجرة [٧] . ثم تغلغل الاسلام في الديلم بطريقة

(١) ص ٣٥٥ (٢) شرحه (٣) حدود العالم ص ١٧٣ (٤) المقدسي ٣٦٨ ص ٣٦٠ , (٥) شرارج ١ ص ١٥٧ ؛ حدود العالم ص ١٧٣ (٦) ابن الفقيه ٢٨٣ . (٧) Minorsky, ... 306

سلمية ، إذ التجأ اليها بعض العلويين الزيدية (١٧٥ هـ / ٧٩١ م) هربا من الاضطهاد السياسي فقوبلوا حلفاء حتميين ضد خلفاء بغداد .

وبعد سنة ٢٥٠ / ٨٦٤ قام هؤلاء الائمة بدور هام وخلقوا من الديلم مركزاً جديداً للمقاومة ، معاديا لبغداد ولامراء خرسان (الذين حاولوا مد نفوذهم على مقاطعات بحر قزوين) على السواء [١] . وبالتدريج انتجت الدعاية العلوية ما عجز عنه السلاح وهو تحويل أكثرية الديلم الى الاسلام على المذهب الزيدي . كما ان الائمة انفسهم قد تديلموا وجعلوا قضية السكان المحليين قضيتهم .

وما دام الديالمة يقاومون دخول الاسلام فان بلادهم كانت تعتبر دار حرب وهذا يجعل للمسلمين حق تنظيم الحملات ضدهم للحصول على الرقيق . الا ان الناصر حسن بن علي الاطروش وضع حدا لهذه الاعمال وهدم قلعة شالوس (٣٠٢ / ٩١٤) الموجهة ضد الديالمة .

ولحماية حق الديالمة في المراعي المشتركة التي أراد الطاهريون الاستيلاء عليها [٢] تحالف العلويون أول الأمر مع الامراء المحليين (العائلة الجستانية) [٣] . ومن الديلم قاد الائمة حملات خلال مناطق بحر قزوين

---

١ الحسن بن زيد: ٢٥٠ — ٢٧٠ هـ ثم اخوه محمد بن زيد : ٢٧٠ — ٢٨٧ هـ ، حسن بن علي الاطروش ٣٠١ هـ ـ ٣٠٤ هـ ، الحسن بن القاسم : ٣٠٤ ـ ٣١٦ هـ انظر التفصيل في هذا الكتاب ص ٧١ — ٧٣

Barthold Turkistan P. 214 Bowen P. 308 انظر الكتاب ص ٧٢

(٣) انظر ابن حوقل ص ٣٢ — ٣٣

وهكذا عودوا الديالمة على فكرة التوسع وجعلوهم يشعرون بقوتهم. كما ان انتشار الاسلام بينهم اثار روح المغامرة فيهم [١].

واخيراً نرى العلويين حوالي (٣٠٢/٩١٤) يصبغون حركتهم بصبغة شعبية ويثيرون الاهالي ضد الامراء الجستانيين ويتسلمون السلطة بيدهم [٢].

وقد انقسم العلويون على انفسهم بعد وفاة الاطروش لانه استخلف نسيبه الحسن بن القاسم الداعي الى الحق فاسخط ابناءه.

ونشبت الحرب بين مدعي خلافته، وكان كل منهم يحاول استخدام الديلم لشجاعتهم [٣] فظهرت سلسلة من الشيوخ المحاربين في خدمة العلويين وتقدمت لبدء احتلال ايران الغربية والجنوبية. ومما فسح المجال لهؤلاء الشيوخ ان الخصيبي دعى ابن ابي الساج سنة ٣١٥ هـ من اذربيجان لمحاربة القرامطة. فمانع ابن ابي الساج منذراً بالخطر وقد جاء في جوابه «انا في ثغر اعظم من ثغور الروم وبازاء سد احصن من سد ياجوج وماجوج وان اخلات به انفتح منه اعظم من امر القرامطة ولم يؤمن ان يكون سبباً لزوال المملكة في سائر النواحي». فلم يصغ احد الى إنذاره وكانت نتيجة ذلك وخيمة [٤] فظهر من الديلم اولا ليلي بن نعمان سنة ٣٠٨ـ٩٢٠ الذى استولى على نيسابور ولكن السامانيين قضوا عليه في

(١) مينورسكي ص٧ــ٨، Minorsky p 8 (٢) Bowen 306
(٣) انظر التفاصيل في Bowen p. 307-311 (٤) التنوخي ـ نشوار المحاضرة ج ١ ص١٠٦

السنة التالية . ثم ظهر في خدمة العلويين قائد شجاع اسمه (ما كان بن كاكي) الذي فتح آمل وطرد خصمه اسفار بن شيرويه منها. ثم اخذ الري من السامانيين، ودخلها مع سيده الداعي . فاستغل اسفار بن شيرويه فرصة ترك (ما كان) لطبرستان فهاجمها وقتل الداعي مدافعا عن آمل وطرد ما كان من الري .

وكان اسفار شخصية عسكرية خشنة كما انه « كان لا يدين بملة الاسلام[1] » وقد رمى المؤذن من قمة المنارة في قزوين عند الاذان . ولم يطل امد انتصاره اذ ان سوء ادارته وظلمه للرعية ادى الى التذمر فقام ضده قائده مرداويج بن زيار وبالتحالف مع ما كان طرده من الري وهزمه وقتله. ثم اصبح مرداويج ضد ما كان وطرده من طبرستان[2]. وصار بيده طبرستان وجرجان والري وشمال الجبال واخيراً فتح همدان وهزم جيوش الخليفة فيها ونهبها[3].

وكان مرداويج ايرانيا يحوله طموحا . فكان يقول « انا ارد دولة العجم وابطل ملك العرب »[4] وهو مؤسس السلالة الزيارية التي امتد نفوذها غربي ايران حتى الاهواز ولكنها استقرت مؤخراً في منطقة جرجان غرب استراباد. واصل الزياريين من جيلان الا انهم كانوا اقرباء الديالمة ، وكانت العائلة الزيارية (حتى ٤٢٨-١٠٢٩) أول سلالة

(١) المسعودي ج٩ ص٨ ، ص١٠ (٢) ثم انتقل ما كان الى خدمة السامانيين وسقط اخيراً في ثورة ضد سادته الجدد سنة ٣٢٩-٩٤١ ، (٣) Bowen 308-311 Minorsky p. 9, (٤) المنتظم لابن الجوزي ٦ ص ٢٦٨

ايرانية ثبتت مركزها غرب السامانيين .

ان تعاقب عدد من الرؤساء الديالمة على المسرح بعد سنة ٩١٠ م يدل على القوة الكامنة في بلاد الديلم ، وهي التي ادت اخيراً الى ظهور اهم سلالة ديلمية وهي السلالة البويهية (١) .

كان مؤسسوا الدولة البويهية الاخوة الثلاثة علي (وهو فيما بعد عماد الدولة) وحسن (ركن الدولة) واحمد (معز الدولة) وابوهم ابو شجاع بويه ومنه اشتق اسم العائلة . وكان صيادا فقيراً على بحر قزين (٢) ويقطن في قرية كيا كليش (Kiyaklich) في الديلم (٣) . وبعد نجاحهم وضع لهم نسب يتصل بالملك الساساني (بهرام جور) او بوزيره مهر نرسي (٤) ويذكر ابن حسول ان ابا اسحق الصابي نسبهم في كتابه التاجي الذي كتب لتمجيد البويهيين بامر عضد الدولة وباشرافه الى بني ضبة في العرب (٥) وفي الوقت نفسه الى بهرام جور (٦) .

كان الاخوة الثلاثة جنودا مغامرين جربوا حظهم في خدمة ما كان

---

(١) Minorsky p. 9 (٢) المنتظم ج ٦ ص ٢٦٩ وينسب الى قبيلة شيرزيل آوند Minorsky p. 9 حمزة الاصفهاني يسميها شيرذيل آوند ص ١٥٣ (٣) Mniorsky P. 9 (٤) ابن حسول ص ٣٥ ، دائرة المعارف الاسلامية مادة «بويهيون» ، Bowen 339 ; Minorsky p.9 ؛ المنتظم ينسبهم الى سابور ذي الاكتاف ج ٦ ص ٢٧٠ (٥) ص ٣٤ ــ ٥ (٦) ويعلق ابن حسول قائلا : «فاول ظلم في الصابي .. ان نسب ذلك الوالي الى نسب مجهول ووقفه موقف مغرور مغمور . ثم تناسى ما اوجب له من النسبة العربية حتى نزح به الى الدوحة الفارسية في بهرام جور ومعلوم تباين العرب والعجم في أنسابهم ص ٣٥

فارتفع علي اكبر الاخوة بعبقريته الحربيـة الى مركزهام وعندما دحر ما كان على يد مرداويج وانتقل لخدمة السامانيين اتضح أنه لا يستطيع القيام بنفقات جيش واسع . فطلب الاخوة منه بصراحة ان يسمح لهم بترك خدمته قائلين « الاصلح لك مفارقتنا اياك لتخف عنك مؤنتنا ويقع كلنا على غيرك . فاذا تمكنت عاودناك »[١] . وانتقلوا الى خدمة مرداويج . وتميز عليّ بسرعة فولي على كرج سنة ٩٣٢ (بين اصفهان وهمدان) واظهر كياسة في الادارة واحبه سكان المنطقة والعمال المحليون . فثارت شكوك مرداويج وعندئذ راى علي ان من الحكمة ان يجمع ضرائب المنطقة لمدة سنة ويسير جنوبا الى اصفهان . وفكر بدخول خدمة الخليفة ، ولكن والي المنطقة المظفر بن ياقوت رفض ، فاستطاع علي بحذقه الاستيلاء على اصفهان ودحر الوالي[٢] .

فاغتاض مرداويج وأرســـل اخاه واشمكير ضد اصفهان فتراجع علي غربا الى ارجان واحتلها سنة ٣٢١ / ٩٣٣ ثم استطاع ان يحوز نصراً باهراً على والي الخليفة على مقاطعة فارس سنة ٩٣٤ . وفي سنة ٣٢٢ـ٩٣٤ تمكن احمد بن بويه وكان عمره حوالي تسعة عشر عاما من احتلال كرمان . ومنذ ذلك الحين لم يبق بيد الخلافة الا حدود ايران الغربية ، ففي خراسان كان السامانيون ، وفي الرى واصفهان كان الزياريون وفي الجنوب كان الاخوة البويهيون[٣] .

---

(١) مسكويه ج ١ ص ٢٧٧ (٢) كان اتباع الوالي ٤٠٠٠ واتباع علي ٧٠٠ ولكن مرتزقة الوالي كانو من الديلم فانضموا الى علي وخاصة وانه كون له سمعة طيبة ، فانتصر على خصمه Minorsky p. 10 (٣) Minorsky p. 10

ولم يرتح مرداويج بل قرر ضرب علي بن بويه. ولمهاجمته من جهتين أرسل جيشا الى خوزستان فهزم ياقوتا والي الخليفة ولكن عليا فاوض مرداويج قبل ان يأتي ضده وقدم له الطاعة وأرسل اخاه الحسن كرهينة وأرسل الهدايا فرضي مرداويج.

ولما فتح مرداويج خوزستان بهذه السهولة فكر بمشروع اخطر إذ قرر فتح بغداد والقضاء على الدولة العباسية وانشاء مملكة على الطراز الساساني مركزها طيسفون. وكان يقول « انا ارد دولة العجم وابطل ملك العرب »[1]، ولكن حكم مرداويج لم يدم طويلا لانه كان شكس الطبع سيء الاخلاق قاسيا. كما انه بتقريبه الديلم ازعج الاتراك في جيشه فقتله الترك في عيد السذق سنة ٣٢٣/ ٩٣٥، وانهارت بموته مشاريعه العظيمة. ورجع الحسن بن بويه الى اخيه[2].

وانتهز البويهيون الفرصة فاحتلوا اصفهان والري. ثم استمر توسعهم نحو الغرب ومنذ سنة ٣٢٦ ٩٣٧ دخل احمد الاهواز واحتفظ بها برغم المقاومة التي لاقاها. ثم ازداد طموح البويهيين، ففي سنة ٣٢٨ ٩٣٩ نسمع لأول مرة بان اكبر الاخوة يريد التوجه لفتح العراق. ثم ان الاخ الاصغر احمد هاجم ممتلكات الخليفة خمس مرات بين (٩٤٢ - ٩٤٥) متخللا كل مرة الى ابعد من سابقتها في العراق. وفي العراق انحلت اسرة البريديين في الجنوب (البصرة) ومات امير الامراء

---

(١) المنتظم ج ٦ ص ٢٦٨ (٢) Minorsky p.10 Bowenp. 342

توزون بالصرع وتآمر عامل واسط مع احمد بن بويه للتقدم الى العاصمة والتي كانت تشكو الفوضى وسوء الادارة والازمة المالية . فهرب الاتراك شمالا عند سماعهم بتقدمه ودخل احمد بن بويه في مخابرات سرية مع الخليفة ودخل بغداد (دون مقاومة) في ١٧ كانون الثاني سنة ٩٤٦ (١) .

ودخل ابو الحسن احمد بن بويه على الخليفة « وأخذت عليه البيعة للمستكفي واستحلف له باغلاظ الايمان ولخواصه وحلف المستكفي لابي الحسين بن بويه واخويه وكتب بذلك كتابا ووقعت فيه الشهادة عليهما » .

وخلع الخليفة علي ابي الحسين وطوقه وسوره وعقد له وجعله أمير الامراء (٢) ولقبه (عز الدولة) ولقب عليا (عماد الدولة) وحسنا (ركن الدولة) .

— ٣

أ) وظهر التبدل كمجرد استبدال أمير بأمير . نعم كان العصر البويهي متمما لعصر أمير الأمراء في اتجاهاته ، إذ ان البويهيين اتخذوا هذا اللقب وحلوا محل الامراء السابقين وبقي الخليفة شبحا وساد الاتجاه العسكري في مؤسسات الدولة (٣) . ولكن بعض الاوضاع الجديدة جعلت وضع الخلافة ينتقل من سيء الى اسوء . فقد جاء البويهيون على

(١) Minorsky 12 ، مسكويه ج ٢ ص ٨٤ـ٥ (٢) المنتظم ج ٦ ص ٣٤٠

(٣) انظر مسكويه ج ١ ص ٣٥٥

رأس جيش اجنبي وانشأوا امارة وراثية وكانوا شيعة زيدية (١)، لا يعترفون بحق العباسيين لحكم العالم الاسلامي (٢). ولم يبق البويهيون الخلفاء العباسيين الا لاعتبارات سياسية (٣).

فقد اراد معز الدولة نقل الخلافة لابي الحسن محمد بن يحيى الزيدى فحذره خواصه من سخط الناس ومخالفتهم لان «عامة الناس في الاقطار.. قد اعتادوا الدعوة العباسية ودانوا بدولتهم واطاعوهم طاعة الله ورسوله ورأوهم اولي الامر» (٤). وبينوا له مزية كون الخليفة عباسياً «فانك اليوم مع خليفة تعتقد انت واصحابك انه ليس من اهل الخلافة ولو امرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه». وبينوا له الخطر على مركزه في حالة تعيين خليفة علوي قائلين «ومتى اجلست بعض العلويين خليفة ـ كان معك من تعتقد انت واصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه» (٥)، وان السلطة ستصبح بيد الخليفة اما هو فسيكون مجرد تابع «اذا بايعته.. اطاعه الديالمة ورفضوك وقبلوا أمره فيك (٦)». فاعرض الامير عن عزمه وفضل ان يستبد في ظل شبح خليفة على ان يكون تابعا لخليفة يستصوب امامته.

---

(١) يقول ابن حوقل ص٣٢: «والغالب على الديلم التشيع فيهم الا ما على ايدي الناصرية (وهم زيدية)». (٢) ابن الاثير ٧ ص١٤٩ (٣) جاء في ا. [illegible] مادة مابلي Buwayhids

But for these wild warriors, relgiou[s] questions were of quite subordinate importance.

(٤) البيروني — الجماهير في معرفة الجواهر ص٢٢ـ٣، (٥) ابن الاثير ج٧ ص١٤٩

(٦) مسكويه ج٢ ص٨٧ حاشية.

وبمجيء البويهيين انحط مركز الخليفة من سيء الى اسوء وفقد بقية الحرمة والنفوذ التي كانت له في تسيير دفة الدولة . « وكان من اعظم الاسباب في ذلك ان الديلم كانوا يتشيعون ويغالون في التشيع ويعتقدون ان العباسيين قد غصبوا الخلافة واخذوها من مستحقيها فلم يكن عندهم باعث ديني يحثهم على الطاعة » [1] وسرعان ما ظهرت قلة احترام البويهيين للخلفاء العباسيين فبعد اثني عشر يوما من دخول البويهيين بغداد (الخميس ٢١ جمادي الاخرة ٣٣٤ ٢٩ كانون الثاني ٩٤٦) خلع معز الدولة المستكفي لانه اتهمه بالتآمر مع قواده ضده ، وبمحاولته الاستنجاد بالحمدانيين ، كما انه لم يرض عن قبضه على رئيس الشيعة [2] . وكان الخلع بصورة مزرية اذ تقدم ديلمان الى الخليفة وهو في مجلسه ومعز الدولة حاضر « فجذباه وطرحاه الى الارض ووضعا عمامته في عنقه وجراه فنهض حينئذ معز الدولة واضطرب الناس » وساق الديلمان المستكفي بالله الى دار معز الدولة واعتقل فيها ونهبت دار السلطان حتى لم يبق فيها شيء « واحضر معز الدولة ابا القاسم الفضل بن المقتدر وخاطبه بالخلافة ولقب المطيع لله » [3] . ولما هاجم ناصر الدولة الحمداني بغداد سنة ٣٣٥ هـ « يخاصم عن الخليفة » سجن معز الدولة الخليفة . فلما اخفقت حملة ناصر الدولة « استحلف (معز الدولة) المطيع لله انه لا يبغيه سوءاً ولا يمالىء عليه عدوا ثم ازال التوكيل عنه واعاده الى

---

(١) ابن الاثير ج ٧ ص ١٤٩ (٢) مسكويه ج ٢ ص ٨٦ Nino rsky12-3 (٣) مسكويه ج ٣ ص ٨٦ – ٨٧ ؛ المنتظم ج ٦ ص ٣٤٢ — ٣٤٤

داره»[١]. وفي ١٩ رمضان سنة ٣٨١/٩٩١ طمع بهاء الدولة باموال الطائع واخذ املاكه[٢]. ونفذ ذلك بطريقة فظيعة اذ زار الخليفة وبينما هو جالس تقدم اصحابه «فجذبوا الطائع بحمائل سيفه من سريره، وتكاثر الديلم فلف في كساء وحمل الى بعض الزبازب واصعد الى الخزانة في دار المملكة» ثم خلع[٣].

وقد كان الخليفة يزار ولا يزور احداً، الا ان عضد الدولة تجاوز ذلك فعند مجيئه من همدان الى بغداد سنة ٣٧٠ نزل بجسر النهروان «وطلب من الطائع ان يتلقاه فخرج اليه الطائع ... وتلقاه»[٤].

وبمجيء البويهيين انشئت امارة وراثية في قلب الخلافة وبعد ان كان للخليفة في الفترة السابقة وزير وللامير كاتب انعكس الوضع الآن[٥] وصار البويهيون يتدخلون حتى في تعيين كاتب الخليفة.[٦] واستأثر البويهيون بالاموال بينما خصصوا للخليفة راتبا. فجعل معز الدولة للمستكفي خمسة آلاف درهم في اليوم[٧]. ثم خفض ذلك عند تعيين المطيع الى الفي درهم يوميا[٨]. وبعد ان افتتح البصرة سنة ٣٣٦ قطع معز الدولة ذلك الراتب عن الخليفة واعطاه ضياعا تدر مائتي الف دينار سنويا[٩]، ولكن البويهيين كانوا يتجاوزون احيانا على وارد هذه الضياع حتى نقص واردها الى خمسين الف دينار

---

(١) المنتظم ج٦ ص٣٥٠ (٢) مسكويه ج٣ ص٢٠١ (٣) المنتظم ج٧ ص١٥٦
(٤) شرخوج٧ ص١٠٢، (٥) ابن الاثير ج٧ ص١٤٧ (٦) انظر متز ج١ ص٢٢
(٧) ابن الاثير ج٧ ص١٤٨ (٨) مسكويه ج٢ ص٨٧ (٩) مسكويه ج٢ ص١٠٨، انظر المنتظم ج٦ ص٣٥٧

في السنة [1]. ويقول مسكويه « ضياع الخدمة المرسومة بالخلفاء . وقد كانت (سنة ٣٦٤ هـ) متشذبة قد تحيفها اسباب معز الدولة ثم اسباب بختيار فمنهم من تغلب على حدودها ومنهم من ارتقطع الخليفة بعضها . ومنهم من ضمن منها مالم يتصفه من نفسه فيه ولم يسهل اخراج يده عنه فرد عضد الدولة ذلك كله الى حقه » [2] وكان الامير احيانا يضطر الخليفة الى ان يعطيه بعض المال ، كما فعل بختيار سنة ٣٦١ هـ حين طلب اربعمائة الف دينار بحجة الجهاد، فاضطر الخليفة الى بيع جواهره وأثاثه لاجابة الطلب [3]. وكانت اموال الخليفة احيانا عرضه للمصادرة ، كما فعل معز الدولة بالمستكفي وبهاء الدولة بالطائع .

ويتضح زوال سلطة الخليفة من كتاب المطيع سنة ٣٦١ – ٩٧١ الى بختيار حين طلب هذا منه مالا للجهاد مدعيا ان ذلك من واجب الامام . قال المطيع « الغزو يلزمني اذا كانت الدنيا في يدي والي تدبير الاموال والرجال . واما الان وليس لي منها الا القوت القاصر عن كفائي وهي في ايديكم وايدي اصحاب الاطراف فما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء مما تنظر الائمة فيه . وانما لكم مني هذا الاسم الذي تخطبون به على منابركم تسكنون به رعاياكم . فان احببتم ان اعتزل اعتزلت عن هذا المقدار ايضا وتركتكم والامر كله » [4] . وفي سنه ٣٨١ هـ كتب القادر عند تعيينه للخلافة الى بهاء الدولة كتابا جاء فيه « فقد اصبحت سيف امير

---

(١) المنتظم ج ٦ ص ٣٥٧ (٢) مسكويه ج ٢ ص ٣٣٤ , ٣ شرحه ج٢ ص ٣٠٨ (٤) شرحه ج٢ ص٣٠٧

المؤمنين لأعدائه والحافظي دون غيرك بجميل رايه والمستبد بحماية حوزته ورعاية رعيته والسفارة بينه وبين ودائع الله عنده»[1]. ولم يكتف البويهيون باخذ السلطة عمليا بل اخذوها نظريا بأن جعلوا الخلفاء يفوضونها اليهم بصورة رسمية علنية. ففي سنة ٣٦٩هـ وفي حفل مهيب فوض الطائع السلطة لعضد الدولة قائلا «قد رأيت ان افوض اليك ماوكل الله تعالى الي من امور الرعية في شرق الارض وغربها وتدبيرها في جميع جهاتها سوى خاصتي واسبابي، فتول ذلك مستخيرا بالله» وانهى كلامه قائلا «آمرك بما امرك الله به وانهاك عما نهاك الله عنه وابرأ الى الله عما سوى ذلك»[2].

وفي سنة ٣٨١هـ اجتمع الاشراف والقضاة والشهود عند القادر وسمعوا يمينه بالوفاء لبهاء الدولة و«لفظه بتقليده ما وراء بابه مما تقام فيه الدعوة»[3].

ولم يقتنع البويهيون بأخذ السلطة بل شاركوا الخلافة في امتيازاتها الأخيرة في شاراتها. فقد كانت الخطبة في بغداد رمز سيادة الخليفة السياسية فلم يمض ربع قرن حتى اغتصب البويهيون هذا الامتياز وأصبح اسمهم يذكر مع اسم الخليفة في خطبة الجمعة. بدأ عضد الدولة بذلك سنة ٣٦٩ ثم صار سنة لمن جاء بعده من الامراء[4]. والخطبة لامير معناها اعتراف

(١) المنتظم ج ٧ ص ١٥٩ — ١٦٩ ٢ مسكويه ج ٢ ص ٣١٧ — ٣١٨ حاشية ؛ المنتظم ج ٧ ص ١٠٠ ؛ قطب الدين الحنفي : الاعلام باعلام بيت الله الحرام ص ٧٨ (٣) المنتظم ج ٧ ص ١٦٠ (٤) مسكويه ج ٢ ص ٣٩٦ ؛ المنتظم ج ٧ ص ١١٥

الخليفة بسيادته في بغداد [١] . واغرب من هذا ان عضد الدولة اختلف مع الطائع فحذف اسمه من الخطبة لمدة حوالي شهرين (٢٠ جمادى الاولى ـ ١٠ رجب سنة ٣٦٤ هـ [٢] .

وصارت السكة وهي الرمز الثاني لسيادة الخليفة بيد البويهيين . فحذفوا لقب أمير المؤمنين واكتفوا بذكر اسم الخليفة على النقود . في حين ان الامير البويهي لم يكتف بذكر اسمه بل اضاف لقبه وكنيته ، واضيف احياناً اسم رئيس العائلة البويهية والقابه ، بل وحتى القاب ولي العهد في بعض الاحيان ، كل ذلك على النقود المسكوكة ببغداد [٣]. وأدى اشراف البويهيين على السكة الى انهم نقشوا عليها احياناً القاباً لم يمنحها الخليفة لهم . فمثلا وجد لقب شاهنشاه بجنب اسم عضد الدولة على قطعة نقود ضربت بتأريخ سنة ٣٧٠ هـ مع ان هذا اللقب لم يمنح قبل جلال الدولة . ودراسة النقود في العصر البويهي تبين تذبذب عقرب الساعة بين الامير والخليفة . ففي امارة امراء اقوياء يذكر اسم الخليفة على الخلف بينما يذكر على الوجه في امارة الضعفاء . [٤]

وكان من شارات الخلافة قرع الطبول على ابواب الخليفة في اوقات الصلوات الخمس . فحاول معز الدولة ان يساهم في هذا الامتياز فاخفق ولكن عضد الدولة اجبر الطائع (سنة ٣٦٨) على ان يمنحه حق ضرب الطبول على

(١ Siddiqic-Islami Culture 1936 p. 111-12

(٢) المنتظم ج ٧ ص ٧٦ (٣) مسكويه ج ٢ ص ٨٥ ، Siddiqi p. 112

(٤) Siddiqi p. 113

بابه ببغداد ثلاث مرات يوميا (الغداء والمغرب والعشاء)[١]. فجرت العادة بذلك حتى تجاوزها كل من سلطان الدولة وابي كاليجار وجلال الدولة حتى قرعت الطبول لهم خمس مرات يوميا برغب احتجاج الخليفة[٢].

وهكذا سلب البويهيون السلطة من الخلفاء وشاركوهم اول مرة في تاريخ العباسيين في كل شارات الخلافة ومميزاتها. وقد فكر عضد الدوله بمشروع جريء اذ طمع بنقل الخلافة الى البيت البويهي. يقول مسكويه « دبر عضد الدولة (سنة ٣٦٩) ان يقع بينه وبين الطائع لله وصلة بابنته الكبرى». ففعل ذلك وعقد العقد بحضرة الطائع لله بمشهد من اعيان الدولة والقضاة على صداق مائة الف دينار وبنى الامير فيه على ان يرزق ولدا ذكرا منها فيولى العهد وتصير الخلافة في بيت بني بويه. ويصير الملك والخلافة مشتملين على الدولة البويهية[٣].

وتجاوز عضد الدولة المألوف في المراسيم ففي سنة ٣٦٧ ركب الى دار الخلافة فخلع عليه وتوج وطوق وسور «وعقد له «الخليفة» لوائين بيده احداهما مفضض على رسم الامراء والآخر مذهب على رسم ولاة العهود ولم يعقد هذا اللواء الثاني لغيره قبله ممن يجري مجراه .... وكتب له عهدا وقرأ العهد بحضرته ولم تجر العادة بذلك وانما كانت العهود تدفع الى الولاة بحضرة الخلفاء، فاذا اخذه الرجل منهم قال له هذا عهدي اليك فاعمل

(١) مسكويه ج ٢ ص ٣٩٦ ، المنتظم ج ٧ ص ٩٤ (٢) المنتظم ج ٨ ص ٣٠
(٣) ٢ ص ٢١٤ .

به»[1] . فهل كان عضد الدولة يحلم بولاية العهد؟ ولا ضرورة لبيان ان جميع خلفاء القرن الرابع كانوا من اختيار البويهيين يولونهم ويعزلونهم حسب ما تمليه مصالحهم .

ج) ولم يبق للخليفة الا نفوذه الديني فاخذ يتمسك به ويؤكده. فيقول البيروني (الذي كتب في خلافة القائم) ان الدولة والملك قد انتقل من آل العباس الى آل بويه، والذي بقي في ايدي العباسية انما هو امر ديني اعتقادي لا ملكي دنياوي كمثل ما لرأس الجالوت عند اليهود من امر الرئاسة الدينية من غير ملك ولا دولة[2]

وقد صرح المطيع سنة ٣٦٣هـ في عهده للطائع بحقيقة مركزه فقال في كتاب التنازل «هذا ما اشهد على متضمنه امير المؤمنين افضل المطيع لله حين نظر لدينه ورعيته وشغل بالعلة الدائمة عن ما كان يراعيه من الامور الدينية اللازمة وانقطع افصاحه (ثقل لسانه بفالج اصابه) عن بعض ما يجب لله عز وجل فرأى الاعتزال .... الخ[3]

وليس من باب المصادفة ان تنتشر الاخبار بتدين القادر واكثاره البر والصدقات واتصاله بالزهاد[4] . وقـــد تدخل القادر في أمر العقائد فعمل كتابا في الاصول على مذهب اهل الحديث وكان يقرأ كل جمعة

---

(١) المنتظم ج ٧ ص ٨٧ (٢) الآثار الباقية ص ١٣٢ (٣) المنتظم ج ٧ ص ٦٦ (٤) ابو شجاع ص ٣٠٨ ؛ الفخري ص ٣٩١ ؛ المنتظم ج ٧ ص ١٦٠-١ .

في حلقة اصحاب الحديث بجامع المهدي [١] . وكتب كتابا قرأه على الاشراف والقضاة والشهود والفقهاء « يتضمن الوعظ وتفضيل مذهب السنة والطعن على المعتزلة » [٢] . أليس في هذا دليل على تركيز الخليفة مجهوده على الدين وشعوره بانه ركنه الأخير ليستند اليه تجاه قوة البويهيين السياسية ؟ ولهذا كان الموظفون من اصحاب الخطط الدينية تابعين للخليفة دائما . فتعيين القضاة كان من امتيازات الخليفة حتى في اضعف حالاته ولا يجوز للقاضي الحكم اذا لم يفوضه الخليفة . ففي سنة ٣٥٠/٩٦١ ضمن أحدهم منصب قاضي القضاة بمائتي ألف درهم سنويا فرفض الخليفة تعيينه أو مقابلته حتى في ايام الاستقبال . ولما عزل بعد سنتين رفض خلفه كل احكامه لانه اشترى وظيفته من الأمير البويهي [٣] . ولما حاول بهاء الدولة ان يسند منصب قاضي القضاة لشيعي لم ينجح لأن الخليفة رفض تعيينه [٤] .

وكان ائمة المساجد مسؤولين تجاه الخليفة مباشرة وهم عادة ينفذون أوامره . وكان الائمة يلاحظون ان لا تحدث بدعة ، ففي سنة ٤٢٠ / ١٠٢٩ أدخل الشيعة في الكرخ بدعة في الخطبة فعين الخليفة خطيبا خاصا بالكرخ فرجم وقت الصلاة إلا ان زعماء الشيعة اعتذروا للخليفة واستأذنوا منه ان تقرأ الخطبة باسمه كالمعتاد فسمح

---

(١) المنتظم ج ٨ ص ١٠٩ وج ٧ ص ١٦١ ؛ متز ج ١ ص ٢٣
(٢) المنتظم ج ٨ ص ٤٢ (٣) مسكويه ج ٢ ص ١٨٩ ؛ ص ١٩٦
(٤) ابن الاثير ج ٩ ص ١٢٩ .

بذلك[١] . وهذا يوضح لماذا كان الفقهاء والقضاة والوعاظ يكونون حزبا يؤيد الخليفة ، وقد استعمله الخلفاء في دور ضعف البويهيين وسيلة لتهديد الامراء وتقييد تصرفاتهم فحين غضب القائم على جلال الدولة لانه لم يؤدب غلاما له اعتدى على مزرعة للخليفة « أمر سنة ٤٢٦ القضاة بالامتناع عن الحكم والفقهاء بترك الفتاوي والخطباء بان لا يحضروا املاكا ولا يعقدوا عقداً »[٢] فاضطر جلال الدولة الى ترضيته[٣] .

ولذلك فبالرغم من ضعف الخليفة كان لنفوذه الديني أثر في الجمهور لانه بقي بالنسبة الى السنة مصدر السلطان ورمز الشريعة . وأخذ الفقهاء يؤكدون انه الرئيس الاعلى المسلمين كما يتضح ذلك في كتاب الاحكام السلطانية الماوردى الذي أكد السيادة السياسية والدينية للخليفة . وبواسطة هذا النفوذ استرجع الخلفاء بعض سلطانهم في النصف الاول للقرن الخامس الهجري . ويشير الفخري الى هذا الانتعاش ، إذ يذكر عن القادر المتوفي سنة (٤٢٢) « وفي ايامه رجع وقار الدولة العباسية ونما رونقها وأخذت أمورها في القوة »[٤] . ويقول عن خلفه القائم « وزاد به وقار الدولة ونمت قوتها »[٥] .

كما ان نفوذ الخليفة الديني بين اضطرار البويهيين برغم طموحهم الى ابقاء السلطة الشرعية للخليفة . إذ كان من اللازم اصدار عهد بالتولية

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ٢٧٩ Siddiqi I. C. p. 128-9 ، ٢ المنتظم ج ٨ ص ٨٢ ٣) ابن الاثير ج ٩ ص ١٢٨—١٢٩ (٤ ص ٣٩١—٢ « الطبعة الاوربية » (٥ شرحه ص ٣٩٢

للامير عند تبدل الخليفة أو الامير وذلك لارضاء الرأي العام. فيعقد اجتماع يدعى اليه كبار الموظفين ورجال الحاشية والقواد والفقهاء والقضاة ثم يتقدم الأمير بتواضع واحترام أمام الخليفة ويقبل يده ويضع العهد على رأسه اجلالا له، ثم تقرأ محتويات العهد بصوت عال ويقسم كل من الأمير والخليفة — الاول بالولاء وصدق الطاعة والثاني بالوفاء وخلوص النية [١]. وكذلك كان على المتغلبين على الاطراف لتثبيت مركزهم ان يعترفوا نظريا بسيادة الخليفة ويحصلوا منه على عهد بالتولية [٢]. وكان هذا العهد مهما في ترجيح الكفة في حالة النزاع بين أميرين مثلا [٣]. ولكن يلاحظ ان العهود في الدور البويهي كانت تتوقف لحد كبير على رغبة الأمير ولا تصدر دون موافقته. والحقيقة أن اكثر الطامحين كانوا يتقدمون بطلب العهد الى الأمير لا الى الخليفة الذي كان عليه ان يصدر العهد عندئذ [٤].

وللخليفة امتياز آخر وهو منح الالقاب والتشريفات وكان يستطيع بواسطته ان يسترضي او يتملق الأمير. ولما كان الامراء مشغوفين بطلب الالقاب الفخمة من الخليفة كان هذا حذراً في اعطائها. وكان يحاول ان يبتكر اللقب المناسب في كل وضـــع. ففي سنة ٣٦٧ منح عضد الدولة لقبا جديداً وهو تاج الملة [٥]. وفي سنة ٣٨١ لقب

---

(١) مسكويه ج٣ ص ٨٤ (٢) انظر المنتظم ج٨ ص٥٠ ٣ (٣) انظر مسكويه ج٢ ص ٣٢٩ (٤) شرحه ج٢ ص١٥٦ — ٧ (٥) المنتظم ج ٧ ص ٧٨

القادر بهاء الدولة بغياث الامة [١] . وفي سنة ٤٢٩ هـ زيد في القاب جلال الدولة « شاهان شاه الأعظم ملك الملوك » وخطب له بذلك ، فغضب العامة ورجموا الخطباء واستفتي الفقهاء في جوازه فاجازه اثنان وانكره الماوردي المشهور [٢] ، ولكن اللقب استمر استعماله . وفي سنة ٤٣٠ منح جلال الدولة لقب « الملك العزيز » [٣] . وكان الخلفاء احياناً يرفضون اعطاء بعض الالقاب ، فلما طلب الأمير ابو كاليجار لقب « السلطان الأعظم مالك الامم » رفض طلبه [٤] . ولم يكتف البويهيون بالقاب الخلفاء بل كانوا يلقبون انفسهم احياناً بالقاب رفض الخليفة اعطاءها كلقب شاهنشاه الذي استعمله عضد الدولة [٥] .

وهذا النفوذ الديني للخليفة ، واهميته لتهدئة الرأى العام جعل البويهيين يتظاهرون باحترام عظيم للخلفاء ويبالغون في اظهار ابهة الخلافة في المناسبات وذلك لارضاء الجماهير . في حفلة العهد الى عضد الدولة سنة ٣٦٩ هـ « جلس الطائع على السرير وحوله مائة بالسيوف والزينة وبين يده مصحف عثمان وعلى كتفه البردة وبيده القضيب وهو متقلد سيف النبي (ص) وضربت ستاره بعثها عضد الدولة وسأل ان تكون حجابا للطائع حتى لا تقع عليـــه عين احد من الجنـد قبله . ودخل الأتراك والديلم وليس على احـــد منهم حديد . ووقف الاشراف

---

(١) شرحه ج٧ ص١٦٣ (٢) المنتظم ج٨ ص٩٧—٩٨ (٣) شرحه ج٨ ص٩٩ (٤) شرحه ج٨ ص٦٥ (٥) Siddiqi P. 1:9

واصحاب المراتب من الجانبين . ثم اذن لعضد الدولة فدخل . ثم رفعت الستارة فقبل عضد الدولة الارض . فارتاع زياد القائد لذلك وقال بالفارسية . ماهذا ايها الملك؟ اهذا هو الله عز وجل؟ فالتفت الى عبد العزيز بن يوسف وقال له فهمه فقال له : هذا خليفة الله في الارض . ثم استمر يمشي ويقبل الارض سبع مرات فالتفت الطائع الى خالص الخادم فقال استدنه . فصعد عضد الدولة فقبل الارض دفعتين . فقال له ادن الي ادن الي فدنا وقبل رجله وثنى الطائع يمينه عليه وامره فجلس على كرسي بعد ان كرر عليه « اجلس » وهو يستعفي فقال له : اقسمت لتجلس . فقبل الكرسي وجلس ... » [1] فما اغربها مهزلة سياسية !

ولاسباب سياسية كان البويهيون يصدرون الاوامر المهمة باسم الخليفه وبتوقيعه [2] وكذلك كان يطلب منه توقيع المراسلات الهامة مع الولاة [3] ، وحتى المقاولات التي تعمل مع اهل الضمان [4] . وعلى كل فقد كان الامير يعمل مايريد ويرسل الوثائق للخليفة لتوقيعها [5] .

٤ —

التسياسة المالية للبويهيين في العراق :

تخرب نظام الري خلال فترة امير الامراء وكثرت البثوق في ضفاف القنوات فتدهورت الزراعة واصبحت مساحات واسعة من الاراضي

(١) انظر مسكويه ج٢ ص٤١٧—٨ حاشية ؛ قطب الدين الحنفي ص٧٩؛ المنتظم ج ٧ ص ٩٨—١٠٠ (٢) مسكويه ج ٢ ص ٣٤٤ (٣) شرحه ج٢ ص١٢٣ (٤) شرحه ج٢ ص١٢٩ (٥) Siddiqi P. 12

الخصبة خرابا .

وجاء البويهيون فابدي بعضهم كمعز الدولة وعضد الدولة رغبة صادقة لأصلاح نظام الري ولتحسين شؤون الزراعة . ولكن اهمال الآخرين وقلة خبرة البويهيين بصورة عامة بالادارة وسوء تصرفات الجيش اضرت بالسكان وجعلت عصر البويهيين عصر تدهور مالي بالنسبة للعصور السابقة .

اهتم معز الدولة بتخفيف وطأة الخراب في البلاد ويقال انه سأل علي بن عيسى « الدنيا خراب والامور على ما تراه من الانتشار فأشر بما عندك في اصلاح ذلك » فاجاب علي « ومن أول ما نظر به الأمير وقدمه سد هذه البثوق فهي أصل الفساد وخراب » السواد فقال معز الدولة « وقد نذرت لله عند حضوري في هذه الحضرة إلا اقدم شيئاً على ذلك ولو انفقت فيه جميع ما املك » [١] . وفعلا اعتنى معز الدولة بنظام الرى ففي سنة ٣٣٤ سد بثق نهر الرفيل . ونظر الى منطقة بادوريا الخصبة (غرب بغداد) ومنطقة النهروانات المهمة فوجد الزراعة فيها مهملة لخراب القنوات . فخرج بنفسه لسد بثق نهر الروبانية في بادوريا والى النهروانات فسد بثقاتها . وكان تأثير ذلك عظيما فعلى أثره « عمرت بغداد وبيع الخبز النقي عشرين رطلا بدرهم » [٢] . كما انه كرى صدر (محول)

(١) مسكويه ج٢ ص١٠٦ — ٧ حاشية (٢) شرحه ج٢ ص١٦٥، ص١٦١ حاشية ، المنتظم ج٦ ص٣٩

نهر الخالص ليسهل دخول الماء اليه (١) . واهتم أيضاً بتحسين الزراعة في السواد حيث خرب كثير من الاراضي بتأثير الحروب والظلم فارسل سنة ٣٣٤ ابا الفرج بن ابي هشام لتنفيذ ذلك ؛ واعتنى بتنظيم موعد جباية الخراج وفي سنة ٩٦٢/٣٥١ نقل وزيره المهلبي سنة ٣٥٠ الخراجية الي سنة ٣٥١ ليتناسب موعد الجباية مع نضوج الحاصل (٢) .

ولكن فراغ الخزينة وضرورة تجهيز الأموال والنفقات للجيش وقلة خبرة معز الدولة جرته الى اتباع سياسة زراعية هدامة في السواد . وبعطي مسكويه وصفا دقيقا وتحليلا ناضجا لهذه السياسة (٣) .

ففي سنة ٣٣٤ « اقطع قواده وخواصه واتراكه ضياع السلطان وضياع المستترين » وحق بيت المال في ضياع الرعية (أي الضرائب والرسوم عليها) (٤) . وكذلك « اقطع أكثر اعمال السواد على حال خرابه ونقصان ارتفاعه وقبل عودته الى عمارته » . وبتأثير الوساطات والرشوات للوزراء اعطيت الاقطاعات « بعبر (معدلات ايجار) متفاوتة » . ولما كان الجند لا يهمهم إلا جمع المال فانهم احتفظوا بالاقطاعات المربحة وردوا الخاسرة إذ « لما أتت السنون وعمرت النواحي وزاد الارتفاع في

---

١) مسكويه ج ٢ ص ١٦٠ حاشيه (٢) Duri- Studies p. 4 انظر منشور المهلبي في رسائل الصابي ج ١ ص ٢٠٩ — ١٦ اتبع المهلبي طريقه اعتبار كل ٣٣ سنة قمرية تعادل ٣٢ سنة شمسية (٣) هنا يظهر مسكويه تفوقا يجلب الأنتباه على من سبقه من المؤرخين فهو يعني بنواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية فيحللها وينقد أثرها بدقة (٤) مسكويه ج ٢ ص ٩٦

بعضها بزيادة الغلات ونقص في بعضها بانحطاط الاسعار — وذلك ان الوقت الذي اقطع فيه الجند الاقطاعات كان السعر مفرط الغلاء للقحط الذي ذكرناه — فتمسك الرابحون بما حصل في ايديهم من اقطاعهم ولا يمكن الاستقصاء عليهم في العبرة (أي لم يمكن أخذ حقوق الخزينة بكاملها) ورد الخاسرون اقطاعاتهم فعوضوا عنها وتمت لهم نقائصها » .

كما ان اهتمام الجند بجمع المال دون الاعتناء بتحسين الزراعة ادى حتما الى خراب قسم من الاقطاعات الجيدة . ولذا اتسع الخرق حتى صار الرسم جاريا ان يخرب الجند اقطاعاتهم ثم يردوها ويعتاضوا عنها من حيث يختارون » . اما الاقطاعات المرتجعة فانها قلدت ... من كان غرضه تناول ما يجده فيها (اي اخذ كل ما يجد) ورفع الحساب بعضه (اي تقديم حساب الى الخزينة ببعض الوارد) وترك الشروع في عمارتها . ومما زاد الطين بلة ان اقتصر المقطعون على تدبير نواحيهم بغلمانهم ووكلائهم ، فلا يضبطون ما يجري على ايديهم ولا يهتدون الى وجه تثمير ومصلحة ويقطعون اموالهم بضروب من الفساد . واعتاض اصحابهم مما يذهب من اموالهم بمصادراتهم وبالحيف على معامليهم»[1] .

فنتج عن هذه السياسة الاقطاعية ان« انصرف عمال المصالح (يقصد بهم موظفي الري) عنها لخروج الاعمال عن يد السلطان ، ووقع الاقتصار في عملها على ان يقدر ما يحتاج اليه لها (للري) ويقسط على

---

(١) مسكوية ج٢ ص٩٧ — ٩٨

المقطعين تقسيطات يتقاعدون بها وبادائها وان ادوها وقعت الخيانة فيها فلم تنصرف الى وجوهها »[1]. فأدى ذلك الى ان « فسدت المشارب وبطلت المصالح (أي اعمال الري) وأتت الجوائح على الاكَرَة (الزراع) ورقت (ضعفت) احوالهم فمن بين هارب جال وبين مظلوم صابر لا ينصف وبين مستريح الى تسليم ضيعته الى المقطع ليأمن شره ويوافقه . فبطلت العمارات »[2]. واعطيت الاراضي التي لم تقطع بالضمان الى اكابر القواد والجند من جهة والى اصحاب الدراريع والمتنفذين من المدنيين من جهة اخرى . فحاول كل من الطرفين جمع المال بكل وسيلة وتجنب تدخل الدولة، واستغلال الفلاحين الى اقصى حد . وخير وصف لتصرفهم كلمات المؤرخ العظيم مسكويه اذ يقول : « فاما القواد فانهم حرصوا على جمع المال وحيازة الارباح ودعوى المظالم والتماس الحطائط (التخفيف في مقدار الضمان)... وأما أصحاب الدراريع فكانوا اهدى من الجندي الى تغريم السلطان والحيلة عليه في كسب الاموال ونظر بعضهم الى بعض فيما تجري عليه معاملاتهم وبذلوا المرافق واعتصموا بالوسائل ... وتوالت السنون عليهم فتفردوا بنواحيهم وخلوا بعمالهم فمن مستعف يصادر ويغير رسمه وتنقص معاملته على قدر حاله وماله . ومن مانع جانبه فيخفف عنه الرسوم ويرتفق على ذلك منه بالاموال يتخذه الضامن عضدا في شدائده وعند مناظرة سلطانه ويصطلم المستضعفين »[3] . فجر هــــذا الوضع الشائن

---

(١) شرحه ج ٢ ص ٩٨ (٢) شرحه ج ٢ ص ٩٧ (٣) شرحه ج ٢ ص ٩٨ ٩٩

الويلات والدمار على الزراع . إذ بطلت حسابات الدواوين وزالت رقابة العمال « فبطل ان يسمع لاحد ظلامة... واقتصر في محاسبة الضمناء على ذكر اصول العقد وماصح منه وبقي من غير تفتيش عما عوملت به الرعية واجريت عليه احوالها من جور أو نصفة ومن غير اشراف على احتراس من الخراب أو خراب يعاد الى العمارة ، وجبايات تحدث على غير رسم (أي جبايات اضافية) ومصادرات ترفع على محض الظلم ، واضافات الى الارتفاع الوارد) بغير عبرة (أي زيادة على المعدل الرسمي للجباية) وحسابات في النفقات لاحقيقة لشيء منها . ومتى تكلم كاتب من الكتاب في شيء من ذلك فكان ذا حال ضمن ونكب واجتيح وقتل وباعه السلطان بالتطفيف وان كان ذا خلة ارضي باليسير فانقلب وصار عونا للخصم ولم يكن بذلك بملوم لان سلطانه لا يحميه إذا خاف ولا ينصره إذا قال »[1] .

والخلاصة فأن معز الدولة اراد اصلاح نظام الري واحياء الاراضي المهملة كما انه اراد تكوين اقطاعات عسكرية ليربط الجند بالارض . فكانت النتيجة خراب نظام الري ودمار الزراعة لعدم تمكن الحكومة من ضبط الجند .

وأثرت سياسة معز الدولة في الخزينة تأثيراً فظيعاً إذ كانت الاراضي عماد الخزينة . فتضاءل موردها بنتيجة سياسته الاقطاعية . هذا بالاضافة الى انفاقه الزائد على الجند إذ « اسرف في تمويلهم وتخويلهم »

---

(١) مسكويه ج ٢ ص ٩٩ .

فأدى ذلك الى افلاسه . يقول مسكويه : « فتعذر عليه ان يدخر ذخيرة لنوائبه أو ان يستفضل شيئاً من ارتفاع ولم تزل مؤنته تزيد وموارده تنقص حتى حصل عليه عجز لم يكن واقفا على حد منه بل يتضاعف تضاعفا متفاقما » . وأدى ذلك اخيراً الى شغب الجند وارتباك السياسة الداخلية [1] . وكانت حملته على الموصل نتيجة لضائقته المالية ولقلة المحمول اليه من النواحي [2] . وانفق معز الدولة قسما من ماله على البناء . وعلى كل فقد خلف عند وفاته ٤٠٠,٠٠٠ دينار انفقها خلفه بسرعة [3] .

ثم جاء بختيار (عز الدولة) الى الحكم فكان لا يفهم السياسة أو الادارة بل « اشتغل باللهو واللعب ومعاشرة المساخر والمغنين والنساء » [4] . ولم يكن يهمه إلا جمع المال اللازم لترفه ولجنده . ويلخص مسكويه وضعه كما يلي : « وكان لا ينظر في دخل ولا خرج وانما يلزم وزيره تمشية الامور من حيث لا يعينه ولا ينصره . ولا يمنع أحداً من جنده شيئا فاذا وقفت اموره قبض على وزيره واستبدل به فلا يلبث الأمر ان يعود من الالتياث والانحلال الى اسوء ما كان » [5] . ولذلك فلا تنتظر سياسة مالية معينة من وزرائه ولا القيام باصلاحات تذكر . بل اتخذوا المصادرة والتعدي على املاك الموظفين والناس وسيلة لجمع المال لارضائه وارضاء جنده .

---

(١) شرحه ج٢ ص٩٩—١٠٠ (٢) شرحه ج٢ ص١٧٥ (٣) شرحه ج٢ ص٢٣٨ (٤) شرحه ج٢ ص٢٣٤ (٥) شرحه ج٢ ص٣٠٧

فاستهل وزيره ابو الفضل بن العباس الحكم بمصادرة الحاشية واسرع في جباية الخراج وفرق الاتراك على المقاطعات ليحصلوا على مخصصاتهم . فارضى الجند في تلك السنة [١] . ولكن سرعان ماوجد الوزير المصاعب في سد النفقات من هذا المورد . فادت الضائقة المالية ودسائس الحاشية الى سلسلة تبدلات وزارية سريعة . فكل طامح للوزارة يضمن لبختيار سد النفقات ومصادرة الوزير الموجود على مقدار من المال [٢] وهذا الوضع كان يدفع الوزير الى جمع المال بكل وسيلة لارضاء سيده ولاخفاء قسم منه لنوائبه . في سنة ٣٦١ لاحظ وزيره الفوضى العامة ونضوب موارد الدخل فأساء التصرف بان «عدل الى طلب الاموال من الوجوه المذمومة التي تقبح الاحدوثة بها وتحرم ولاتحل في شيء من الاديان» [٣] وتجاوز الحاشية الى الشعب فاعتمد« على مصادرات الرعية والتجار والتاويل عليهم بالمحال . وابتدأ باهل الذمة ثم ترقي الى اهل الملة فاخذ اموال الشهود ووجوه البلد من اهل الستر وبث السعاة والغمازين وسماهم العمال واجرى عليهم الارزاق» . فأدى ذلك الى اضطراب العامة والى ارتباك الوضع المالي حتى «بطلت الاسواق وانقطعت المعايش» [٤]

---

(١) مسكويه ج٢ ص٢٣٧ ٢) انظر شرحه ج٢ ص٢٣٧ . هكذا توصل ابو الفضل للوزارة . ثم نكب عندما تقدم ابو الفرج محمد بن العباس برشوة كبيرة للقائد التركي سبكتكين ووعد باستخراج تسعة ملايين درهم من ابي الفضل . ثم رجع ابو الفضل بعد ان ارضى سبكتكين ووعد باستحصال سبعة ملايين درهم من ابي الفرج (٣) مسكوية ج٢ ص٣٠٧ ٤٠ شرحه ج٢ ص٣٠٨

وسار الوضع المالي من سيء الى اسوأ خلال ايام بختيار ففي سنة ٣٦٢ جاء ابن مقلة للوزارة بعد ابي الفضل فجمع من المال من مصادرة الوزير السابق وانصاره ماافاده مدة قصيرة . واستمرت الضائقة المالية وهي على اشدها دون ان يفكر بحلها . فارتكب «من الظلم والغشم» ما غطى على فضائح سلفه «فانقطعت مواد الاموال وخربت النواحي المتباعدة بخراب دار المملكة» [١] وهكذا عمت الفوضى المالية لسوء نظر بختيار واهماله الامور [٢] ولجشع وزرائه وجنده فلاقت البلاد الامرين من حكمه . ولعل البلاد ذاقت بعض الرفاهيـة على يد عضد الدولة (٣٦٩—٣٧٢هـ ، ٩٧٩—٩٨٢ م) فقد كان أقدر البويهيين الذين حكموا العراق وابعدهم نظراً في السياسة والادارة .

بدأ عضد الدولة اصلاحاته الزراعية سنة ٣٦٩ ٩٧٩ وهدف الى أمرين : اصلاح نظام الري — وتنظيم الجباية . ففي منطقة بغداد وجد كثيراً من القنوات التي تروي المدينة والاراضي المحيطة بها كنهر العباره ونهر مسجد الانباريين ونهر البزازين ونهر الدجاج ونهر القلايين ونهر طابق وميزابها الى دجلة والصراة ونهر عيسى وقد اندفنت مجاريها فأمر بحفرها واعادة بنائها [٣] . وكان مهتماً بصورة خاصة باصلاح بثق في النهروان قرب بغداد يدعى بثق السهلية [٤] . كذلك كرى كثيراً من

(١) مسكويه ج٢ ص٣١٤ (٢) شرحه . ٣ شرحه ج٢ ص٤٠٦
(٤) ابو شجاع ص٩٩

القنوات التي تخربت في السواد وبنى القناطر على افواهها والمسنيات على بعضها لتنظيم مجرى الماء واستعمل في ذلك الجص والآجر والنورة . وطلب من الرعية الاهتمام بالقنوات والاعتناء بها ووضع الحراس في بعض النقاط الهامة لحراسة القنوات والسدود في الليل والنهار[١] ووسع نهر بيان الذي يصل دجلة العوراء بالاهواز .

وكذلك اصلح الجباية ووضع نظاما ثابتا لها . وأخر افتتاح الخراج الى النيروز المعتضدي ليتفق ونضج الغلات « وكان يؤخذ سلفا قبل ادراك الغلات » وألح على العدل والانصاف في الجباية فـ « امضيت للرعية الرسوم الصحيحة و حذفت منها الزيادات والتأويلات وشجع الزراع على عرض مظالمهم ليرجع حقوقهم حتى من المقطعين العسكريين[٢] . واعتنى أيضاً باختيار الامناء للاهتمام باصلاح السواد وتحسين حاله[٣] .

وقد كانت اصلاحات عضد الدولة ممكنه لقوته التي ارجعت الأمن للبلاد وضبطه للجند ورغبته الصالحة في تحسين الوضع والخبرة التي اكتسبها البويهيون بشؤون العراق .

ولم يذق العراق طعم الرفاهية طويلا إذ عاد الشقاق الى صفوف البويهيين بعده وسادت الفوضى ولم يخلفه أحد له من الوقت والقابلية ما يستطيع به الاستمرار على اصلاحات سلفه . واذا استثنينا سد بثق

(١ ابو شجاع ص٦٩ (٢ مسكويه ج٢ ص٤٠٦—٧ (٣) شرحه ج٢ ص٤٠٧

النهروان سنة ٣٨٥ وحفر قناة موازية لنهربيان سنة ٣٩٥ فاننا لا نسمع بعد عضد الدولة إلا الحديث عن الفقر والخراب وتكرر فيضان دجلة الذي خرب الارض والغلات لعدم تنظيم مياهه [١].

ولنرجي موقتا أثر الارتباك المالي في اوضع الداخلي فنعرض له في حينه .

٤ —

ولن نلقي تبعة الاضطراب المالي والتدهور العام على قلة خبرة البويهيين وحدها ، بل هناك عوامل هدامة كانت تنخر في جسم الدولة البويهية منذ تأسيسها واهمها نظرة البويهيين الى المملكة ، وتكوين جيشهم .

وهنا يدفعنا ضيق المجال وخوف الملل الى الايجاز ، فلنوجز اذن آملين ان نفصل في فرصة اخرى .

آ — كان البويهيون في بدء عصرهم يشعرون على مايظهر بان المملكة هي ملك عائلي يوزع بينهم ولكنهم كانوا يشعرون ايضا برابطة ادبية تربطهم ، ولذا كان الكل يعترفون بسيادة كبير العائلة . وقد كان هذا الشعور العائلي قويا في حياة الاخوة الثلاثة على الرغم من توزع الاسرة بين ثلاث مراكز كبرى وهي شيراز والري وبغداد .

كان عماد الدولة رئيس العائلة الاول ، فلما توفى ٣٣٨ / ٩٤٩ـ٩٥٠

---

(١) Duri-Studies P. 54 بحث السياسة المالية ماخوذ عن رسالة الدوري المذكورة ص ٤٥ — ٥٥

خلفه في حكم مقاطعة فارس ابن اخيه عضد الدولة (بن ركن الدولة) بعيد منه . ثم توفى معز الدولة (٩٥٧/٣٥٦) فخلفه ابنه بختيار (عز الدولة) في حكم كرمان وخوزستان والعراق . وظهر بختيار ميالا للملذات ومجردا من كل مقدرة . فلم يستطيع ضبط جنده . وكان متذمرا من نفوذ مرتزقة الاتراك كما طمع باموالهم . واراد استئصالهم فقاموا بثورة ضده وأخذ زعيمهم سبكتكين السلطة بيده في بغداد ، وتزعزع سلطان البويهيين في العراق .

كما ظهرت بوادر التشعيث في الشعور العائلي عند الجيل الجديد فمعز الدولة اوصى ابنه باطاعة ركن الدولة واستشارته ، وباطاعة عضد الدولة «لانه اسن منه واقوم بالسياسة » [1] ولكن سرعان ماساء بختيار التصرف مع ابن عمه [2] وكانت نتائج ذلك غير محمودة .

وعلى كل فقد استنجد بختيار في محنته بركن الدولة وبعضد الدولة ، وبالاتفاق مع ابيه ذهب عضد الدولة ٩٧٤/٣٦٤ الى بغداد لاعادة النظام فنجح في ذلك [3] . وفي الوقت نفسه تمكن بدسائسه من جعل بختيار يستعفي من الحكم ليحتل هو مكانه [4] ورأى عضد الدولة ضرورة استحصال موافقة والده ، فأرسل رسولين قديرين اليه ليقنعاه . ولكن قوة الشعور العائلي عند عضد الدولة احبطت مساعي

---

(١) مسكويه ج٢ ص ٢٣٥ (٢) مسكويه ج٢ ص ٢٣٥ (٣) انظر مسكويه ج٢ ص ٣٣٠ـ٣٣٣ (٤) نفسه ج٢ ص ٣٤٣

والده . إذ غضب أشد الغضب ووبخ ابنه وهدده ، فاضطر عضد الدولة الى ارجاع بختيار الى عرشه [1] ولم يجرأ على التقدم ثانياً الى العراق إلا بعد وفاة والده وبعد تحرش بختيار به وعندئذ فتح بغـــداد سنة ٣٦٧/٩٧٧ وأخضع العراق بكامله حتى آمد (ديار بكر) [2] .

وكان ركن الدولة قد عهد لابنه عضد الدولة وولى ابنه فخر الدولة على الجبال ، ومؤيد الدولة على اصفهان على أن يخضعا لاخيهما الاكبر . ولـكن الشقاق دب بين الاخوة فجرد عضد الدولة اخاه فخر الدولة من ملكه واضطره للهرب الى خراسان .

وكان عصر عضد الدولة المع فترة في السيادة البويهية . وفي زمنه احتلت جيوش البويهيين بلوجستان ومكران وغزت عمان بنجاح . واشتهر هذا الأمير بانشاآته العمرانية فبنى قصراً في شيراز يحتوي على ثلاثمائة قاعة ، جدرانها مغطاة بالغضار الصيني والرخام او مزركشة بالنقوش وانشأ سداً مشهوراً في فارس باسم (بند أمير) ، وبنى ضريح علي وضريح الحسين في العراق وانشأ مستشفى في بغداد .

واشتهر اخواه مؤيد الدولة وفخر الدولة (ومركزهما الرى) بعلاقتهما بالوزير المشهور الكاتب الصـــاحب اسماعيل بن عباد (٣٨٥/٩٩٥) .

---

(١) شرحه ج٢ ص٣٤٩—٣٥٠ (٢) شرحه ج٢ ص ٢٦٤—٥ ، ٣٧٢—٣٧٥ ، ٣٧٨—٣٨٣ .

وبعد وفاة عضد الدولة اشتعلت الحرب بين ابنائه الثلاثة . فدعى اشراف الري فخر الدولة من منفاه ونصبوه أميراً على الجبال وطبرستان وجرجان . وانتهت الحرب بانتصار بهاء الدولة سنة ٣٨٠ / ٩٩٠ .

وتوفي فخر الدولة سنة ٣٨٧ ٩٩٧ وخلف طفلا (مجدالدولة) عمره تسع سنين . فتولت الوصاية عليه امه المعروفة بالسيدة وهي شخصية فعالة وعاقلة . ولما كبر ابنها وأخذ السلطة بيده ، لم ترض فذهبت الى الأمير الكردي بدر بن حسنويه وبمعونة جيوشه احتلت الري وتسلمت الامور . وفي زمانها ظهرت في الافق أول سلالة تركية وهي العائلة الغزنوية . فدعى محمود الغزنوي السيدة الى الخضوع مهدداً اياها بفتح بلادها فاجابته بان نتيجة الحرب مجهولة ، فان انتصر السلطان عليها لم يكسبه ذلك فخراً يذكر وان انتصرت هي كان ذلك وصمة ابدية في جبينه . فكف عنها(١) .

وكانت نهاية هذا الفرع البويهي عند وفاة السيدة سنة ٤١٠|١٠١٩ إذ استنجد ابنها مجدالدولة بالسلطان محمود الغزنوي وفي سنة ٤٢٠ ١٠٢٩ جاء محمود وضم ممتلكات مجد الدولة نهائيا .

وفي بغداد حكم بهاء الدولة حكما طويلا مضطربا (٣٧٩-٤٠٤/٩٨٩-١٠١٣) بعد ان بسط سلطانه على فارس وكرمان .

وشغلت السنين الأخيرة للاسرة البويهية بالنزاع بين الاحفاد وكانت البلاد نهب الفوضى والفتن ، بينما كان الاتراك يعدون انفسهم

---

(١) مينورسكي ص ١٥

الغزو ايران ، إذ تقدم طغرل بك على رأس السلاجقة ودخل بغداد سنة ٤٤٧/ ١٠٥٥ . وباعلان سلطنته اعاد تثبيت المذهب السني وسجن آخر بويهي وهو الملك الرحيم في قلعة (طبرق) قرب الري حيث قضى اواخر ايامه . ثم افتتح السلاجقة فارس ووضعوا حداً للحكم البويهي هناك .

وهكذا اختفت فروع الري وبغداد وشيراز على التعاقب[١] .

ب — سقط البويهيون ضحية غزو اجنبي ، ولكن بالاضافة الى المنازعات الداخلية التي تغمر سنيهم الأخيرة ، يلزم ذكر سبب داخلي هام كان مستمراً في إضعافهم .

فجيشهم كان يعوزه النظام ، ويحركه الطمع في المال ، فكان عليهم اتباع اية وسيلة ولا سيما اقطاع الارض لارضائه .

ومن الجهة الاخرى ضعف البويهيون والجيش ذاته بالخصومة المستمرة بين عنصريه الرئيسين : المشاة الديلم والخيالة الترك[٢] . فالديلم كانوا يحاربون بهيئة صفوف تكون حائطاً من الدروع الملونة بالوان زاهية . ولكنهم كانوا محتاجين الى الخيالة وذلك لتقوية هجومهم وهؤلاء كانوا من الترك . وفي الدفاع كان الترك أيضاً مسلحين بصورة اقوى من الديلم[٣] .

---

(١) انظر E.I. art Buwaihids: Minorsky p. 12-16

(٢) وهناك عناصر اخرى ، فيذكر مسكويه ج ٢ ص ٣٠٠ الجيل والعرب والاكراد والزط في جيش عضد الدولة . وهناك اشارات الى القفص من جبال كرمان ، والبلوج أيضاً . مسكويه ج ٢ ص ٢٩٨ ، ص ٣٦٨ .

(٣) Minorsky p. 20

. ومع وجود المنافسة الطبيعية الناتجة عن التكالب على الامتيازات والنفوذ عند الفريقين ، فان سوء سياسة الامراء البويهيين تجاه الجيش بتقريب أحد الفريقين على حساب الآخر او باثارة بعضهم ضد بعض عمداً قام بدور هام في انقسام الجيش على نفسه وعصيانه لامرائه حتى أصبح الخطر الرئيسي على الامة ومصدر البلاء على الرعية .

وقد بدأ تخليط الامراء البويهيين منذ دخولهم العراق . فبعد ان كان الشرف والنفوذ للديلم ، أخذ معز الدولة (٣٣٤ | ٩٤٦) تقريب غلمانه الاتراك ويزيد في اقطاعاتهم ويسرف في تمويلهم حتى افرغ خزينته » وأدى ذلك على مر السنين الى الاخلال بالديلم فيما يستحقون من أموالهم وداخلهم المنافسة للاتراك من أجل حسن احوالهم . وقادت الضرورة الى ارتباط الأتراك وزيادة تقريبهم والاستظهار بهم على الديلم » . وكانت النتيجة مضرة ومربكة إذ « فسد الفريقان ، أما الاتراك فبالطمع والضراوة ، وأما الديلم فبالفقر والمسكنة وشرأبوا الى الفتن ، وصارت هذه المعاملة لقاحاً وسبباً لوقوع ما وقع فيها » [1] .

ولم يمض زمن طويل حتى ظهر سخط الديلم على معز الدولة . ففي سنة ٣٤١ ثار (روزبهان الديلمي) في الاهواز ، فلما سار معز الدولة لتأديبه ، تبين ان عطف الديالمة كان بجانبه ، فشغبوا على معز الدولة «واظهروا استياء كان في نفوسهم عليه .. وكاشفوه وواجهوه بكل ما كره»

(١) مسكويه ج ٢ ص ٦٩ — ١٠٠

وأخذوا يستأمنون الى (روزبهان) . فلما اخمد معز الدولة الثورة بمعونة غلمانه الاتراك ازداد الوضع سوء لأن الأمير اسقط الديلم الروزبهانية « واعرض عن سائر الديلم واقبل على الاتراك واصطنعهم »[1] .

ولم يحاول الأمير ترضية الديلم وازالة حقدهم ، بل تمادى في تقريب الاتراك . ففي سنة ٣٤٧ « رفع منزلة الاتراك كل طبقة الى ما هو اعلى منها فقود جماعة واستحجب جماعة وتمم جماعة » وزاد في اعطياتهم واقطاعاتهم فأساؤا التصرف وتكالبوا على جمع المال حتى أنهم اخذوا يشتغلون بالتجارة وظلموا الرعية . وفي الوقت نفسه استمر اهمال الديلم وابعادهم[2] .

فتأكد العداء بين الترك والديلم حتى أصبحت ازالته غير ممكنة . ولذا اخفقت محاولة بختيار في هذا الاتجاه سنة ٣٥٩ هـ[3] .

ثم قام بختيار بمحاولة هوجاء دفعه اليها افلاس الخزينة وطمعه في اقطاعات الترك . ففي سنة ٣٦٣ « أدخل يده في اقطاع سبكتكين قائد الاتراك » وشجعه الديلم على ذلك . فثار الاتراك واستولوا على بغداد واخرجوا بختيار منها ، حتى اضطر الى الاستنجاد بعضد الدولة كما ذكرنا[4] .

---

(١) شرحه ج ٢ ص ١٦٢-٣ ، ص ١٦٦ . (٢) شرحه ج ٣ ص ١٧٤
(٣) شرحه ج ٣ ص ٢٨٢-٣ . (٤) شرحه ج ٢ ص ١٣٣-٤ ، ٣٢٣-٣٤١
المنتظم ج ٦ ص ٦٨ وفي سنة ٣٨٥ أمر صمصام الدولة بذبح الاتراك في فارس
Minorky P 21

وعاد بهاء الدولة الى تقريب الاتراك سنة ٣٧٩. لانه وجدهم اكثر ولاء من الديلم.[١] فهذا ابن العميد ينصح ابنه « ويشرح له صورة الديلم في الحسد والجشع وانه ما ملكهم احد قط الا بترك الزينة وبذل ما لا يبطرهم ولا يخرجهم الى التحاسد ولا يتكبر عليهم ولا يكون إلا في مرتبة اوسطهم حالا . وان من دعاهم واحتشد لهم وحمل على حالة فوق طاقته لم يمنعهم ذلك من حسده على نعمته والسعي على ازالتها وترقب اوقات الفترة . فيفتكون به في ذلك الوقت »[٢].

ولكن لما كان المذهب الشيعي أساس سلطان البويهيين فانهم لم يمكنهم التخلي عن الديالمة مدة طويلة ولا سيما وان الاتراك كانوا سنة ولهذا كانوا دائما أمام مشاكل[٣] . وهذا الخلاف المذهبي بين قسمي الجيش كثيراً ما أدى الى زيادة الفتن بين اهالي بغداد ، إذ كان الترك يساعدون السنة ، بينما كان الديلم في صف الشيعة[٤] .

وقد أدى ضعف البويهيين بعد بهاء الدولة وجشع الاتراك والديلم على السواء الى استبداد الجند في الاستئثار بوارد الاراضي والى الشغب المستمر لزيادة المخصصات واسوأ من ذلك تدخلهم المستمر في السياسة العامة إذ تراهم في ثورات مستمرة على امرائهم (كما في سنة ٤١٨ هـ ، ٤١٩ هـ ، ٤٢٢ هـ ، ٤٢٣ هـ ، ٤٢٤ هـ ، ٤٢٧ هـ ، ٤٤٠ هـ ، ٤٤٦ هـ) يطلبون عزل

---

(١) ابو شجاع ص ١٥٨ . (٢) مسكويه ج ٢ ص ٢٧٣ .
(٣) Minorsky. 21 (٤) انظر المنتظم ج ٦ ص ٦٨ .

هذا الأمير او توليته ذاك ولا يهدؤن إلا باعطيات إضافية . وبذلك افرغوا الخزينة ، واضعفوا الامراء ، وفسحوا المجال للعيارين للاخلال بالأمن ولا رهاق الرعية ، حتى اضطرب الأمن وعمت الفوضى وساد الفقر والدمار .[1]

الأثر الاقتصادي والاجتماعي للفتح البويهي

(ملاحظة : البحث موجز ، ولا يتناول إلا بعض النواحي ، لاني فصلت هذا الموضوع في كتاب آخر) .

صار الفتح البويهي حداً فاصلا بين فترتين في تأريخ العراق الاقتصادي فقد أثر في اقتصاديات البلاد الزراعية ، وأضر بالتجارة وبنظام الصيرفة وأدى الى انحطاط مستوى المعيشة .

قاسى الفلاحون في العصر البويهي من الضرائب العالية ومن قلة الرقابة على الجباة ومن تدهور نظام الري . إذ استحدث معز الدولة سياسة زراعية هدامة ، فقسم الاراضي (كما اسلفت) الى صنفين : صنف اعطي بالاقطاع الى الجند يتصرفون فيه كما يشاءون فاثقلوا الزراع بكثرة طلباتهم حتى صادروهم إذا عجز الحاصل[2] . كما انهم اهملوا القنوات ، « وترك الاجناد الاهتمام بمشارب القرى وتسوية طرقها فهلكت وبطل الكثير منها »[3] ونزل البلاء بالزراع وضعفت

---

(١) انظر المنتظم ج ٧ ص ٦٨ ـ ٩ ، ج ٧ ص ١٧٢ ، ج ٨ ص ٢١ ، ٢٩ ، ٣٥ ـ ٦ ، ٥٦ ـ ٧ ، ٥٩ ، ٦٤ ـ ٥ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٤ ، ١٣٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ـ (٢) ابن الاثير ج ٨ ص ١٥٠ (٣) شرحه

احوالهم المعاشية «فمن بين هارب جال وبين مظلوم صابر لا ينصف وبين مستريح الى تسليم ضيعته الى المقطع»[(١)].

واعطى الصنف الثاني من الاراضي بالضمان، فتفنن الضامنون في استخراج المال من الزراع بكل وسيلة – فزادوا في الضرائب واستحدثوا جبايات جديدة، واكثروا من مصادرة الزراع، ولم يعنوا بالقنوات أو باصلاح الزراعة وتحسينها، ومنعوا الموظفين من التدخل وجعلوا الرعية تحت رحمة جشعهم وجورهم[(٢)].

ولم تسلم الاراضي التي كانت ملكا خاصا، بل أدى الظلم الى انتشار نظام الالجاء احتماء من العسف. وسرعان ما امتلك الاتراك ما الجيء اليهم «فملكوا... البلاد واستعبدوا الناس واستمر ذلك الى اليوم (نهاية القرن الرابع)»[(٣)].

ونتج عن اهمال القنوات وسوء توزيع المياه حدوث فيضانات اضرت بالسواد[(٤)] كما أدى سوء الوضع الزراعي (بالاضافة الى الفوضى السياسية والفتن وصعوبة المواصلات وتعديات الاعراب) الى تكرر الغلاء والمجاعات بشكل لا سابق له.

وشمل الشلل الاقتصادي المدن، فركد الانتاج وانحط مستوى

---

(١) مسكويه ج ٢ ص ٩٧. (٢) ن.م ج ٢ ص ٩٨ – ٩٠. (٣) ن.م ج ٢ ص ١٧٢، ص ١٧٥. (٤) انظر ابن الاثير ج ٩ ص ٣.

المعيشة فيها . فبغداد العظيمة المشهورة بترفها وعمارتها وجمالها ، تدهورت حتى قال فيها المقدسي (الذي كتب حوالي سنة ٣٧٥ هـ) (فاما المدينة فخراب... وهي كل يوم الى وراء مع كثرة الفساد والفسق وجور السلطان) [١] .

وكان لسوء الوضع المعاشي في بغداد اسباب اهمها تعديات الجند ومصادرة الوزراء الرعية ، والفتن المذهبية والفوضى العامة التي شلت الحركة الاقتصادية وهجمات العيارين على الدور والحوانيت .

فما ان دخل البويهيون بغداد حتى شعرت بوطأة سادتها الجدد . إذ انزل معز الدولة اتراكه وديلمه دور الناس « ولم يكن يعرف ببغداد . مثل هذا التنزل فصار من هذا اليوم رسما » [٢] وصار ذلك عبئا ثقيلا على السكان المدنيين .

وكثيراً ما كان الجند يهجمون على الدور وينهبون الاموال ويعتدون على السكان . فيقول مسكويه عن الاتراك في ايام بختيار « فاما الاتراك فمتسحبون مقترضون مالا تمكن منه ، متجاوزون حدود العامة في سفك الدماء والطمع في الاموال والفروج » ويذكر أنهم فتحوا السجون

---

(١) احسن التقاسيم ص ٢٠ . واين هذا مما ورد في قصة ابي القاسم (التي وقعت حوادثها سنة ٣٠٦ كما بين الكاتب ص ٨٧ ، وليس في اواخر العصر البويهي كما يظن « ليفي » ص ١٧٨ « بغداد .. جنة الخلد .. بلدة هي الامل والمنى والغاية القصوى معشوقة السكنى .. يومها غداة وليلها سحر وطعامها هنيء وشرابها مريء .. واسعة الرقعة كأن محاسن الدنيا فيها مفروشة وصورة الجنة بها منقوشة واسطة البلاد وسرتها ووجهها وغرتها » ص ٢١ . (٢) المنتظم ج ٦ ص ٢٤٩ .

(سنة ٣٦١ هـ) « واطلقوا اهل الدعارة منها » [١] وفي سنة ٤٠٩ هـ « انزل (ابن سهلان نائب صمصام الدولة ببغداد) الديلم اطراف الكرخ وباب البصرة ففعلوا من الفساد ما لم يشاهد مثله » [٢] وفي سنة ٤١٧ « كثر تسلط الاتراك ببغداد واكثروا مصادرات الناس وأخذوا الاموال حتى انهم قسطوا على الكرخ خاصة مائة الف دينار » ثم وقعت الحرب بين الجند والعامة فانتصر الجند ونهبوا المحلات [٣].

وكان وزراء بختيار يلجؤون الى مصادرات الناس لجمع المال اللازم للنفقات بعد ان فرغت الخزينة. ففي سنة ٣٦١ شرع الوزير ابو الفضل بمصادرة « الرعية والتجار والتأويل عليهم بالمحال » فبدأ بأهل الذمة وتجاوزهم الى المسلمين حتى شمل بمصادراته « اموال الشهود ووجوه البلد واهل الستر » . واستعمل الجواسيس ليتجسسوا على اموال الناس [٤] . ثم كان خلفه في الوزارة ، ابن بقية ، أشد منه ظلما وأكثر تطرفا في المصادرات حتى ارتبك الوضع « وسقطت الهيبة وانبسطت العامة واغار بعضها على بعض . وفشا القتل . . فانقطعت موارد الاموال وخربت النواحي المتباعدة بخراب دار المملكة » ونتج عن ذلك وضع وصفه مسكويه بقوله « الرعية هالكون والدور خراب والاقوات معدومة والجند متهارجون » [٥] .

وكان للسياسة المذهبية التي اتبعها البويهيون أثرها في التدمير .

---

(١) مسكويه ج ٢ ص ٣٠٦ ٢ ابن الاثير ج ٩ ص ١٠٦ ٣ شرح ج ٩ ص ١٢٢ ٤) مسكويه ج ٢ ص ٣٠٨ (٥) شرح ج ٢ ص ٣١٤ .

سنين أثرها بعد قليل ، ولنكتف بايراد مثال واحد . ففي سنة ٣٦١هـ أرسل الوزير حاجبا له لتهدئة فتنة في الكرخ وكان يتعصب للسنية ، فالقى النار في عدة أماكن من الكرخ « وهي مجمع الشيعة ومعظم التجار » فاحترقت « وكان عدة من احترق ١٧,٠٠٠ انسان و٣٠٠ دكان وكثير من الدور و٣٣ مسجداً ومن الاموال ما لا يحصى »(١) .

وكانت الخصومات المذهبية (والبويهيون مسؤولون عنها بالدرجة الاولى) عاملا فعالا في نشر الفوضى والدمار . إذ أنها كبدت اهالي بغداد خسائر جمة في النفوس والاموال ، واحترق في اثنائها عدد من محلات بغداد . فمثلا احترق الكرخ سنة ٣٦٣ هـ(٢) . وفي سنة ٣٨١ « كثرت الفتن بين العامة ببغداد . وتكرر الحريق في المحال واستمر الفساد »(٣) وفي سنة ٤٠٧ احترق نهر طابق ودار القطن وكثير من باب البصرة(٤) . وفي سنة ٤٢٢ تخرب في الفتنة سوق العروس وسوق الصفارين وسوق الدقاقين وهي في الجانب الغربي(٥) . ثم تجددت الفتنة فاحرق سوق الخراطين ومدبغة الجلود وسوق القلائين(٦) .

أما أثر العيارين فكان افظع من غيره . ومع اننا نشعر بان بعض من اشترك في حركاتهم كانوا مدفوعين بحب الغنيمة ، الا انهم كجماعة يمثلون تكتل طائفة من الطبقة العامة بنتيجة التباين الاقتصادي الطبقي

(١) ابن الاثير ج ٨ ص ٢٠٧ (٢) مسكويه ج ٢ ص ٣٢٧ (٣) ابن الاثير ج ٩ ص ٣١ (٤) شرحه ج ٩ ص ١٠٢ انظر ايضا ج ٨ ص ١٨٤ ، ج ٩ ص ٢٥ ص ٢٦ ، ص ٣٢ ، ص ٥٨ (٥) المنتظم ج ٨ ص ٥٥ (٦) شرحه ج ٨ ص ٥٥

وسوء الوضع المعاشي للعوام والفوضى السياسية [١] . وما حركتهم إلا ثورة ضد الاسياد السياسيين وضد اسياد المال . وكانت هجماتهم موجهة بالدرجة الاولى الى بيوت المثرين والاسواق واصحاب الشرط والشخصيات الكبيرة [٢] .

وكانت للعيارين مبادىء اخلاقية وطريقة يسيرون عليها . وما حركة الفتوة فيما بعد الا سليلة حركتهم . يقول ابن الجوزي انهم « يسمون طريقتهم الفتوة وربما حلف احدهم بحق الفتوة فلم يأكل ولم يشرب » [٣] ومن مبادئهم الاخلاقية ان « الفتى لا يزني ولا يكذب ويحفظ الحرم ولا يهتك ستر امرأة » [٤] فالعفة وعدم المجون من الصفات الاساسية عندهم [٥] وهم يؤكدون على الأمانة [٦] .

ومن عناصر فتوتهم الرفق بالفقراء والضعفاء . فالبرجمي العيار « كان ... فيه فتوة وله مروءة ولم يعرض لامرأة ولا الى من يستسلم اليه » [٧] وكان يحمي النساء ولا يسمح بالتعرض لهن [٨] ويذكر عن ابن حمدون انه « فيه فتوة وظرف .. لا يمس امرأة ولا يسلبها » [٩]

(١) انظر التنوخي ـ الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٠٧ ـ ٨ (٢) مثلا يبين ابن الجوزي ج ٧ ص ١٧٤ انهم طلبوا اصحاب الشرط . ويذكر في حوادث سنة ٣٩٢ هـ انهم « وادلوا العملات واخذوا الاموال .. واشراف الناس معهم على خطة دقة » ج ٧ ص ٢٣٠ . انظر ابن الاثير ج ٩ ص ١٥١ (٣) تلبيس ابليس ص ٣٩٢ (٤) شرحه (٥) القشيري ـ الرسالة ص ١١٣ (٦) شرحه ص ١١٤ (٧) ابن الاثير ج ٩ ص ٨١ (٨) المنتظم ج ٨ ص ٧٧ (٩) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٨٠ .

ومن صفاتهم الكرم [١] والصبر الشديد على احتمال الأذى [٢].

ويظهر ان المؤرخين لم يفهموا روح حركتهم فسموهم لصوصا منحطين. وأساس الحركة كما يبدو اقتصادي ناتج عن التباين في الثروة. يروي عن ابن حمدون الذي كان يقطع الطرق « انه إذا قطع لم يعرض لاصحاب البضائع القليلة التي تكون دون الالف. واذا اخذ ممن حاله ضعيفة قاسمه عليه فترك شطر ماله في يديه [٣] » أليس في هذا ما يدل على ان هجومهم كان ضد الاغنياء؟ ولم يعدموا حجة فقهية لنهب اموال الاغنياء فهذا أحد قطاع الطرق يبرر عمله قائلا « ان هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس لانهم منعوها وتجردوا فتركت عليهم فصارت اموالهم بذلك مستهلكة واللصوص فقراء اليها، فان اخذوا اموالهم — وان كره التجار ذلك — كان ذلك لهم مباحا لان عين المال مستهلكة بالزكاة وهم مستحقون للزكاة شاء ارباب الاموال ام كرهوا [٤] ».

وكانت للعيارين تنظيمات خاصة ودرجات في الرئاسة، ومن القاب رؤسائهم في القرن الرابع المتقدم [٥] والقائد [٦] والامير [٧] ولهم مراسيم معينة وحفلات خاصة لقبول الاعضاء الجدد [٨].

ولا لزوم لتفصيل فعالياتهم في العصر البويهي ويكفي التنبيه الى

---

(١) القشيري ص١١٣ (٢) تلبيس ابليس ص ٣٩٢ (٣) الفرج بعد الشدة ج٢ ص١٠٨ (٤) الفرج بعد الشدة ج٢ ص١٠٦ (٥) المنتظم ج ٨ ص ٤٩ (٦) شرحه ج٨ ص٧٨ (٧) مسكويه ج٢ ص٣٠٦ (٨) انظر القشيري ص١١٣ والفرج بعد الشدة ج٢ ص١٠٩.

بعض النقاط الهامة .

هناك ما يدل على وجود العباسيين والعلويين بين العيارين في هذه الفترة ، وهذا يلقي ضوء على الوضع الاجتماعي ويدل على تدهور مركز هؤلاء الاشراف بعد سيادة البويهيين [1] .

ولم يصل تكتل العيارين غايته بعد فاننا نجدهم يتأثرون بالروح المذهبية فينقسمون على انفسهم ، اذ ترى بينهم العيارين الشيعة والعيارين السنة .

وقد زادت فعالياتهم منذ الربع الأخير للقرن الرابع الهجري واستمرت قوية حتى نهاية العصر البويهي . ومن ابرز متقدميهم البرجمي الذي استطاع ان يكسف السلطان وان يستبد ببغداد مدة خمس سنوات (٤٢١ — ٤٢٥ هـ) . وبلغ من عجز الحكومة تجاهه ان « العوام ثارت بجامع الرصافة ورجموا الخطيب وقالوا : ان خطبت للبرجمي والا فلا تخطب لخليفة ولا لملك » [2] وتعهد سنة ٤٢٥ بحفظ الأمن فكان يجبي ضرائب الاسواق وارتفاع المواخير والقيان لنفسه [3] .

وقد ركز العيارون هجماتهم على التجار والاسواق قبل كل شيء . فهم ينهبون بضائعها ويفرضون الضرائب عليها [4] . واهتموا بمهاجمة دور المثرين والبارزين لنهبها او لفرض الضرائب عليها [5] وقضوا على الامن في بغداد واعجزوا الحكومة عن اخضاعهم [6] فكان سكان بعض

« ١ » انظر ابن الجوزي ج ٧ ص ٢٢٠ « ٢ » شرحه ج ٨ ص ٧٥ — ٧٦
« ٣ » شرحه ج ٨ ص ٧٨ « ٤ » شرحه ج ٧ ص ١٧٤ ، ج ٨ ص ٥٩ – ٦٠ ص ٧٨
« ٥ » ابن الاثير ج ٩ ص ١٠٥ ، ابن الجوزي ج ٨ ص ٥٩ – ٦٠ « ٦ » ابن الجوزي ج ٩ ص ٤٩ .

المحلات يهجرون محلاتهم ليتخلصوا منهم كما فعل قسم كبير من اهل الجانب الغربي سنة ٤٤١ هـ (١).

ولا حاجة بنا للاشارة الى حوادث القتل والحرق التي نتجت عن فتنهم فهي كثيرة. كما ان الفوضى التي نشروها عرقلت الاعمال الحضرية المفيدة واعاقت حركة التجارة والصناعة. ومما زاد الوضع الاجتماعي تعاسة فوضى العوام (وهم جماعة بلا ثقافة ولا رأي منظم) وقوة النعرات المذهبية وتقع مسؤولية ذلك على البويهيين بالدرجة الاولى.

والامراء هم الذين جرءوا العوام. فقد كانوا يستنجدون بهم في الازمات. ففي سنه ٣٣٤ هـ استعان ابن شيرزاد بالعامة والعيارين لمحاربة معز الدولة (٢). وفي سنة ٣٦١، استنفر سبكتكين العامة – بامر بختيار – لمحاربة البيزنطيين، « فثار من العامة عدد كثير باصناف السلاح والسيوف والرماح والقسي حتى استعظم ما شاهده منهم (٣) ».

وزاد في تجرؤ العوام سياسة البويهيين المذهبية، وكان ذلك – كما يظهر – لغرض سياسي وهو تكوين حزب من الشعب يناصرهم. وخير دليل على ذلك هو ان معز الدولة (واضع هذه السياسة) لم يبايع لخليفة علوي خوفا من ان يفقد هيمنته. ولما لاحظ البويهيون سوء عاقبة تلك السياسة على سلطانهم تخلوا عنها في اواخر القرن الرابع

---

(١) شرحه ج ٩ ص ١٤٢ (٢) ابن الاثير ج ٨ ص ١٤٩ «٣» ابن الاثير ج ٨ ص ٢٠٤، مسكويه ج ٢ ص ٣٠٦.

وضربوا الشيعة[١] .

قرب معز الدولة الشيعة على حساب السنة ولعن الخلفاء الثلاثة الاول علنا[٢] وادخل السبابات وعمل يوم غدير خم عيداً رسميا[٣] وبلغ من تطرفه انه أمر باطلاق جماعة يدينون بالحلول والتناسخ لانهم اوهموه انهم شيعة ! ولم يجرأ وزيره على التشدد معهم مثلا « ينسب الى ترك التشيع فسكت عنهم »[٤] .

إلا ان اصحاب السلطة في العصر البويهي لم يكونوا متفقين على هذه السياسة ، بل كانوا ينقسمون الى حزبين : حزب الاتراك ومن حولهم وهم يؤيدون السنة ، وحزب الديلم وكانوا يؤيدون الشيعة . فجر ذلك أمر الويلات على البلاد . ففي سنة ٣٦٢ احرق حاجب الوزير ابي الفضل محلة الكرخ حريقا مريعا لانه كان شديد التعصب للسنة[٥] . ولما ثار سبكتكين على بختيار سنة ٣٦٣ ، استغل السنة « فقود من رؤسائهم القواد وعرف العرفاء وتقب النقباء وحملهم على الدواب . . وصار له منهم جند » بينما ثار الشيعة بجانب الديلم[٦] فهل نستغرب بعد ملاحظة هذه

---

(١) ابن الاثير ج٩ ص٧١ ، ابن الجوزي ج٧ ص ٢٢٠ ، ص٢٥٢ـ ٢٥٤

(٢) ابن الاثير ج٨ ص١٧٩ (٣) شرحه ج٨ ص١٨٤ ، يقول ابن الاثير في عاشر المحرم أمر معز الدولة الناس ان يغلقوا دكاكينهم ويبطلوا الاسواق والبيع والشراء وان يظهروا النياحة ويلبسوا قبابا عملوها بالمسوح وان يخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن يدرن في البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن على الحسين . « ٤ » ابن الاثير ج٨ ص١٦٤ « ٥ » شرحه ج٨ ص٢٠٧

« ٦ » مسكويه ج٢ ص٣٢٤ وما بعدها ، ابن الجوزي ٦ ص ٦٨ .

السياسة الاستغلالية ان تصبح الفتن المذهبية امراً اعتياديا وان يهلك اهل البلاد بعضهم البعض !

وكانت اول فتنة مذهبية كبيرة في ٣٤٨ هـ (١) . ثم توالت الفتن حتى نهاية العصر البويهي وكلفت العامة ثمنا مرهقا في النفوس والاموال (٢)

ولم يعد بامكان البويهيين اخماد نار العامة التي اشعلوها . فيبين المؤرخون مثلا ان العوام بدل ان يسيروا للغزو سنة ٣٦١ هـ اقترفوا في العاصمة نفسها انواع الفضائع من قتل ونهب وتدمير وانتهاك حرمات « وعجز السلطان عن اصلاحهم واطفاء ما ثار من ثائرتهم حتى صار ذلك سببا لخراب بغداد » (٣) ويذكر ابن الاثير في حوادث سنة ٣٨١ هـ « وفيها كثرت الفتن بين العامة ببغداد وزالت هيبة السلطة وتكرر الحريق في المحال واستمر الفساد (٤) » وساء الوضع لدرجة ان صمصام الدولة اراد سنة ٤١٩ هـ ان يرسل نائبا عنه الى العراق فقيل له « العراق تحتاج الى من فيه سيف » لكثرة الفتن فيه .

وكان للفوضى المركزية اثر في زيادة فعالية الاعراب وتقدمهم . فعاثت شيبان في الجزيرة حتى اخضعها عضد الدولة (٥) ومنذ الربع

(١) ابن الاثير ج ٨ ص ١٧٦ (٢) انظر ابن الاثير ج ٨ ص ١٨٤ ، ١٩٤ ، ٢٠٧ ، ٣١٠ ، ج ٩ ص ٣١ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ٧٤ ، ١٠٦ ابن الجوزي ج ٦ ص ٦٨ ج ٧ ص ١٧٤ ؛ ص ٢٣٧ - ٨ ، مسكويه ج ٢ ص ٣٠٦ (٣) مسكويه ج ٢ ص ٣٠٦ ؛ ابن الاثير ج ٨ ص ٢٠٤ (٤) ابن الاثير ج ٩ ص ١٠٦ .
(٥) مسكويه ج ٢ ص ٣٩٨ - ٩ .

الاخير للقرن الرابع استولت عقيل على منطقة الموصل وغرب الفرات وبنو اسد على منطقة الحلة ، وتنفذت المنتفك وخفاجة في جنوب العراق وكانت هذه القبائل في خصومات مستمرة نشرت الفوضى والخراب : كما انها كانت تغزو المزارع والقرى والمدن وقد وصلوا في نهبهم سنة ٤٢٥ هـ حتى اطراف بغداد ولاقى الحجاج والتجار والفلاحون منهم الامرين[١] .

ويتضح من دراسة الوضع الاقتصادي في القرن الرابع[٢] . ان الفتح البويهي نزل بسكان البلاد الى مستوى الطبقة المتوسطة او الواطئة . كما ان وارد الخليفة والوزير والموظفين المدنيين انخفض بينما زادت رواتب الجيش عما كانت عليه في العصر السابق .

وكذلك قلت خدمات الدولة الاجتماعية في هذا العصر عن السابق اذ لا يوجد منها شيء حتى سنة ٣٦٧ هـ . فلما جاء عضد الدولة عمر المساجد وفرض الارزاق للقوام والمؤذنين والائمة فيها واقام الجرايات لمن يأوى اليها من الغرباء والضعفاء[٣] وارسل الصلات لاهل المدينة واخرج الصدقات لاهل الحاجة من المسلمين والذميين . وكان يرسل كثيراً من المال — في افتتاح السنة المالية — الى العمال في النواحي ، ليقوم القضاة والوجوه هناك بتوزيعها على ذوي الحاجة والمسكنة[٤] واذن لوزيره المسيحي نصر ابن هارون « في عمارة البيع والاديرة واطلاق الاموال لفقرائهم »[٥] .

(١) انظر المنتظم ج ٦ ص ٦٠ ج ٨ ص ٨٤ . ابن الاثير ج ٩ ص ٤٤ ص ٤٨ ؛ ص ٨١ ؛ ص ٨٤ . (٢) Duri Studies (٣) مسكويه ج ٢ ص ٤٠٤ (٤) ابو شجاع ص ٦٦ (٥) مسكويه ج ٢ ص ٤٠٧ .

ولكن هذه الخدمات على اهميتها ، زالت بوفاته . واهم اعماله انشاء البيمارستان العضدي في الجانب الغربي بجوار بقايا قصر الخلد ، وخصص له حوالي مائة الف دينار سنوياً ونقل له انواع الآلات والادوية من كل ناحية وعين له اربعاً وعشرين طبيباً مشهورين . واصبح المستشفى كلية يؤمها الطلاب ويدرس فيها اشهر الاطباء[١] .

واخيراً نذكر ان ابا الحسن الرخجي (وزير مشرف الدولة) بنى سنة ٤١٣ هـ مارستانا في واسط اكثر فيه من الادوية والاشربة ورتب له الخزان والاطباء ووقف عليه الوقوف الكثيرة[٢] .

ومن هذا نستطيع ان نقول ان الخدمات الاجتماعية كانت ضئيلة في العصر البويهي .

ولا محل هنا لوصف الزيادات في الضرائب ثم الضرائب الاضافية التي أدخلها البويهيون ويكفي ان نقول انها كانت كثيرة ومرهقة[٣] .

وهكذا نرى تدهور الوضع المالي في العراق وانحطاط مستوى المعيشة وانتشار الفوضى وتأخر الانتاج ، فلا غرابة في قول المقدسي يصف الوضع « انه (اي العراق) بيت الفتن والغلاء ، وهو في كل يوم الى وراء ، ومن الجور والضرائب في جهد وبلاء ، مع ثمار قليلة وفواحش كثيرة ومؤن ثقيلة[٤] » .

---

(١) ذيل تجارب الامم لابي شجاع ص ٦٩ Le strange :Baghdad P. 165

(٢) ابن الاثير ٩ ص ١١٣ . (٣) انظر مثلاً ذيل تجارب الامم لابي شجاع ص ٧١ : ابن الاثير ج ٩ ص ٢٤ (٤) احسن التقاسيم ص ١١٣

المراجع

اولا — المصادر الاولية

الاثير ، ابن — الكامل في التاريخ ، اثنا عشر جزء . القاهرة . ١٣٠٣هـ .

وطبعة تورنبرغ ، اربعة عشر مجلداً ، ليدن ١٨٥١ ـ ١٨٧٦

اخبار بني العباس — لمؤلف مجهول (خطي في مكتبة مسجد الامام ابي حنيفة) .

اخوان الصفا — الرسائل . باعتناء الزركلي ، اربعة مجلدات . القاهرة ١٩٢٨ .

الاربلي — خلاصة الذهب المسبوك . مطبعة الروم الارثوذكس (القدس) ١٨٨٥ .

الازدي — حكاية ابي القاسم البغدادي . باعتناء متز . هيدلبرج ١٩٠٢ م .

الاسفرايني — التبصر في الدين ، باعتناء عزت العطار الحسيني . القاهرة ١٩٤٠ .

الاشعري — مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين . جزآن . باعتناء هـ . ريتر ، استانبول ١٩٢٩ .

الاصفهاني ، ابو الفرج — الاغاني . القاهرة طبعة الساسي .
الاصفهاني ، حمزة — تاريخ سِنِي ملوك الارض والانبياء .
ايفانوف (الناشر) — مذكرات عن حركة المهدي الفاطمي .
نصوص اسماعيلية ، كاتبها مجهول . مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية المجلد الرابع . الجزء الثاني . ديسمبر ١٩٣٦ ، ص ٨٩ — ١٣٥ .
البغدادي ، عبد القادر — الفرق بين الفرق . القاهرة ١٩١٠ .
البيروني — الآثار الباقية عن القرون الخالية . باعتناء سخاو . ليبزج ١٨٧٨ .
البيروني — الجماهر في معرفة الجواهر . باعتناء ف . كرنكو . حيدر آباد الدكن ١٣٥٥ هـ .
التنوخي — الفرج بعد الشدة : جزآن . القاهرة ١٩٠٤ .
التنوخي — نشوار المحاضرة ، المجلد الاول . باعتناء مرغليوث . القاهرة ١٩٢١ م .
الجوزي ، ابن — المنتظم في التاريخ ج ٥ — ج ١٠ حيدر آباد الدكن ١٣٥٧ — ٩ هـ .
الجوزي ، ابن — تلبيس ابليس . القاهرة ١٩٢٨ .
حسول ، ابن — تفضيل الاتراك على سائر الاجناد . باعتناء عباس العزاوي . استانبول ١٩٤٠ م .

الحمادي ، محمد بن مالك — كشف اسرار الباطنية واخبار القرامطة نشره عزت العطار . القاهرة ١٩٣٩ م .

حوقل ، ابن — المسالك والممالك ، طبعة جديدة في جزءين ، باعتناء كرامرز ، ليدن ١٩٣٨ .

خرداذبه ، ابن — المسالك والممالك ، باعتناء دي خوية (المكتبة الجغرافية العربية — المجلد السادس) ليدن ١٨٨٩ م .

الخطيب البغدادي — تاريخ بغداد . الجزء الاول باعتناء سالمون . باريس ١٩٠٤ م .

خلكان ، ابن — وفيات الاعيان . جزآن القاهرة ١٣١٠ ه .

الديلمي — بيان مذهب الباطنية . استنبول ١٩٣٨

السيوطي — تاريخ الخلفاء . القاهرة ١٣٥١ ه .

شجاع ، ابو — ذيل تاريخ مسكويه . نشره آمدروز . القاهرة ١٩٢١ م .

الشهرستاني — الملل والنحل ، باعتناء غوبرتن ، جزآن . ليبزج ١٩٢٣ م ، وطبعة اخرى على هامش ابن حزم ، خمسة اجزاء ، القاهرة ١٣١٧ — ١٣٢١ ه .

شتروتمان (الناشر) — اربعة كتب اسماعيلية غوتنغن ١٩٤٣ .

الصابي ، ابو اسحاق — رسائل . الجزء الاول باعتناء شكيب ارسلان . بعبدا ، لبنان ١٨٩٨ م .

الصابي ، هلال — تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ، نشره آمدروز ، بيروت ١٩٠٤ .
الطبري — تاريخ الرسل والملوك ، اثنا عشر جزء ، المطبعة الحسينية ، القاهرة .
الطقطقي ، ابن — الفخري في الآداب السلطانية ، القاهرة ١٣١٧ﻫ وطبعة اخرى باعتناء درنبورغ ، باريس ١٨٩٤ .
طيفور ، ابن — تاريخ بغداد ، الجزء السادس . باعتناء كلر . لبزج ١٩٠٨ .
العبري ، ابن — مختصر تاريخ الدول . بيروت ١٨٩٠ م
عريب بن سعيد القرطبي — صلة الطبري ، باعتناء دي خويه ، ليدن ١٨٩٧ .
الغزالي — فضائح الباطنية ، باعتناء غولد زيهر . ليدن ١٩١٦م .
الفقيه ، ابن — مختصر كتاب البلدان . باعتناء دي خوية (المكتبة الجغرافية العربية ـ المجلد الخامس) ليدن ١٨٨٥م .
القرماني — اخبار الدولة ـ طبع حجر
قدامة بن جعفر الكاتب — الخراج وصنعة الكتابة ، باعتناء دي خوية (المكتبة الجغرافية العربية ـ المجلد السادس) . ليدن ١٨٨٩ .
القشيري — الرسالة القشيرية . القاهرة . ١٩٤٠

القرشي ، ابن الاخوة — معالم القربة في احكام الحسبة ، باعتناء ليفي ، مجموعة تذكار جب ١٩٣٨ .

الكشي — معرفة اخبار الرجال ، طهران ١٣١٧ هـ

المسعودي — التنبيه والاشراف ، القاهرة ١٩٣٨ .

المسعودي — مروج الذهب . اربعة اجزاء . القاهرة ١٩٣٨ . وطبعة باريس في تسعة مجلدات . باعتناء دي مينار . باريس ١٨٦١ — ١٨٧٧ م .

مسكويه — تجارب الامم ، باعتناء آمدروز ، سبعة مجلدات ، القاهرة واكسفورد ، ١٩٢٠ — ١٩٢١ م .

المقدسي ، البشاري — احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، باعتناء دي خوية (المكتبة الجغرافية العربية — المجلد الثالث) ليدن ١٨٧٦ — ٧ م .

المقريزي — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . اربعة اجزاء . القاهرة ١٣٢٦ هـ .

الماوردي — الاحكام السلطانية . القاهرة ١٩٠٩ م .

النديم ، ابن — الفهرست . القاهرة ١٣٤٨ هـ .

ناصر خسرو — سفر نامة ، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥

النوبختي — فرق الشيعة . النجف (عن طبعة ريتر) ١٩٣٦ م .

اليعقوبي — التاريخ . ثلاثة اجزاء . النجف ١٩٣٩ م .

اليعقوبي — كتاب البلدان . باعتناء دي خوية (المكتبة الجغرافية

العربية المجلد السابع) ليدن ١٨٩٦ .

ياقوت الحموي — ارشاد الاريب . باعتناء مرغليوث . سبعة مجلدات . مجموعة تذكار جب ، ١٩٠٧ ـ ١٩٢٥ .

ثانياً — المراجع الثانوية

أ — المراجع العربية :

بندلي جوزي — من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام القدس ١٩٢٨ .

الخضري — الدولة العباسية . القاهرة ١٩٣٨ م .

الدوري — العصر العباسي الاول ، بغداد ١٩٤٥ م .

الدوري — الجهبذة والصيرفة في العراق في القرن الرابع الهجرى مجلة القضاء ، السنة الثانية ، العدد الخامس ١٩٤٣ ص ٥٨١ وما بعدها .

زيدان ، جرجي — التمدن الاسلامي . خمسة اجزاء . القاهرة ١٩١١ ـ ١٩١٤ م .

عنان — الحاكم بامر الله . القاهرة ١٩٣٧ م .

متز — الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى . تعريب عبدالهادى ابو ريدة . جزآن . القاهرة ٩٤٠ ـ ١٩٤١ م

الهمداني — رسائل اخوان الصفا . القاهرة ١٩٣٥ م .

ب - المراجع الاجنبية :

Abbot, N. = Arabric Papyrii on the reign of al-Mutawakkil. Z.M.D.G. B, 92. H.I. 1938 p. 89 off.

Ameer Ali = A short History of the Saracens, London 1934.

Barthold, W. = Turkestan down to the Mongol Invasion, G.M.S. 1929.

Barthold, W. = Mussulman Culture. Calcutta 1934.

Bowen, H. ; The Life and Times of Ali b. Isa. Cambridge, 1928.

Browne, E.G. ; A Literary History of Persia, vol I. Cambridge 1929.

Casanova ; la Doctrine secrete des Fatimides d, Egypte.. Caire 1910.

Duri, A.A. ; Studies on the Economic Life of Mesopotamia in the 10 th. cent. A.D. (Mss. ph. D. thesis).

De Goeje, M.J. ; Memoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides, Leide 1896.

Ivanov ; the Rise of the Fatmimds. Calcutta 1942.

Lane - Poole, S. ; Mohammadan Dynasties, London 1893.

Levy, R. ; A Baghdad Chronicle. Cambridge 1929.

Lewis, B. ; The Origins of Ismailism. Cambridge 1940.

Lewis, B. ; Islamic Guilds, E.H.R. 1937.

Massignon, L. ; La Passion d' al-Halladj,2 vols. Paris 1922.

Minarsky, V. ¦ La Domination des Dailamites, Paris 1932,

Hudud al-alam. transl and com. by v. Minorsky G.M.S. 1937.

M uir, w ¦ The Caliphate its Rise, Decline and Fall. ed, by Weir. Edinburgh 1924.

Noldeke ¦ sketches From Eastern History. transl. by I.S. Black. London 1892.

Nicholson ¦ A Literay History of the Arabs. Cambridge 1930.

de Sacy, ¦ Expose de la Religion des Druzes, 2 vols, Paris 1838.

Siddiqi ¦ Caliphate and Kingship in Medieval Persia. Islamic culture oct. 1935 p: 5 60 osf, 1936 p. 97 off.

Tritton. A.S. ¦ The Caliphs and their Non-Muslim subiects. London 1930.

The Encyclopedia of Islam.

articles:

Abdullah b. Tahir, Buwayhids, Fatimids, Karmatians,
Saffarids, Samanids, shadd, sinf. Zanj.

The Encyclopedia of social Sciences. art Guilds (Muslim).

فهرس المصطلحات والفرق

جدول الاخطاء المطبعية

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
١	١٦	الزنيح	الزنج
١١	٧	سربة	سربه
١٣	١٩	البديهي	البويهي
٢١	١	السخبة	السبخة
	١٩	ثبت	بثت
٣٤	١	٢٤٧	٢٢٧
٣٩	١٥	سفر	سفن
٤٣	١٣	عليا	–
٤٤	١٣	من	–
٤٥	٥	رد	ود
٥٠	٦	الجرريه	الجزرية
٥٧	٩	الحليقية	الحقيقية
٦٣	١٧	في	الى
٦٤	١	الخليفين	الخليفتين
٦٧	٣	الغلايين	الغلامين
	٨	نهاية	نهايه

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٨	٥	الولى	الوالي
٨٩	٧	الآبة	الابلة
٩٣	١	يخط	يخطو
١١٣	١٠	٨٦م	٨٨٦م
١٢٠	١٩	مسكوية	مسكويه
١٢٨	٢	متبلم	متبرم
١٣١	٢٧	التعب	التعصب
١٣٢	٣	ان	ابن
١٣٣	٥	الويس	لويس
	١٥	شأنهم كثير	شأنهم في كث
١٣٤	٣	الى	على
	٧	الفاطمة	الفاطمية
١٣٥	٧	الراون	المرادون
١٤٣	١٥	المستوعون	المستودعون
١٤٩	٣	اللذ	اللذة
	١٦	المراتت	المراتب
١٥٤	٧	ابن رام	ابن رزام
١٦٩	٢	البهم	اليهم

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧٢	١	انهسا	انها
—	٦	—	التي (في اول السطر)
١٧٧	١١	للضاء	القضاء
١٧٩	١٠	الخلة	الحلة
	١٦	G. wilds	Guilds
١٩٠	١٩	المتقرر	المقتدر
١٩٣	٢١	الصادو	المصادر
٢١٠	١٢	بالمصاقية	بالمصافية
٢١٩	١	ذه	هذه
٢٥٥	١١	الداغة	الدائمة
٢٦٤	٣	الثناء	الشتاء
٢٧٥	١٣	شرأبو	اشرأبوا

ثبت المواضيع